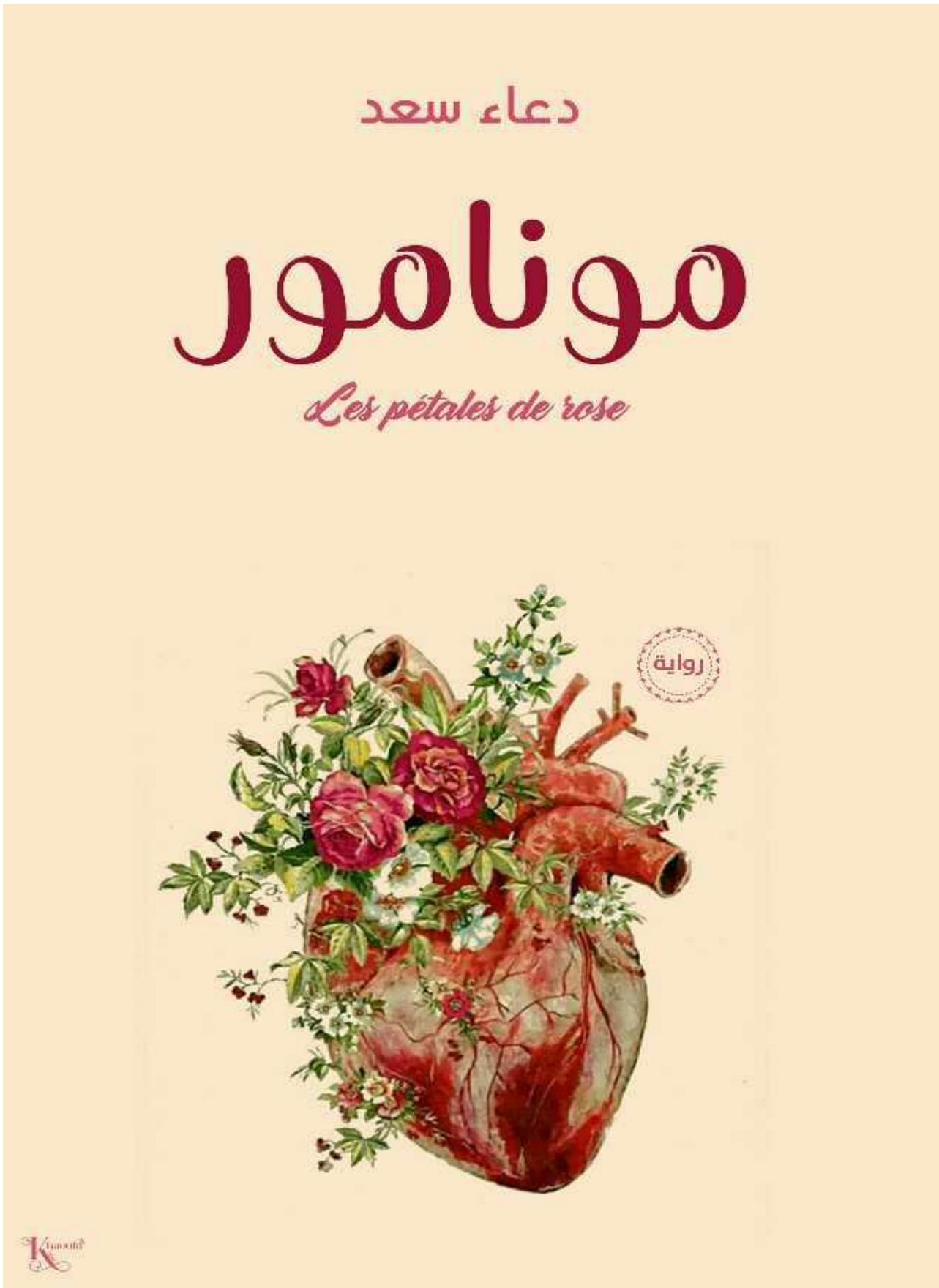

مونامور

~~Pétales de rose مونامور~~

معلومات الكتاب:
نوع العمل: رواية.
تصميم الغلاف الخارجي: تقي حمدي.
تصميم الغلاف الداخلي: خولة أعبيد.
مؤلف العمل: دعاء سعد.
تاريخ النشر: 2024
الناشر: مكتبة كتوباتي الالكترونية.
تنسيق الرواية: دعاء سعد.
تصنيف العمل: اجتماعي، دراما.
السرد: فصحى.
الحوار: العامية المصرية.
حقوق النشر محفوظة للكاتب ©

إهداء

إلى

قرائي الأعزاء، نعم أنتم الذين تقتبسون من وقتكم الثمين لقراءة رواية لكاتب غير مشهور أو معروف.

شكر خاص

إلى

صديقتي خولة أعبيد، لمياء البغدادي.

إلى آلاء ناجي، تقي حمدي، خديجة أحمد، شهيرة عبد الحميد. أماني محمد.

إلى قرائي الأعزاء.

إلى محبين البطة نعمات.

إلى كل من دعمني وأرشدني.

مقدمة

مرحبًا عزيزي القارئ، بتَّ تعلم أني أكره المقدمات، حسنًا ماذا أقول؟ لقد أهلكت صحتي هذه الرواية. صدقني لا أقوي على كتابة أي حرف، ها أنا أحاول بكل جهدي لكي أكتب لك مقدمة مميزة. دعك من المقدمات ابتسامتك جميلة، ما علاقتها بالأمر؟ فقط حاول الحفاظ عليها، بالمناسبة يجدر أن يكون بجوارك علبة محارم أو منديل، تحسبًا ليس ألا. اشتقت إلى عالمهم وإليهم أليس كذلك؟ سأدخل في صلب الموضوع، لا تتوقع أنك قد تنعم بالحقيقة الكاملة، فقط استمتع وحسب. وأعذرني على تضييع وقتك الثمين في هراء أكتبه في أوقات فراغي.

الفصل الثاني والعشرون
"حبيبتي"

أضواء مصابيح الشارع تصدر انعكاسات ملونة على زجاج نوافذ السيارات. مظهر الأوراق الجافة المتساقطة، رائحة الخريف، النسمات الباردة. أنه سبتمبر باريسي. أغنية كلاسيكية تتردد في الأرجاء.

"حبيبتي على مياه الينابيع حبيبتي

"Mon amour, sur l'eau des fontaines, mon amour

فرنسا، باريس حيث برج أيفل يحاصرك من كل حدب وصوب. مدينة الحب والرغبة. مدينة العطور الأخاذة والنفاذة. هل تعرف ِلمَ يا عزيزي تشتهر بالعطور النفاذة والمغرية؟ سأخبرك. كان الأوروبيون كريهي الرائحة بشكل لا يطاق من شدة القذارة. حتى أن مبعوث روسيا القيصرية وصف ملك فرنسا – لويس الرابع عشر " أن رائحته أقذر من رائحة الحيوان البري "، وكانت إحدى جوريه تدعي مونتيسبام تنقع نفسها في حوض من العطر حتى لا تشتم رائحة الملك.

* **

... بعد ثلاث أشهر، ربما أكثر.

طارق في دولة أجنبية منذ ثلاث أشهر، لم يستطع التحدث إلى أيَّ أحدٍ بسبب ضغط العمل الهائل هناك. كان أخوه يتصل بمدبرة المنزل ليطمئن على زوجة شقيقه ويكذب ويخبر المدبرة أن طارق هو من يطمّئن.

..مر شهر رمضان الذي قضته وحدها بائسةً يائسةً. تدعو له بالهداية، فهو بالنهاية زوجها. ماذا تفعل؟ لعل الله ينظر في قلبه ويهده إليه وينير عتمته.

تجلس في حديقة السرايا ويبدو على وجهها علامات القلق واللهفة وبجوارها نجوى تجلس مقابلها. تسألها في قلق:

-نجوى؟

نجوى في ودٍ:

- نعم يا هانم.

تطرقع أصابعها في توتر:

-هو مش طارق أتأخر ولا أنا بيتهالي؟

نجوى في حكمةٍ:

-الغايب حجته معاه يا هانم.

تحادث ذاتها في مشاعر متكدرّة، متخبطة:

-لما هيتكلم هتخانق معاه وهعاتبه ومش هيحصل طيب أبدًا، أنا قلقانة عليه، ومش عارفة ليه؟ طيب لحظة أنا ليه خايفة ومخضوضة عليه للدرجة دي معقولة، لا مش معقول؟

لاحظت نجوى أنها في حالة يرّثي لها:

-يا هانم أنتِ سرحتي فين؟

تجيب في تشتت:

- لا مفيش، بس كنت بفكر هو طارق كويس، ولا أقولك مش مهم أصلًا.

تعلّو ثغر نجوى ابتسامة كمنّ يعلم أن هناك من وقع في الفخ:

-طارق بيه بيتصل كل يوم علشان يطمن عليكِ وإني أخد بالي منك.

تسألها غير مصدقة:

-بجد يا نجوى؟

تخبرها بصدقٍ:

-ماجد بيه هو اللي كان بيقولي كدا.

تصل ابتسامتها إلى أذنها وتتحدث في خجل:

-ومقولتليش ليه؟

محدثةً ذاتها في حيرة:

-هو أنا مهمة كدا عنده؟

و في خَّضم تفكيرها وشتات عقلها. يباغتها رنين الهاتف النّقال برقم هاتف يبدو أنه من خارج البلاد، تتناول هاتفها وتجيب بكل حزم و جد:

- مين؟

يخبرها ممازحًا:

-أنا ماجد، أنتِ مش عارفني؟

تخبره في بلاهة وحزم:

-ماجد مين؟

يخبرها جادًا:

-ماجد نسيبك، أخو طارق طيب.

تسأل في خجل وقد توردت وجنتاها:

-طارق عامل إيه؟

يخبرها بودٍ:

-طارق كويس وبيسلم عليكِ وبيقولك تاخدي بالك من نفسك فاهمة وكمان نفسه يرجع بس ضغط الشغل.

تخبره غير مصدقة:

-بجد يا ماجد؟

يخبرها كاذبًا:

-وهكدب عليكِ ليه؟

تسأله في لهفةٍ:

-هيرجع امتى؟

يجيب مطمّئنًا:

-هيرجع بعد شهر.

يأتي صوت رجوليًا مناديًا له و هو في خَّضم محادثته:

- ماجد.

يخبرها في عجلٍّ:

-جنة أنا هقفل دلوقت.

يغلق معها المكالمة الهاتفية ويرى من كان ينادي باسمه منذ برهة:

-أيوه أي خدمة؟

يضيق عيناه في شكٍ:

-كنت بتكلم مين؟

يخبره هادئًا غير مبالٍ:

-كنت بكلم جنة.

تتبدل ملامح وجهه ويخبره منفعلًا:

-و يا تراه إيه الكدبة المرة دي؟

يخبره بثباتٍ وجدٍ:

-قولتلها تخلي بالها من نفسها وإنك بتسلم عليها وعاوز ترجع دلوقت.

يردف الشخص الآخر بذات الانفعال وهو يستشيط غضبًا:

-وقولتلها كدا ليه؟ أنتَ عارف كويس أنها متهمنيش، وبعدين سيبك أنا هكلم سارة واحشتني، هكلمها بعد مدة طويلة جدًا، أكيد وحشتها.

يقطب جبينه في استهجان:

- أنتَ عمرك ما هتتغير، يا بني اللي بتعمله دا حرام. أنتَ راجل متجوز دلوقت ومينفعش اللي بتعمله، أنتَ في مقام الزاني دلوقت، والله ما أعرف أيهما أسوأ إنك كنت في مقام المشرك ولا دلوقت اللي بقيت في مقام الزاني. دا ربنا سبحانه وتعالى بيقول {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }. يعني اللي بتعمله أكتر ما هو غلط فهو حرام يا حبيبي. بس أعمل إيه بنفخ في قربة مخرومة.

يرمقه بعينيه بنظرة باردة:

-لا مش هتغير، وروح شوف شغلك.

يتركه ويذهب خارجًا، لقد سئم من هذا الفتى، بالطبع هو أخيه ولكنه لا يستمع له أو لأي أحد. ينفذ فقط ما يجول في عقل الجوزة العفنة.

يتناول هاتفه الملّقى على الطاولة ويتصل بحبيبته، يخبرها محبًا وعاشقًا:

-واحشتيني جدًا جدًا موت ونفسي أخدك في حضني دلوقت.

الطرف الآخر من المحادثة ظلّ صامتًا، لذلك ردف سائلًا:

-هو أنا موحشتكيش ولا إيه؟

تخبره وهي توجّس في نفسها خيفةٍ:

-لا طبعًا، أنا عاوزاك في موضوع مهم.

يخبرها منفعلًا و قلقًا عليها:

-مالك في إيه أنطقي؟

تخبره في وهنٍ:

-موضوع مينفعش نتكلم فيه في الموبايل.

يخبرها قلقًا ومطمّئنًا لها:

-أنا هرجع مصر، وهشوف إيه الحكاية دي؟

.يغلق هاتفه ويرميه على الطاولة ويتناول الهاتف الأرضي متحدث مع أحدٍ بجوار مكتبه وبالتحديد يهاتف أخيه، يخبره في وجلّ:

-ماجد أحجز طيارة 5:30 مساء، عاوز أرجع مصر دلوقت.

يسأل أخوه متعجبًا:

-خير في إيه؟

يخبره في عجلّ:

-أحجز أنتَ بس وبسرعة، لازم أكون في مصر الساعة 9 بالليل ومتأخرش عن كدا.

- حاضر هحجزلك أهو.

...يغلق الهاتف مع أخيه ويتحدث مع أحدٍ ما له علاقات مهمة في هذا البلد ليحجز له تذاكر الطيران. بعد أن أتم مهمته يهاتف زوجة أخيه ليخبرها النبأ السعيد أو التعيس لست أدري؟

يخبرها في ممازحةٍ:

-طارق جاي بالليل أفرحي بقا.

تخبره في خجلٍ:

-وأفرح ليه يعني؟

يردف ضاحكًا:

-يا كدابة أنتِ فرحانة.

تخبره في بهجةٍ وخجلٍ:

-أيوه، فرحانة.

يباغتها سائلًا مغايرًا لطرف الحديث:

-هتعرفي تطبخي ولا تفضحينا؟

تخبره بنبرة هادئة:

-لا متخافش هعمل كل حاجة، وهتطلع تحفة وهعمل الأكل اللي بيحبه، هسأل نجوى يعني لأني معرفش هو بيحب إيه.

يردف سائلًا:

-هتعزمي أهلك أكيد ولا إيه؟

تخبره في وجلّ:

-أكيد هعزمهم، يلا بقا علشان الحق أجهز كل حاجة.

تغلق المكالمة معه وتتحدث مع نجوى في فرح غير معهود:

-نجوي طارق بيحب يأكل إيه؟

تخبرها باسمة:

-أنا هحضرله الأكل اللي بيحبه.

تخبرها في إصرار:

-لا أنا عاوزة أحضر الأكل المرة دي.

نجوي بودٍ:

-خلاص هساعدك بس.

تتحدث في لهفة وعجلّ:

-طيب أنا هكلم ماما عشان تيجي هي وبابا، و أنتِ كلمي محمد بيه وهند هانم.

تخبرها المدبرة بودٍ أنها ستفعل ذلك وتتركها لتهاتف والدتها.

تجيب والدتها متعجبة فهي لا تتصل بها هكذا فجأة:

-ألو، عاوزة إيه؟

تخبرها مشاكسةً في سرورٍ:

-إيه الكلام الناشف دا يا ماما. على العموم واحشتيني جدًا يعني.

تسألها في عجبٍ:

-وحشتك أزاي أنا مكلمكِ امبارح؟

تخبرها مكررةً في نبرةٍ طفوليةٍ:

-يا ماما واحشتيني يا ماما.

والدتها في جدٍ:

-قولي عاوزة إيه من الآخر؟

تخبرها صراحةً:

-بصراحة طارق راجع وأنا عاملة العشا وعاوزكم تحضروا.

والدتها بلامبالاة:

-طيب حاضر.

تسألها مستفزةً لها:

-أفهمها أزاي حاضر دي؟ هتيجي ولا لا؟

والدتها بنفاذٍ صبرٍ:

-ما قولنا حاضر، إيه الغلاسة دي؟

تخبرها ممازحةً :

-ماشي هروح أغلس على حد تاني.

.. تنهي المكالمة مع والدتها وتتحدث مع صديقتها.

تخبرها بحبورٍ:

-نودي قَلبـي، واحشتيني بقالك أسبوع مقعدتيش معايا؟

تجيب بصوت واهنٍ:

-معلش بقا تعبانة شوية.

تتبادل نبرة صوتها إلى صوت مبتأس:

-مالك في إيه احكيلي؟

ندى بلا مبالاة:

-لا مفيش حاجة.

تخبرها بما تريد مباشرة في سرورٍ بالغٍ:

-طيب تعالي أنتِ وعمي وطنط ونادر.

-أنا عزماكِ على العشا، وأهو تغيري جو.

تزفر ندى بصوتٍ مسموعٍ:

-نادر.

تسألها بودٍ:

-ماله نادر؟

تجيب باكية:

-هو سبب اللي أنا فيه دلوقت؟

تسألها في ودٍ:

-أزاي أنتوا كنتوا صحاب كويسين، حصلكم إيه؟ وآخر مرة الراجل دخل البيت من بابه أظن؟

ندى في حنق تنزع عنها ثوب النحيب:

-أنا مبكلمهوش من 3شهور ويمكن أكتر.

تسألها متعجبة:

-ليه كدا؟

تخبرها في ضيق:

-علشان رافض نكون صحاب وأنا مبحبهوش، وهو عاوزاني أحبه بالعافية، وكمان عمل حركة مستفزة، قابل بابا علشان كان عاوز يتقدملي، بس أنا رافضته. مش عارفة أخلص منه، بس المشكلة أني بعيد عنه بس معرفش ليه قلبي واجعني؟

تخبرها في ودٍ:

-انسي يا ندى، مش كل الناس زي بعضها، ليه مصممة تعذبيه، وهو ملهوش ذنب في حاجة. يعني كلنا نستحق فرصة تانية، دايمًا نستأهل فرصة تانية.

ندى بضيق وبؤس:

-فكك من السيرة دي، عامةً مش هنقدر نيجي كلنا، مرة تانية، متزعليش يا قلبي.

تخبرها مؤنبةً:

- بقا كدا هتكسفيني!

-معلش يا قلبي. مش هينفع.

تغلق المكالمة وتهمَّ بالعمل وأعداد الوليمة، أعّدت أصنافًا كثيرة، صنعت بكل حبّ، كان الوقت ضيقًا ولكنها استطاعت أن تنتهي من العمل بمساعدة نجوى بالطبع.

..الساعة العاشرة مساءًا.

وصل إلى وجهته وظلّ في المطار منتظر أخيه أن يبعث له سيارته، فأخيه حجز الرحلة العاجلة، ليصل قبله لأن هناك أعمالًا تركها له غير منجزة و طارق بالطبع حتى لو وصل قبل أخيه لن يعرف أن يتصرف فهو ولد " نعنوع " ومرفه. ظلّ

منتظرًا إلى أن يأتي سائقه، وعندما وصل السائق أخذ منه السيارة وذهب إلى منزل أدهم لأنها أخبرته أنها هناك. كان مصدوم و أفكار كثيرة تدور في رأسه، وعندما رآها سألها مذهولًا:

-سارة أنتِ هنا ليه؟

تخبره في خوف، ليس لأنها تخشاه وإنما تخشي غضبه وانفعاله:

-دا بيت زوجي، أنا وأدهم اتجوزنا يا طارق.

مازال مصدوم غير مصدق:

-أزاي دا، أنتِ بتقولي إيه؟

تخبره في قلق:

- بقولك الحقيقة لأني حامل.

يسألها في عدم فهم:

-أزاي حامل يعني لا دا مش ابنه أكيد؟

تبتعد عنه خطوات خائفة مبررة ما حدث:

-لا ابنه، وحصل دا غصب عننا، لما شوفتك نايم جانبها وماسك أيدها، قولت خلاص أنك مش محتاجني جانبك، وفي الأول والآخر مكناش هننفع لبعض، وشربت كتير ومعرفتش بعدها حصل إيه، كانت ليلة وعدت، بس دا محصلش لأني بعد شهر عرفت إني حامل، وقولت لأدهم، وأدهم كان راجل جدع وأتجوزني يعني.

يخبرها ثائرًا يحتقن وجهه بالدماء:

- أنتِ بتبرري غلطتك، أنا حبيتك، وعمري متخيلت نفسي غير معاكِ، و أنتِ خونتيني، وأزاي يعني كدا أنا بجد قرفان منك.

ثم يهدأ ويردف باكيًا:

-قولي أن دا كذب يا سارة، بلاش تجرحي قلبي من فضلك، أنا بحبك.

تبتعد عنه أكثر، تفضل أن تكون بعيدة عنه في تلك اللحظة، فهي تعلم غضبه المجنون يمكن أن يؤذيها ويؤذي طفلها:

-عاوز تعرف الحقيقة؟

يخبرها منفعلًا:

-في إيه كمان؟

تردف في خوف:

-طارق أنا مكنتش عاوزة أطفال منك، أنتَ سبتني طول التلات شهور اللي فاتوا، هل كلمتني؟ أتطمنت عليَّ حتى؟ لا كل دا محصلش، طارق أنتَ بتخاف من باباك يعني قال أتجوز روحت أتجوزت عادي وحتى أنا مهمتكش، أنتَ مش شخص مسئول ويمكن إن حد يعتمد عليه ....

يقاطعها في غضب عارم، صارخًا:

-وأدهم حبتيه صح، وهو واخد مكاني دلوقت؟

تخبره في ضعف:

-أفهمني يا طارق ....

يقاطع حديثها مغادرًا في غضب:

-مش عاوز أفهم .. انتهينا.

وهنا سأتجه إلى كلمات هذه الأغنية التي قام بغنائها "محمد سعيد" التي شعرت أنها تكمل هذه المحادثة الناقصة ربما:

"مكملناش، ولا باقي صور تجمعني وياكي

ودون الناس، بقيت شايفك كأني لسه جواكي

روحي للي شايفاه حبيب وأنسي الوعود وأنسي الكلام

بقيت الهم في عز ليلك وصرتي غريبة بدون سلام

فارقلك إني أكون بخير، بخير إزاي وأنا بدونك؟

فارقلك راحتي في بعادك وراحتي بس في وجودك"

..... في السرايا، في مثل هذا الوقت.

الجميع ينتظر على مائدة الطعام التي تمتلئ بكل ما لذ وطاب. يدخل ماجد محييٍ لهم ، تذهب راكضة إليه حلما تراه:

-في إيه يا ماجد طارق مجاش معاك ليه؟

يأخذها على انفراد محدثٍ إياها في صوت يكاد أن يكون مسموعًا:

-طارق راح يشوف سارة، للأسف.

تحاول أن تخبأ حبات اللؤلؤ التي تكورت في عينيها في هذه اللحظة:

-وتتأسف ليه عادي يعني، تعال علشان نأكل كلنا.

تدلف إليهم مخبرة إياهم أن يشرعوا في تناول الطعام:

-أتفضلوا طارق هيتاخر ولما يجي هحضرله الأكل بنفسي.

...أجواء مبهجة ولطيفة. شرع الجميع في تناول ما أعددته ما عداها، تجلس صامتة، تتكور الدموع في مقلّتيها معلنة انهيارها، ولكنها تستعيد رباطة جأشها في كل لحظة. تضع لها والدتها الطعام في صحنها وتخبرها في حنوٍ:

-خدي دي مني أنا. يا بنتي هتقعدي تتفرجي علينا يعني؟

تخبرها بنظرات رفض و وهن:

-مليش نفس يا ماما.

تسأل والدتها في قلق:

-إزاي مالكيش نفس وأنتِ عاملة الأكل دا كله؟

يخبرها والده في عطف:

- كلي يا بنتي معانا.

تستأذن منهم هاربة قبل أن تنساب دموعها، فقد صعبت عليها نفسها وأحست بانكسار النفس والذل ربما، واستعجبت من تصرفاته. لقد كان يطمّئن عليها، فكيف هو تناقضه الآن؟ ظنتَ أنه أهتدي وأن دعواتها استجيبت. تخبرهم محاولة صنع ابتسامة زائفة، بصوت محتقن:

-أنا هروح أشوف نجوى علشان الحلو ممكن يتحرق منـها.

تدلف إلى المطبخ وتظلّ تبكي إلى أن ينتهي البكاء وتحاول أن تستجمع قوتها وتكفكف دموعها، وتدلف إليهم بأطباق التحلية.

...يقود سيارته تائهًا غاضبًا، يلعن كل من يعرفهم ويلعنها أيضًا تلك التي حطمت فؤاده للتو. مرت ساعتان وهو هائم على وجهه لا يدري أين الرحيل؟ وأين الذهاب؟ لقد فات الأوان بالنسبة له. لم يعد هناك ما يسمى "يمكن البدء من جديد". انتهى كل شيء، انتهى بشكل ساخر ومحبط نوعًا ما. لم يكن هذا ما تمنى ولكنه حدث رغمًا عنه. صدقني يا سيدي ليس سهلًا أن ترى خذلانك بيدك. أن توثق هزائمك. وأن تنهار في منتصف الأشياء، وأن تهرم ويهمُّ بك العمر ويلتهمك مثلما يلتهم غجري جائع أرنبًا متراكضًا، كان قبل قليل يمرح وباغتّه الغجري بالسهامِ ضاربًا. لأنه مهما حاولنا لا شيء ينتهي، نحن في حرب دائمة وطاحنة. لا يوجد هناك فوز أو خسارة. أنت تحارب لتبقى حيًا وحسب. لا شيء ينتهي وإنما يتجدد بتعويذات أكثر حنقًا ومهارة وسحر أسود قاتل.

.... يدلف إلى السرايا بعد ملل المسير.

الجميع كان قد غادر قبل أن يصل، لم يكن هناك سوى نجوى وأخيه. نجوى كانت تلملم الأطباق وتساعدها جنة في حملها. ماجد كان يشاهد التلفاز و كان هناك خبر عن القبض عن مجموعة إرهابيين على الحدود، بالطبع الخبر الأكثر أثارة وتشويق، بالرغم إنه "كيليشه" مكررًا نوعًا ما. ولكنه يبقي المفضل دائمًا. عندما رأته هرعت إليه مهرولة في قلقٍ:

- طارق أحضرلك الأكل؟ طارق.

نظر لها بعينين محتقنة وغاضبة، و دفعها بعيدًا لترتطم بالكرسي:

- غوري من وشي.

ومن ثم يسير مسرعًا إلى أعلى في صمت دون أن ينبس بطرف حرف. يأخذ بيدها ماجد وينتشلها من الأرض:

-قومي يا جنة وسبيه دلوقت هو متعصب ومش هيقبل أي كلمة من أي حد. وبلاش تروحي وراءه هو هيهدى لوحده.

ولكنها لم تستمع إلى حديث أخيه وهرعت خلفه راكضةً. دلفت إلى غرفته، وجدته جالسًا على طرف الفراش واضعًا يده على رأسه في صمت، عقله يغلي وقلبه يسيل الدم به كما تسيل الدموع من العينين. قلبه الذي يبكي وليس عيناه، قلبه تقرح من القهر. تقترب منه دون أن تأخذ حذرها وتسأله في فزع:

-طارق مالك في إيه؟ أنتَ كويس طيب؟

فقط صمت لا وجود للحديث، ربما هو ذلك الهدوء قبيل العاصفة. تقترب منه في حنوٍ وتمسك يده محاولة احتواءه:

-مالك بس في إيه؟ مين ضايقك؟

يدفعها بعيدًا لترتطم بخزانة الثياب، مدمدمًا صارخًا، عيناه محتقنة بالدماء والغضب، تحول ليصبح وحش ضاري:

-أطلعي برا. أنتِ السبب في اللي أنا فيه ابعدي عني، إياك أشوف وشك، ابعدي عن وشي مش عاوز أذيكِ.

لم ينظر إليها، شرع يحطم في الغرفة والمرايا التي تحتل معظمها. يحطم بيده كل شيء حتى سال الدم من يديه واخترقت شظايا الزجاج أنسجته ولكنه لم يكن يشعر بآلام يده، فجروح قلبه غائرة ولكنها من الداخل. نفضت ذاتها وذهبت إليه تحدثه بالعقل، كان يجب أن تهرب في هذه اللحظة ولكنها لم تفعل، ظنت أن ترويض الوحوش أمر سهل:

- طارق اسمعني استغفر ربنا طيب وأهدي، صل على النبي طيب، علشان خاطر ربنا يا طارق أهدي وقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

لم يكن يستمع؛ كانت الأفكار تصدر صوت عالي جدًا، والغضب أستحوذ عليه، و دون أن يقصد طرحها أرضًا في نوبة جنونه، وخَّرت مغشيًا عليها وربما سالت الدماء من فمها كذلك. بعد أن هدأ قليلًا، جلس على طرف الفراش، وحاول أن يستعيد وعيه. وعندما أفاق وجدها ملقاة على أرضية الغرفة، جثة هامدة.

مصدومًا، ونادمًا ربما:

- أنا إيه اللي عاملته دا؟ أعمل إيه أنا دلوقت؟

الفصل الثالث والعشرون "غودزيلا"

...هرع إليها خائفًا يخشي أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، حاول أن يجعلها تستفيق ولكن بدون جدوي:

-جنة قومي، فوقي، أنا معرفش إيه اللي عاملته دا؟ قولتلك أبعدي عني.

... كان صوت التلفاز عالي جدًا، لهذا لم يستمع ماجد ونجوى إلى الحرب الطاحنة التي كانت فوق رؤوسهم. بالإضافة إلى إنهم كانا يستمعان إلى فيلم غودزيلا بالإنجليزية: Godzilla هو فيلم خيال علمي أمريكي من إخراج غاريث إيفانز. هو "ريبوت " لسلسلة أفلام غودزيلا ويعيد سرد قصة أصل غودزيلا. أحداث الفيلم تقع في الزمن الحاضر، بعد 15 سنة من اكتشاف شرنقتين عملاقتين في منجم بالفلبين. يخرج من الشرنقتين كائنين آكلين للإشعاع، يسببان أضرار كبيرة في اليابان وهاواي وغرب الولايات المتحدة. استيقاظ هذان الكائنان يسبب استيقاظ كائن قديم أكثر ضراوة يعرف ب"غودزيلا"، الذي حاولت حكومة الولايات المتحدة إبقاء وجوده سراً على العالم منذ 1953 م.

بالطبع مؤثرات الفيلم تأخذ الجانب الأكبر من العمل، تشعر كأنك تعيش كل هذه الأحداث، فضلًا أن الصوت العالي يضيف رعبًا إضافيًا.

..انتشالها من الأرض ونقلها إلى غرفة أخرى و وضعها على الفراش، وسار راكضًا ليخبر ماجد بالكارثة التي حلت فوق رأسه:

-ماجد قوم هات دكتور بسرعة ودلوقت حالًا.

يقف مستغربًا، ويلّوح بنظره وإذ يجد يدين أخيه مليئة بالدماء وشظايا الزجاج ويسأل سؤالًا قمة في البلاهة:

-إيه دا أيدك بتنزف؟

يخبره طارق في فزع:

-مش مهم أيدي أطلب الدكتور لجنة الأول.

يسأله أخاه في تأنيب صارخًا:

-مالها انطق عملت فيها إيه؟

يخبره نادمًا، منفعلًا، كانت ملامحه تتبدل كل لحظة ما بين الندم والخوف والانفعال:

-أغمي عليها ومش عاوزة تفوق، روح هات الدكتور، وأنا هشيل الازاز دا ونجوي هتجبلي علبة الاسعافات.

ذهب أخوه ليحضر الطبيب من منزله فالساعة الآن الثانية عشر منتصف الليل، والطبيب لا يجيب على هاتفه النّقال أو هاتف منزله. بعد سويعات قليلة أحضر الطبيب معه و دلفا سريعًا في عجلّ ليرى المريضة و يبدو أن الحالة لا تبشر بخير.

الطبيب سائلًا في قلق:

-أثر الدم دا ليه، حد ضربها ولا إيه؟

طارق يخبره منفعلًا، متأففٍ:

-شوف شغلك يا دكتور ومالكش دعوة، مين عمل كدا ومين معملش كدا؟

يأخذ الطبيب حقيبته وهمَّ راحلًا متذمرًا:

-طيب بما أني مليش دعوة عالجها لوحدك مع السلامة.

يقبض على الطبيب من ثيابه ويشدد من قضبته، منفعلًا صارخًا في وجهه:

- أنتَ هتكشف عليها فاهم ودلوقت، ومش هتمشي من هنا؟

يتدخل ماجد وينتزع الطبيب من بين يديه، محذرًا:

-طارق دا قد أبوك عيب عليك، أطلع برا دلوقت.

يتركهم ويدلف خارجًا مشعلًا لفافة من التبغ في شّره:

-ماشي، بس علشان أنتَ أخويا الكبير.

الطبيب منفعلًا ومتحديًا:

-دا مش طبيعي، ومش هكشف عليها وهمشي ويعمل اللي يعمله.

ماجد مهدئًا للطبيب:

-حقك عليا أنا هو ميقصدش، شوفها مالها وأنا هخليه يعتذرلك بنفسه، لازم نشوف البنت المرمية دي وبعدين ربنا يسهل، دا وجبك تنقذ حياة المرضى بعيدًا عن أي خلافات.

يهدأ الطبيب ويتنفس الصعداء:

-علشان خاطرك أنتَ بس.

...يفحصها الطبيب ويبدو أن وضعها مزري حقًا. يخبره في قلق:

-ماجد أنا المرة اللي فاتت قدرت اساعدكم بس المرة دي دخلت في غيبوبة ومش بتستجيب نهائي، أنا علقتلها محاليل ومغذي، ربع ساعة لو مفقتش هاتها المستشفى.

يخبره هادئًا، محتكم للموقف:

-خليك جانبها يا دكتور، وحاول تاني يمكن تفوق، وأنا هنزل أشوف طارق.

ومن ثم يحولّ بنظره لنجوى:

- خليكِ معاها يا نجوى أنتِ كمان.

.... دلف خارج الغرفة وهبط إلى أسفل الدرج، ليجده جالس يدخن لفافة من التبغ، و فور أن راه أطفئ اللفافة فورًا.

ماجد منفعلًا، لم يسترضه ما فعله أخيه:

-عملت كدا ليه؟ هي عملتلك إيه؟

مطأطأ الرأس نادمًا:

-كنت متعصب ومكنتش شايف قدامي، أحلفلك بالله إني مقصدتش.

ماجد بذات الانفعال:

-متتعبش نفسك وتحلف بربنا لأنك متعرفوش أساسًا.

انفعل غاضبًا ومنكسرًا:

-خلاص بقا يا ماجد، إيه كلكم ضدي ليه؟ أنتوا لو كنتوا خلتوني أخد اللي بحبها مكنش كل دا حصل.

- وهي ذنبها إيه؟ بتخلص فيها اللي عمله أبوك فيك؟

يخبره مؤكدًا:

-ذنبها، أيوه هي السبب، وأبعد عني دلوقت، روح شوفها، هاتلها علاج ولا وديها في أي داهية ولا مصيبة حتى.

ماجد مستغرب من سيكولوجية أخيه التي تتبدل في هنية واحدة:

- أنتَ من شوية كنت هتموت عليها وخايف عليها، إيه حصلك دلوقت؟

يخبره بلا مبالاة:

-لحظة شيطان وراحت لحالها، وحيات أبوك يا شيخ، بلاش تفهمها إني مهتم بيها وتكدب عليها، عشان أنا مبطقهاش، عارف لو بكرهها يبقي بهتم بيها، بس هي متهمنيش أصلًا، أول ما ببصلها بتعصب وأتجنن.

ماجد منبهر من تحول أخيه بهذه الحدة:

- للدرجة دي.

يخبره مستفزًا:

-وأكتر وحياتك، عامةً أنا هسافر ومش هتشوف وشي، ومش هرجع غير بعد السنة ما تخلص، وبكدا اريحكم كلكم مني.

ماجد منفعلًا:

-أنتَ ليه مصمم تهرب زي كل مرة؟ ليه مصمم تبقي جبان؟

يخبره متحديًا، صارخًا:

-أيوه جبان وعن أذنك أنا همشي، خليك جانبها، وبالمناسبة لما تعدي السنة هطلقها وابقي أتجوزها لإنها واضح أنها عاجبك، و كدا، كدا أنا مقربتش منها، بس مش ضامن يعني ممكن تكون غلطت مع أي حد.

ثم يردف مستفزًا:

- ما أنتَ الملاك بتاعها، اللي هيساعدها أكيد.

يخبره ماجد محذرًا، و كاد أن يلطمه على وجهه، ولكنه تمالك أعصابه:

-طارق مش هسمحلك، وبعدين أحفظ أدبك، أنتَ بترمي محصنة غافلة في عقر دارها، حسابك عند ربنا عسير. ثانيًا يا حبيبي مينفعش تقول أسرارك أنتَ و مراتك على الملأ، حتى لو أخوك. هفضل أوعيك لحد أمتى، أنتَ مبقتش طفل يا طارق...

يقاطعه منفعلًا و همَّ مغادرًا:

-تسمحلي بقا متسمحليش أنا ماشي، دا أنتَ خلتها خل.

يتركه ماجد ويصعد إلى أعلى ليرى ماذا فعل الطبيب؟ وهل أفاقت أم ما زال الوضع على ما هو عليه؟

.ماجد متسائلًا في قلقٍ:

-خير يا دكتور فاقت؟

يبدو الوجوم على وجه الطبيب:

-أنا أتصلت بالإسعاف وهننقلها المستشفى، حالتها مش مستقرة.

تتبين على ملامحه الغضب، محاولًا تهدئة ذاته:

-إزاي يعني حصل إيه تاني؟

الطبيب متحير وعاجز عن فعل أي شيء:

-بصراحة هي مش عاوزة تفوق أصلًا، أنا جربت بكل الطرق ومفيش فايدة، يمكن لو حجزنها في المستشفى نقدر نعمل حاجة، دا غير إن نبضات قلبها بتنخفض، وجسمها بيتلج كل ما يعدي الوقت، فلازم ننقلها في أسرع وقت.

يسأل فزعًا:

-يعني ممكن تموت؟

الطبيب يحاول طمأنته، ولكن في الحقيقة يعلم أنها يمكن أن تلفظ آخر أنفاسها سريعًا:

-لا متخافش مش هتموت، هي الغيبوبة كدا.

....بعد مضي نصف ساعة مرت ثقيلة وخانقة. أتت سيارة الإسعاف لتنقلها إلى المشفى. حملها ماجد بين ذراعيه، وكان ثقلها أخف من ريشة ربما، لم تكن بصحة جيدة على أي حال. يطلق مزحة بدون أرادة منه:

-شايل سحلية يا ناس، ليكِ حق يحصل فيكِ أكتر من كدا.

..بعد نصف ساعة أخرى ...

أدخلتَ إلى المشفى و حجزت في غرفة الانعاش بسبب حالتها الحرجة. نائمة بين كل تلك الأجهزة، تحاول الصراع للبقاء، أنفاس تهبط وتتصاعد من الأجهزة وحسب.

... ماجد خارج غرفة الانعاش مع الطبيب محدثًا إياه في فزع، لا يدري ما يفعل ضاقت عليه الأرض بما رحبت. تجول في عقله أفكار كثيرة، إحداها هو موت الفتاة، فهي هشة فعلًا وضعيفة البنيان.

ماجد متحير:

-أتصل باهلها يا دكتور ولا أعمل إيه؟

الطبيب يحاول تدارك الموقف:

-هتتصل بأهلها دلوقت 1:30 بالليل؟

ماجد في قلق وخوف:

-يا دكتور محمود أنا مش عارف أعمل إيه؟ إزاي يعني دا يحصلها؟ أنا هكلم والدي، لأني مش عارف أقرر حاليًا.

... يتناول هاتفه في هلَّع ويهاتف والده:

- تعالَ بسرعة في المستشفى، ومتتصلش بحد، تعالَ لوحدك يا بابا.

والده في فزع واضعٍ يده على صدره:

-حصل حاجة لطارق ابني؟

ماجد في وجلّ:

-تعال بسرعة وأنا هفهمك.

يغلق هاتفه ويخبر سائقه أن ينقله إلى المشفى بشكل سريع، التي أخبره عنوانها ابنه منذ برهة.

..يصل إلى المستشفى وهو هلوع جزوع، يتحدث مع ابنه خائفًا. يخبره مرتعبًا:

-في إيه يا بني؟

ماجد مطمّأنً له:

-ابنك طارق بخير، اللي محجوز هنا مراته.

تعتري ملامحه الصدمة وتتخلل تجاعيد وجه المترهلَّ، سائلًا في خوف:

-جنة مالها؟

ماجد بائسًا:

-تعبت شوية ودخلت في غيبوبة.

يحدج عيناه منفعلًا:

-وطارق السبب صح، هو اللي عمل كدا؟

ماجد متسترًا على أخيه، مدافع عنه:

-طارق مالهوش دعوة بأي حاجة، هو قلقان عليها أكتر مننا كلنا.

والده غاضبًا:

-هتفضل تكدب وتستر عليه لحد امتى؟ هو اللي عمل كدا أنا عارف.

ماجد معاتبًا والده:

-أنتَ السبب يا بابا، جوزته جنة وهو مبيحبهاش، كنت فاكر إنه هيحبها وهيتغير، بس بالعكس دا كرهها أكتر من الأول.

علامات الندم تحتل تجاعيد وجهه:

-أنتَ كنت عاوزني أجوزه سارة يعني؟

ماجد في استعطاف:

-كنت جوزتها له، على الأقل مكنتش ظلمته وظلمت البنت دي معاك، عارف طارق لما بيشوفها بيحس بقرف. عارف من كتر ما هو قرفان مقربش منها من ساعة ما اتجوزوا، يعني هو عنده يقرب من واحدة من الشارع ولا يقرب منها هي.

والده بحزم:

-أنا همنعه إنه يسافر ولو لازم الأمر هحبسه.

ماجد راجيًا:

-بلاش يا بابا بلاش كفاية لحد كدا، سيبه يسافر، سيبه في حاله، لو عملت كل الحاجات اللي بتقول عليها دي محدش عارف هيبقي إزاي ولا هيعمل فيها إيه تاني؟

والده بيأس وفتور:

-عامةً أنا هقطع العقد اللي معايا، وأول ما تفوق هنطلقهم من بعض، كفاية اذية فيها أكتر من كدا.

..يخبره ماجد هادئًا:

-أنا هتصل بأبوها وأمها، علشان يقعدوا معها، وأحسن حاجة هتعملها على الاقل مش هتاذي حد تاني.

صمت والده هنية، وزفر طويلًا ومن ثم قال:

-بس برضو هخليهم يعيشوا السنة مع بعض، ومش هنطلقهم ممكن، حاجة تتغير.

ماجد في محاولة أن يكون هادئًا، يخلى مسئوليته لقد ملَّ من أنانية والده:

-يا بابا بص براحتك، اللي يريحك أعمله بس أنا مش مسؤول عن اللي هيحصل بعد كدا.

...صوت رنين الهاتف يتّصاعد، في مخدع زوجين غافلين في هدوء وسكينة يقاطعه رنين هذا الهاتف المزعج. الساعة الثانية بعد منتصف الليل من المختل الذي سيهاتف أحدًا في مثل هذا الوقت.

تستيقظ الزوجة وتهزّ في زوجها ليستيقظ ويجيب على الهاتف، بصوت ناعسٍ:

-قوم يا راجل اصحي رد على التليفون.

يلّوح لها بلا مبالاة مشيرًا لها أن تتركه وشأنه:

-سبيني أنام، وبعدين مين قليل الذوق اللي بيتصل دلوقت؟

تخبره بحزم:

-هترد ولا أرد أنا.

يتناول الهاتف من جانبه ويرد في انفعال:

-خلاص هاتي، ألو مين؟

الطرف الآخر من المحادثة بصوت متوتر:

-جنة في المستشفى يا عمي، وأنا أضطريت أبلغكم، من فضلكم تعالوا بسرعة.

تعترّي وجهه أمارات الصدمة واضعًا يده على صدره:

-بنتي؟

زوجته في قلق:

-في إيه؟

يخبره متوتر الأعصاب:

-مسافة السكة وهنكون هناك.

يغلق معه المكالمة سريعًا، ويوجه حديثه إلى زوجته في عجلّ:

- يلا غيري هدومك هنروح نشوف جنة في المستشفى.

تلطم على صدرها في انفعال وكدَّر:

-يا كبدي يا بنتي.

.....في المشفى.

الطرقات خالية وأغلب الممرات مظلمة. الصمت يحتل المكان. أصوات ضحكات لأطفال صغيرة، رعب يبث في القلوب. حركة بطيئة بالتصوير البطيء، أناس يسيرون مثل " الزومبي" الموتى الاحياء غير متزنين، الهالات السوداء تحت أعينهم، الضغط العصبي والنفسي الذي يجعل وجوههم مثل جثة تعفنت منذ ثلاث أيام وربما خرج قليلًا من الدود منها. المشفى يفوح منها الرائحة القاتلة الخاصة بالمعقم الذي يكتم الأنفاس. تلك الرائحة النتنة، التي تشمئز لها الانفاس وتقَّئ منها الأرواح. إذا أردت قتل أحد ما خنقًا، خذه لأي مشفى وستتكفل رائحة المعقم بقتله. يتراكض شخصان في طرقات المشفى البائسة، لينجدهم أي شخص ويطمّئن قلبهم، وبعد ركض ليس بهين وجدوا ممرضة تتحدث في هاتفها وتلوك اللدان كحمار بري يلوك الاعشاب الجافة، هرعا إليها في لهفة:

-فين غرفة المريضة جنة قدري؟

تجيب الممرضة بعد أن رمقتهم بنظرة خاطفة:

-الدور التالت، أخر الممر.

..يستخدما المصعد كريه الرائحة، فالسلم لن يستطيعا استخدامه بسبب الخشونة في مفاصلهم وآلام الروماتيزم المزمن الذي يعنيان منه منذ سنوات مديدة. يفكران كثيرًا فيما حدث لطفلتهم الزهرة الزجاجية، وكيف يمكن أن تنقل للمشفى في سويعات قليلة؟ قبل برهة كانوا يتناولون معها الطعام وكانت بصحةٍ جيدة. يتوقف المصعد في الطابق المطلوب، يهرعا إلى الطرقة وآخر الممر كما حدثتهم الممرضة.

يجدا ماجد جالسًا على الكرسي وأيقنوا أنهم وصلوا إلى وجهتهم، ومن المؤكد أن هذه غرفة ابنتهم وفلذة كبدهم، يهرولان إليه في حسرة وحزن وغرابة أيضًا، جميعها مشاعر تتخلل وجههم المليئة بتجاعيد العمر.

يلتقطا أنفاسهما اللاهثة ويسألان في جزع:

-ماجد يابني في إيه قولنا حصل كدا ازاي؟ متوجعش قلبنا عليها؟

يحاول أن يطمّئن قلوبهم ولكن لا جدوي، الوضع كارثي حقًا:

-أهدوا، مفيش حاجة هي بس تعبت شوية مش أكتر.

والداها في صوت مختنق وحسرة تعلّو الوجوه:

-إزاي يعني تعبت مش أكتر؟ وإزاي وهي في الانعاش؟

يحاول أن يخفف من حدة الاجواء:

-صدقوني، هي هتبقي كويسة، أنتوا ليه مش مصدقين؟

والدتها تنساب الدموع من عينيها رغمًا عنها:

-إزاي بس هتبقي كويسة وهي كدا؟ أنا عاوزة اشوفها، وهبص عليها بس.

يخبرها جادًا ومستعطفًا:

-لا، مش هتقدروا تشوفها دلوقت، أنا أسف.

تنفجر والدتها باكية تكاد أن يغشي عليها، يأخذ بيدها زوجها ويضعها على الكرسي في محاولة للبقاء قويٍ وثابتٍ.

تتحدث بنحيب وعويل واضعةٍ يدها على صدرها:

- مش معقولة بنتي يحصلها كدا، طيب ليه حصلها كدا؟ بنتي حبيبتي عمرها ما زعلت ولا اذت حد لييه بيحصلها كدا؟ يا حبة عيني دي كانت كويسة من كام ساعة.

يشدد على يدها مطمّئنٍ، محاولًا تهدئتها:

-أهدي بس، مش هيحصل حاجة.

يرمق ماجد بنظرة بطرف عينه:

- مش كدا يا ماجد يا بني.

ماجد محاولًا لملمة شتات عقله، فهو يعلم حجم الكارثة:

- طبعا كدا يا عمي.

....الساعة الثامنة صباح هذا اليوم.

يجلس الثلاثة مستيقظين حاملين الهم على أكتافهم، ينتظرون قدوم الطبيب. وعندما أتي هرعت إليه والدتها في بكاءٍ وصوتٍ مبحوحٍ، راجيةً في وهنٍ:

-ممكن أشوفها بس يا دكتور هبص عليها بس، وهي أول ما تسمع صوتي هتصحي على طول.

الطبيب في حزمٍ:

-أسف جدًا الزيارة ممنوع.

تضم يدها راجيةً في غّمرة بكائها:

- قدر أني أم وعاوزة تتطمن على بنتها، أنا نفسي اشوفها لو ثانية واحدة، بص هي هتسمع صوتي وهتصحي أنا عارفة كدا.

ماجد رق لحالها وترجئ الطبيب لأجلها:

-ممكن يا دكتور تشوفها بس دقيقتين بس مش أكتر.

الطبيب وسلم أمره لله:

-ماشي دقيقتين بس، روحي غرفة التعقيم وألبسي اللبس الخاص بالمستشفى أولًا.

تفعل مثلما يقول، وبعد ذلك تدلف إلى غرفة صغيرتها باكيةً تجعدت عيونها من كثرت البكاء. تمسك يدها في حنوٍ:

-أنا عارفة إنك سامعني افتحي عينك وبصيلي وهنروح البيت، ومش هزعلك أبدًا، بس أنتِ اصحي وفوقي.

أنفاس تهبط وتتصاعد من الأجهزة. صوت الأجهزة المزعج وسط هذا الصمت القاتل. عندما سمعت صوت والدتها تحركت أطراف أصابعها لا شعوريًا، وكأنه الأمل الذي بث في قلبها السكينة. والدتها صارخةً تستنجد بالطبيب:

-يا دكتور حركت أيدها.

يأتي الطبيب مهرولًا:

-كويس جدًا، دا مؤشر أنها سامعنا والحمد لله طلّما استجابت، ممكن تفوق بعد يوم أو اتنين.

ماجد منصدم إذا كانت بخير حقًا لمَ تحتاج لكل هذا الوقت:

-يوم أو اتنين ليه يعني؟

الطبيب يتحدث بلا منطقية، لأنه بالتأكيد لن يخبرهم أن عزيزتهم ستغادر إلى السماء في أي وقت، فلتروها قبل أن تلفظ أنفاسها واستمتعوا بالسويعات القليلة الباقية لها، بالتأكيد لن يخبرهم بذلك ولكنه سيخبرهم هراء من نوع آخر:

حالتها مش مستقرة، هي عاوزة الناس اللي بتحبهم يكونوا جانبها، ودا هيساعدها أنها تتطلع من الغيبوبة دي، وكمان كان ممكن تطول عن كدا لو اتاخرتوا عن كدا.

ماجد متخبط الفؤاد لأنه يعلم خفايا حديث الطبيب، ولكنه يخبره هادئًا مستجيبًا:

-حاضر.

...

دقت طبول الفقد. دقت طبول الموت. مرحبًا بك في عالمي الخاص. الجميع مريض لا أحد معافى. الجميع ليس مثاليًا، جميعهم ناقصون. يحتاجون دائمًا من يكملهم ويرمم نقصهم. أخبرني إن كان أحد كاملًا. أخبرني إن كان أحد منا ليس مصابًا. جميعنا بلا استثناء مصابون. ولكن لا تهتم أيام وتمضي. هون عليك وعلى قلبك. وليطمّئن قلبك.

الفصل الرابع والعشرون
"بغض"

.. **بعد يومان.**

فتاة تجلس في غرفتها منزوية على حالها، شاحبة الوجه، جامدة الملامح.

الهالات السوداء تحتل تحت أعينها محدثةٍ حفر عميقة، شوهت ملامحها الجميلة.

هاتفها النّقال يتصاعد في الاهتزاز، مكالمات متلاحقة، رسائل مكدسة، حافظة الرسائل تخبرها النجدة فلتقرئيني.

.... في الطرف الآخر شاب قلق وبإصرار كبير يتناول هاتفه ويكتب رسالة أخرى بعد فيض من الرسائل ما زال يكتبها من ثلاث أشهر وربما أكثر بكثير.

ولكنه يكتب هذه المرة راجيًا أن تتحدث معه وتعطف على قلبه المسكين وتزيل قلقه وخوفه:

- ندى كفاية بقا عناد، وردي عليا، أنا عاوز افهمك حاجة.

... الفتاة الجالسة في زاوية من زوايا غرفتها، تتناول هاتفها أخيرًا وتحنو على حافظة رسائلها وتقرأها، وبينما هي تقرأ يباغتها أتصال هاتفي وتجيب بالخطأ.

بصوت مبحوح أنهكه البكاء، بأحبال صوتية محتقنة:

-أيوه يا نادر خير في إيه؟

يسألها بصوت محزون:

-مالك شكلك زعلانة؟

تحاول أن تخفي حزنها وتتحدث بلا مبالاة:

-لا مش زعلانة ولا حاجة.

يخبرها مؤنبٍ:

-هو أنتِ ليه رفضتيني لما اتقدمتلك؟ دا أنا حتى دخلت البيت من بابه؟

كانت ستنهار باكية ولكنها استجمع قوتها من جديد:

- ممكن بلاش نفتح الموضوع دا، على الاقل دلوقت.

يرميها بفيض من الأسئلة منفعلًا، منكسر الفؤاد:

-أنتِ مش عارفة إني مقدرش أعيش من غيرك؟ وأنتِ كمان متقدريش تعيشي من غيري. بس معرفش مالك بتكبري ليه؟ ومصممة إنك تبعدي عني ليه يا ندى ممكن أعرف؟

تنفجر باكية بصوت محتقن:

نادر حاول تفهم، أننا مننفعش لبعض، وكل شيء قسمة ونصيب.

... يهاتفها رقم ما أثناء حديثها، فتخبره أن يتنظر قليلًا:

-نادر معلش هعلق مكالمتك واشوف ماجد بيتصل ليه؟

نادر مستغربًا والغيرة تضطرم في قلبه:

-ماجد.

...تجيب على المتصل في وهن وتحاول أن تبدو طبيعية:

-خير يا ماجد؟

ماجد في بئس:

-جنة في المستشفي من يومين وكانت عاوزكِ جانبها، هي محتاجكم دلوقت.

تصدم من حديثه ولا تدري ماذا تقول؟ تسأل أسئلة بلهاء:

-مالها يا ماجد حصلها إيه؟ أنطق.

يخبرها أن تأتي سريعًا فقط لتراها، دون أن يبرر أي شيء:

-تعالي المستشفي بس وكل حاجة هتكون تمام.

تنسدل الدموع من عينيها وكأن الحزن خلق لها:

-حاضر.

تغلق مكالمته وتخبر نادر أنها ستغلق ولن تحادثه مجددًا. ولكنه يتشبث بها بإصرار:

-استني هنا مالك بتعيطي ليه؟

تزداد نحيب:

-جنة في المستشفي!

يصدم سائلًا:

-إيه حصلها؟

ندى هاربة منه وهاربة من ذاتها كذلك، هذا ما تجيد فعله، الهرب:

-معرفش، سلام دلوقت.

...في المشفى.

توتر الاجواء، التوتر يحتل المكان. صوت أقدام المارة أصبح رتيبًا. الطرقات الخالية. الأشباح التي تطوف بعد منتصف الليل. الرائحة القذرة مجددًا. سكون يرعب أقسي الرجال وأعنفهم.

شخصان يتحدثان في قلق وتوجَّس. يتحدث أحدهم قلقًا خائفًا:

-دكتور محمود، هي مش مفروض تفوق دلوقت؟

الطبيب متحيرًا:

-مش فاهم أنا ليه مش بتستيجب بسرعة، دا غير نبضات قلبها بتضعف، كل ما يمر الوقت.

-يسأله وعلامات الرعب دبت في قلبه قبل وجهه:

-قصدك إيه يا دكتور، هيحصلها إيه؟

الطبيب بقلة حيلة، لقد حاول كثيرًا لم يبقي إلا أمل ضعيف للغاية:

-صدقني مش بأيدينا حاجة، دي حالة غربية جدًا، هي كان مفروض تفوق، بس معرفش ليه مش عاوزة؟

يخبره حائرًا مكتوف الأيدي:

-طيب والحل إيه؟ هنعمل إيه؟

الطبيب يحاول تدارك الموقف ولكنه لا يعرف ما العمل:

-مش عارف، بس أكيد، هتفوق، لو فضلت كده كتير مش هنقدر نعمل حاجة، هنحاول محاولات تانية.

....ندى تهرول في طرقات المشفى لترى حالة صديقتها، وعندما تصل إلى مكانها، تجد نادر منتظر خارجًا. وكأنه يراقبها ويلتصق بها مثل العلكة.

تعنفه في انفعال:

-إيه جابك هنا؟

يخبرها بودٍ:

-كلمت ماجد وقالي على عنوان المستشفى.

تتركه وتركض بحثًا عن الطبيب مبتعدة عنه. تجد الطبيب وتستعطف قلبه بصوتها الباكي:

-دكتور ممكن اشوفها؟ أنا صاحبتها.

الطبيب محاولًا أستدارك الموقف، سوف يجعلها تراها ربما تكون هذه هي اللحظة الأخيرة ولن تراها مجددًا أو إلى الأبد:

-ماشي شوفيها.

وثم يردف في حنق:

- ما هي وكالة من غير بواب.

..تدلف إليها بعد أن ارتدت ثياب المشفى، تجلس جوارها وتمسك يدها ويقطر الدمع من عيونها فيض غزير و تخبرها في رجاءٍ و وهنٍ:

-جنة أنتِ سامعني، طيب ليه مش عاوزة تفوقي؟ مش كنتِ عاوزة تصالحي بيني أنا ونادر صح، طيب هو برا أهو، قومي بقا وفهميه أنا ليه مش عاوزاه ؟ طيب بصي أنا هعمل كل اللي أنتِ عاوزاه ومش هرخم عليكِ، قومي بقا، أنتِ واحشتيني، هنتفسح ونروح كل الأماكن اللي عاوزها، وهنتجنن، وهجبلك بيتزا من الحجم الكبير لوحدك، وهنسافر وهناخد سليفي كتير، ممكن تقومي طيب، معقولة مش عاوزة تفوقي حتى وأنا جانبك، مش كنتِ دايمًا تقوليلي أنتِ أمي وأنا بنتك، طيب الأم دلوقت عاوزة بنتها ترد عليها وتكلمها.

الطبيب يدلف إلى الغرفة منفعلٍ، ناهرٍ إياها:

-ندى مينفعش اللي بتعمليه دا، أطلعي يلا، وقت الزيارة انتهى.

تخبره بإصرار وتتشبث بيدها:

-لا مش هطلع ومش هسيبها لوحدها.

الطبيب محذرًا:

-ندى يلا اطلعي وبلاش كدا، في خطر عليها، أنتِ عاوزة تاذيها يعني؟

تخبره بوهنٍ باكية وهي تجر قداميها جرٍ:

-لا مقدرش أعمل كدا، ياريت كنت أنا ولا هي تتعب بالشكل دا.

..يرى نادر حالتها المزرية ويهرول إليها ممسكًا يدها، ساندًا إياها، ومن ثم يضعها على الكرسي القابع أمام غرفة صديقتها، مكفكف دموعها بيده، يخبرها بصوته الحانّي:

-هتبقي كويسة، متخافيش، مقدرش أشوف دموعك دي، كل دمعة بتنزل جواه قلبي يا ندى وبتكويه.

تنسدل الدموع فيضًا حتى بعد أن كفكف دموعها:

-مخفش اه مخفش، دا هي حتى مكنتش عاوزة تسمعني، عارف يعني إيه دا؟

مهدئًا لها:

-يا ندى...

وقبل أن يكمل جملته قاطعته قائلة:

-عارفة هتقول إيه هتبقي كويسة مفيش حاجة وكل الكلام التاني دا أنا عارفة.

..الطبيب في غرفتها، نبضات قلبها تنخفض. جهاز رسم نبضات القلب يصدر موجات متوترة. يهرع طاقم التمريض متراكضين إلى غرفتها. الأجهزة تصدر أصوات مزعجة معلنة رحيلها. أصوات هتاف وصراخ تعلّو. الطبيب متوتر.

الجميع خائف ويأكل القلق قلوبهم. جهاز رسم القلب يصدر طنينًا مزعجًا. هتاف يتعالىَّ، صوت يائس يقول فقدنا المريضة. توتر في الأجواء، الطبيب يصرخ. يحاول يائسًا استخدام جهاز صدمات القلب الكهربائية لاسترجاع النبض مجددًا. بعد محاولات لساعات وصراخ وهتاف وتوتر. نجح أخيرًا الطبيب في استعادة المريضة مجددًا وأصبح نبضها طبيعيًا واستعادت وعيها تدريجيًا. لقد كان ستر الله، وربما أجلها لم يحن بعد، لقد حدث الأمر لشخص ما في أستراليا، أنه مات لساعات ومن ثم نجح الأطباء في إنقاذه مجددًا. وعاش عمرًا مديدًا فوق عمره. الأمر يحدث في النهاية.

.....خارج الغرفة.

الجميع قلق وخائف، منهم من يدعو ومنهم من يتضرع إلى الله.

من يقرأ في مصحفه محاولًا تهدئة روحه القلقة.

ينتظرون خروج الطبيب ليطمّئن فؤادهم.

.. الطبيب يدلف إليهم متنفسٍ للصعداء:

-المريضة فاقت والحمد لله ، 6 ساعات وتستقر حالتها وتقدروا تشوفوها، وهتتنقل بكرة الصبح لغرفة عادية. لحد ما تستقر مؤشراتها الحيوية هتفضل في الانعاش.

يأخذ الطبيب ماجد جنبٍ محدثٍ إياه في اطمّئنان:

-أنا مكنتش متاكد إن دا هينجح، بس الحمد لله.

يطمَّئن قلبه سائلًا إياه في توجَّس:

-الحمد لله، هو في حاجة؟

الطبيب يخبره مستغربًا:

-للأسف لما فاقت كانت بتهلوس بحاجات غريبة، مش مفهومة، وكانت بتقول: طارق مش عاوز يهدي وأنا كنت بهدي فيه، وهو بيحب سارة، وكل ما تتكلم كانت عينها بتدمع.

ماجد متدارك للموقف، يخبره هادئًا:

-لا عادي يا دكتور، دي هلوسة، وأنتَ بتقول بنفسك، والمهم إنها بخير دلوقت.

..... بعد مضي ست ساعات.

في الغرفة تحيط بها عائلتها و صديقتها و نادر.

والداها في خوف وحنوٍ:

-خضتينا عليكِ يا بنتي.

ندى بصوت واهنٍ:

-بقا كدا تموتيني عليكِ.

نادر بصوت مؤنب:

-رعبتينا عليكِ وقفتي قلبنا.

تتحدث بصوت واهن ومتعب، تصدر الكلمات ثقيلة ورتيبة:

.أنا كويسة دلوقت، ماما، بابا ممكن تسبوني مع ندى و نادر؟

يغادر والداها رضوخًا لطلبها، وتشير لندى ونادر أن يقتربا منها وتمسك يداهما في ضعف:

-ندى يا حبيبتي أنتِ مش هتلاقي حد يخاف عليكِ ولا يحبك قده، بلاش تحكمي على الناس من تجربة واحدة، نادر بيحبك جدًا، ولو كنتِ عنيدة فهو أعند منك.

تخبرها مؤكدة تهز رأسها في عطف، لا تريد أن تثقل على كاهلها:

-أكيد يا قَلبـــي.

الراقدة على الفراش تخبرها راجية فهي تعلم جيدًا أن طلبها لن يرفض:

-ممكن بقا توعديني، أنكم تفضلوا مع بعض.

تتوتر ندى ونبضات قلبها تتصاعد، لن تستطيع الوفاء بالوعد ومع ذلك ستعدها لأجل مرضها وحالتها الصحية وحسب:

-وعد.

نادر يقف مذهولًا، غير مصدق أن كلمة واحدة فقط من صديقتها، أصلحت ما لم يقدر على اصلاحه منذ ثلاث أشهر؟ كلمة واحدة سحرية حلت كل شيء بغضون ثوانٍ معدودة.

... يدلف الطبيب إليهم ليخبرهم بالانصراف، لأن المريضة بحاجة إلى الراحة والسكون. يخرجا خارج الغرفة، تتحدث معه سريعًا قبل أن يبني قصورًا في الهواء، لا وجود لأساس لها في الواقع.

تخبره بنبرة متألمة:

-نادر ياريت تفهم بس إني وعدت جنة علشان مريضة، يعني هنبقي كويسين قدامها بس، وياريت متقولهاش أن أنا مش مقتنعة علشان متتعبش تاني.

يخبرها محرجًا ظن أن الأمر تم ولكن لم يتم شيء:

-أيوه كنت لسه هقولك على فكرة.

تخبره في امتعاض:

-تمام يسطا.

يحدث ذاته ناظرًا إلى حفر الهالات السوداء في وجهها:

-لسه مصممة على البعد، بس أنا برضو هفضل أحبك. سأظلّ صاحبك بالصاد أو بدونها.

يخبرها سائلًا:

-تشربي قهوة؟

تهمَّ بالرحيل:

-لا وقت تاني، وبما إنها محتاجة ترتاح أنا همشي دلوقت.

يسألها في جزع:

-هتروحي فين؟

تجيب منفعلة:

-مش شغلك أروح فين ولا هعمل إيه؟

يمسك يدها ويخبرها في حزم:

-ندى مبحبش الأسلوب دا.

تحاول نزع يدها من يده في انفعال:

- وأنتَ بقا عاوزني أتكلم إزاي؟ وأنتَ مالك أصلًا؟

يخبرها متحديًا:

-مالي ونص كمان، ومن حقي أعرف؟

تحاول أن تتملص منه، تقطب حاجبيها في استهجان:

-وحقك ازاي بقا؟

يهدأ ويخبرها في استعطاف:

-ندى ممكن تسمعيني من قلبك مرة، أسالي قلبك يا ندى وهو هيقولك.

تنتزع يدها وتنسدل الدموع من عينيها مختنقة:

-يأووه بقا أنتَ مش هتبطل يعني؟ أنتَ ليه مصمم كدا؟

يخبرها بحب وهيام ناظرًا لتلك المتعبة:

-لا مش هبطل أحبك، أنا حبيتك، بعصبيتك وجنانك، ورقتك، وحبيت كابتن ممدوح فرج اللي جواكِ، حبيت عفويتك، أقولك على حاجة أحلى؟ أنا عشقت تفاصيلك، عارفة حبيتك لما مكنتيش بتكلميني، وحبيت عنادك، وحبيت رأسك الناشفة، وحبيت لما مكنتيش بتردي عليا، حبيت لما متكلمناش، حبيتك دايمًا وعلى طول، وكل مرة، كل مرة أشوفك فيها أحبّك أكتر، ولما تغيبي طيفك بيحوطني ودايمًا معايا، حتى ولو بعيدة، وحبيتك لما رفضتيني لما اتقدمتلك، حبيتك في الثانية ألف مرة.

ثم يردف حزينًا:

-قسميني تعبك يا متعبة، تحتاجين كتفًا تستندين إليه، وأنا سأكون ذلك الكتف.

تخبره بملامح متكدرة:

-بس أنا....

وقبل أن تكمل يقاطعها بصوته الفاتر:

-عارف إنك أنتِ مبتحبنيش ومش عاوزاني بس أنا عاوزاك ومش هتخلي عنك أبدًا.

تخبره بعويل:

-أنتَ مش فاهم حاجة.

يتنهد مختنقًا :

- أنتِ في حاجة مخبيها عليا؟

تحاول أن تلملم شتات عقلها، تفرك كفً بكفٍ متوترة:

-حاجة إيه؟

* **

.. **في مثل هذا التوقيت** في مكتب يظهر من خلفه برج أيفل. ملفات مكدسة حوله. لفافات تبغ محترقة. توتر وخوف. لا يعرف ماذا يفعل يتصل بأخيه لينجده من الورطة التي حلت به. يتناول هاتفه ويخبره في فزع:

-الحقني يا ماجد، الشغل باظ وأنا مش عارف اشتغل أي حاجة؟ Sauve-moi أنقذني يا أخويا.

يخبره أخاه قلقًا:

-بس أنا كنت...

يخبره مرعوبًا، لينجده فورًا:

-سيب كل حاجة، مفيش حاجة أهم من الشغل

يخبره متوترًا:

-طيب ومراتك المرمية في المستشفى دي؟

يخبره ثائرًا منفعلًا:

-ما تولع ولا تموت حتى يا أخي، سيبك منـها وتعالَ بسرعة، وبلاش تجبلها وتجيب لنفسك الاذية والكلام، ما تغور في داهية، الشغل أهم.

يغلق المكالمة ويرمي الهاتف بعيدًا ليرتطم بالحائط، محدثًا ذاته منفعلًا:

-كل المشاكل والخنقة اللي أنا فيها دي من ساعة ما شوفتها، هي عاملة زي ملك الموت، اللي يقرب منـها ينتهي بلا قرف.

* **

...يدلف ماجد إلى غرفتها حاملًا باقة من زهور التوليب البيضاء، ويخبرها في ودٍ:

-بصي بما إنك بقيتي كويسة، أنا هسافر وخلي بالك من نفسك. الورد دا بعته طارق مخصوص ليكِ.

تخبره بصوت واهنٍ:

-بس...

يخبرها مطمّئنًا إياها:

-طارق كويس وبخير، متقلقيش.

تخبره ببراءة واستعطاف:

هو كان متعصب...

يقاطعها في ودٍ:

-خلاص موضوع واتقفل متشغليش بالك أنتِ، أحنا احتمال نرجع بعد شهرين أو أكتر، وتقدري تتكلمي معاه، حتى يكون بقي أهدي. سلام أنا دلوقت، خلي بالك من نفسك.

يتركها مودعًا لها، ويغادر سريعًا. تتناول باقة الورد بعد مغادرته، وتحدث ذاتها في خجلٍ:

-أنا مش عارفة طارق ميكونش ليه زي ماجد كدا طيب وكويس، معلش بقا نصيبي وصابني جاب أجلي.

لحظة بس هو أنا ليه حاسة بمشاعر ناحيته، دا أنا ماشوفتش يوم حلو معاه، بس هو حنين جدًا، وجبلي ورد أهو، وأول ما بكون تعبانة بيكون جانبي، بس برضو دا ميمنعش إنه متخلف عقليًا، ومجنون وبحالات.

الفصل الخامس والعشرون

"أرواح هائمة"

في طرقات المشفى رائحة المعقم النتنة. أرواح هائمة.

عقول مشتتة. قصص حب غير مكتملة. عقول فارغة وجفون مرهقة. حركة سريعة ومتوترة في الأجواء.

.. يتحدث نادر وندى، اكمالًا للحديث السابق. يتنهد مختنقًا ممسكًا بيدها في حنوٍ:

-ندى في حاجة مخبيها عليا؟

تعتريها علامات الصدمة والخوف ربما:

-حاجة إيه؟

يخبرها بصوته الحانّي مطمّئنًا لها:

-مش عارف حاسس إنك عاوزة تكوني معايا، بس في حاجة بتمنعك، لما أكون بعيد عنك مبتبقيش طايقة حد، وأول ما تشوفيني عينيكِ بتلمع وبتبقي فرحانة، بس برضو جواكِ حاجة بتمنعك وتخليكِ تبعدي عني، فأنا مش فاهم بصراحة أي حاجة فاهميني؟

تخبره متظاهرة بالقوة:

-أسمعني في حاجات مينفعش تتقال وحاجات مينفعش احس بيها من ناحيتك، أنا إيه اللي خلني أكلمك أصلًا ولا أتعلق بيك؟ أنا كنت لوحدي وكويسة جدًا.

يتناول يدها ويربت عليها بيده في حنوٍ:

-واثقة إنك كنتِ كويسة، أنتِ مكنتيش عايشة يا ندى هتكدبي عليا، كنتِ زيك زي أي حد وعايشة في روتين ممل و....

تقاطعه ببؤس شديد:

-بس كفاية لحد ما جيت أنتَ وقلبتها سعادة، وبعدين إيه؟ أدينا عايشين أتعس خلق الله وكله بسببك لو فضلنا صحاب كان أحسن.

ينظر في عينيها بودٍ:

-أنا كنت عاوزاك حلالي فاهمة يعني إيه؟ وما زلت عاوزاك برضو ومش مستغني، ومش هستغني يا ندى.

تخبره منفعلة:

-ليه مش عاوز تفهم....؟

وقبل أن تكمل يقاطعها ثائرًا:

-لا مش عاوز أفهم، أنا عاوز أعرف ليه بتعامليني كدا؟

تخبره بحزن يعترى وجهها:

-بصراحة أنا كنت مخطوبة قبل كدا....

قبل أن تكمل يقاطعها منفعلًا، ينزع يده من يدها مبتعدًا:

-وحصل إيه، فين خطيبك؟

تخبره وتتساقط القطرات من عينيها:

-حصلت شوية مشاكل كدا.

يسألها غاضبًا مشددً على ذراعها، يبدو ما تخفيه خطيرًا ربما:

-مشاكل إيه ردي عليا؟

تنظر له باستعطاف وسيل من الدمع ينهمر:

-مش عارفة احكيلك إزاي ولا أبدأ من فين؟

يزفر طويلًا ويهدأ قليلًا، مشيرًا لها أن تبدأ الحديث:

-اتفضلي احكي وأنا هسمعك.

تخبره بضعف:

-جاهز تسمع؟

يخبرها بنفاذ صبر:

-جاهز.

تخبره ببؤس و وهن:

-كنت مخطوبة من سنتين قبل ما أعرفك أصلًا ولا أعرف إن في حد اسمه نادر معانا. وكانت خطوبة عن حب، لما كنت فاكرة أن لسه في حب.

ومن ثم صمتت هنية واحدة، فأخبرها أن تكمل سيستمع، لن يغضب أو يقاطعها مطلّقًا. سيستمع بصدر رحب.

تزفر طويلًا ومن ثم تتحدث:

-عارف كنا بنحب بعض لدرجة الموت، يعني لو غاب ثانية بس كنت بموت من القلق عليه، من كتر حبنا في بعض اتخطبنا، لحد دلوقت كانت كل حاجة كويسة، وكنا اسعد اتنين، لحد ما جاء في يوم وقالي..

وهنا أنفجرت باكية دون أن تكمل جملتها. صدم من رد فعلها; فسألها ليحاول فهم ما يجري:

-حصل إيه يا ندى؟ انطقي؟

تحاول أن تلملم شتات عقلها:

- قالي مش هينفع يتجوز واحدة كانت رد سجون، عشان أنا قبل سنتين، كنت مع السواق وعمل حادثة بالعربية، وكنت لازم أنقذ عم حمزة لأنه مش وش بهدلة وكمان عشان عياله يا نادر، يعني أنا بابا ممكن بعلاقاته وهينقذني، بس عم حمزة مين هينقذه، عشان كدا روحت القسم وبلغت عن نفسي، قبل ما بابا يلبس التهمة لعم حمزة أو لأي حد ممكن يتأذي. عشان كدا بخاف أسوق العربية وبخاف أخلي السواق يوصلني مكان، بطلب تاكسي أو أروح بالأتوبيس.

يسألها مصدومًا:

-طب والراجل اللي في الحادثة مات يعني ولا كانت أصابة بسيطة؟ عشان مش فاهم .

تخبره منفعلةً:

-لا الراجل بقىَّ عاجز، و أستغل أني فرفورة ومرضيش يتنازل أو يتصالح و خدت سنة حبس مع قيد التنفيذ، و طلعت بكفالة علشان الامتحانات، وعشان بابا مكنش هيسيب بنته تترمي في السجن، دفع فلوس كتيرة للراجل عشان يتنازل بس بعد إيه، بعد ما كل حاجة انتهت.

ثم تردف في حنق وانفعال:

-ارتاحت دلوقت. بقيت كويس لما عرفت كل حاجة خلاص كدا أبعد عني وسابني لوحدي، من فضلك أمشي زي ما هو كمان مشي وصدق أني عملت الحادثة دي، أبعد.

يتناول يدها ويربت عليه بحنوٍ:

-علشان كدا غيرتي نفسك بالشكل دا، ومخلتيش مكان في قلبك لحد.

تنسدل الدموع من عيونها التي تجعدت من الحزن:

-أنا مغيرتش نفسي ولا حاجة، أيوه مخلتش مكان في قَلبــي لاي حد. لغاية ما ظهرت أنتَ وقلبت حالي وخليتني أعيش من تاني.

يجذبها إلى يسار ضلوعه لتدفن بجوار قلبه، مربتًا على ظهرها:

-بطلي عياط بقا يا بت يا عبيطة أنتِ، أنتِ فاكرة كدا أني هسيبك وكدا، تبقي غبية، أنا حبيتك أنتِ ومماليش دعوة باللي فات دا، أنتِ عندي أهم من أي حد، فاهمة يعني إيه؟ أنا أبيع الدنيا دي كلها واشتريكِ أنتِ، أنا هروح واتقدم تاني بس عارفة لو رفضتيني؟ هجيب مطواة وأغزك، وابقي خلي حد تاني ياخدك مني.

ثم يردف في حنوٍ:

-أنا مصدقك يا ندى، وهصدقك على طول، ولو كل الناس كدبتك أنا هصدقك، أنا مصدق كل كلمة بتقوليها وكل كلمة هتقوليها. وحتى لو كنتِ أنتِ اللي عملتي الحادثة، برضو مش هصدق، أن العيون دي ممكن تأذي حد. العيون دي أتخلقت عشان تحب وتتحب وبس.

تضربه على صدره بقبضتها وتبتعد عنه في خجل مما حدث للتو:

-رخم وغلس.

ينظر لها بحبً ويزَّال كل ألمه:

-بس بحبك وبموت فيكِ.

ومن ثم يردف قائلًا:

-أتعلمين ما أجمل مكان؟

تشير بيدها على شكل سؤال في طفولة، وتوردت وجنتيها.

يردف قائلًا:

- حفرة غمازاتك يا Mon bourreau.

وإذا كنتِ لا تعلمين معناها فهي تعني معذبتي بالفرنسية، أنتِ معذبتي يا ندى قلبي.

* **

..... **بعد عدة أيام.**

في ذات المشفى ذا الرائحة النتنة. في غرفة بها فتاة راقدة على الفراش وبجوارها محلول يتدلَّى منه أنبوب يتصل بيدها ليغذي جسدها المتهالك. يجلس بجوارها أبويها في صمت وربما يتحدثون قليلًا ويصمتان هنيات كثيرة. ورود ذابلة. جسد منهك. دقت طبول الحب. وجه شاحب. أحاديث مبهمة. أسرار ناقصة.

يدلف الطبيب إلى غرفتها محدثًا إياها في ممازحةٍ:

-خلاص بقا بطلي دلع خالص بقيتي كويسة وتقدري تروحي.

والداها غير مصدقين:

-بجد يا دكتور يعني خلاص كدا، الحمد لله.

الطبيب في ودٍ:

-هي بقيت كويسة خلاص، وأنا هعملها أذن خروج، وهكتبلها على شوية أدوية علشان الانيميا اللي عندها دي، واهتموا بصحتها، وهي مش هتتعب تاني بإذن الله.

تخبره بصوت واهنٍ:

- متشكره جدًا يا دكتور.

.... يدلف الطبيب خارجًا ويتركهم بمفردهم.

والدتها تضيق جفونها وتردف في شك:

-هو طارق مجاش حتى يطمن عليكِ؟

تخبرها مبررة له:

-يا ماما ما أنتِ عارفة هو أكيد معاه شغل ولا نسيتي يعني؟

تعقد حاجبيها وتزفر في ضيق:

-ما هو ماجد معاه شغل ومع ذلك مسبكيش لحظة، وكان واقف معانا وبيجري من هنا ومن هنا.

تخبرها كاذبة، تخفي عنها الحقائق أو تحاول:

-ما هو طارق قاله يعمل كدا، علشان هو مش فاضي.

تنظر لها بحدة لتنتزع منها الحقيقة:

-ماشي. يعني أنا مش عارفكِ لما تكذبي.

تتكور الدموع في مقلّتيها، لقد نجحت والدتها في ممارسة الضغط النفسي عليها:

-خلاص بقا يا ماما كفاية، يعني أنتِ عاوزاني أقولك إيه؟

والدتها في تذمرٍ:

-تقوليلي الحقيقة، أنا أبوكِ لما كنت اتعب مكنش بيسبني لحظة، وأنتِ جوزك إيه حكايته؟

تخبرها باكية:

-جوزي مبيحبنيش، زيكم كدا أقولك على حاجة أحلى، جوزي أصلًا مش معترف بيا إني مراته، لا بيحبني ولا هيحبني.

يتدخل والدها متعجبًا من هذا الحديث:

-إزاي دا مش فاهم ممكن تفهموني؟

والدتها منفعلة:

-لا يا قدري مش هنفهم ولا إيه حاجة أنا بنتي هترجع معايا البيت، ومش هسبها لوحدها خلاص، أحنا بنتنا خلفنها عشان تتمرمط بالشكل دا وتتعب، ولا عشان ترتاح يا أخويا وتبقي مطمّنة.

تحاول أن تخبرها باستعطاف:

-بس يا ماما أنا ...

والدتها في حزم:

-مبسش خلاص، أنتِ مش هتروحي للناس دي تاني.

ينظر لوالدتها في حزم:

-بس يا حورية هي هتروح بيت جوزها، أنتٍ عاوزة تفضحينا.

تلّوح بيدها في انفعال:

-بتقولك مبيحبهاش ومش طايقها وبرضو عاوزها تقعد معاه.

والدها يخبرها ناصحًا:

-جنة يا بنتي متسمعيش كلام أمك، أنتِ روحي بيتك ومتعمليش مشاكل.

تخبره مبررة، خائفة ربما:

-يا بابا هو أصلًا مسافر.

والدها في ودٍ:

-يبقي ترجعي بيتك ولو احتاجتِ حاجة أحنا موجودين.

والدتها معترضة:

-بس ...

يقاطعها زوجها في حزم و جدٍ:

-مفيش بس خلاص.

ذكرني ذلك برجل ذهب إلى أمير المؤمنين. روي ابن الجوزي أن رجلًا جاء إلى عمر بن الخطاب وقال له: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أطلق زوجتي. فقال له عمر: ولمَ؟

فقال: لأني لا أحبها.

فقال له عمر: أوكلُّ البيوت بُنيت على الحُبّ فإين المروءة والذّمة ؟

أوكلُّ البيوت بُنيت على الحُبّ؟ بالطبع، لا. الحب مجرد سبب. الحب وسيلة لا غاية.

* **

.... في مكان آخر، في مثل هذا التوقيت ..

شخصان يتحدثان عبر الهاتف النّقال في مكانين مختلفين.

فتاة ترسم في دفتر يومياتها قلوبًا أو مجرد شخبطة ليست مفيدة.

تضع الهاتف على أذنها وتتحدث مع الطرف الآخر من الهاتف. فتى يجلس في "براندة" ممسك كتاب يقلب صفحاته بحبّ.

يخبرها بهيامٍ:

-واحشتيني

تخبره ضاحكة:

-شكرًا ربنا يخليك.

يستغرب من رد فعلها ويخبرها متعجب:

-بس مش هو دا الرد اللي أنا عاوزه!

تزم شفتيها، وتخبره في مشاكسةٍ:

-شكرًا ربنا يخليك ويكرم أصلك يا أصيل.

يخبرها بصوت مؤنبٍ:

- بقا كدا؟

بنبرة طفولية تسأله:

-أيوه كدا، هتعمل إيه؟

يخبرها محذرًا:

-هخطفك، ومحدش هيعرف مكانك.

تسأله بنبرة قلقة:

-وهتعمل إيه يا مجنون؟

يخبرها ممازحًا:

-هرميكِ في البحر واموتك واخلي سمكة القرش تأكلك.

تسأله بنبرة حزينة مستعطفة إياه:

-واهون عليك؟

يخبرها ضاحكًا:

-أيوه تهوني.

تسأله في شقاوة وطفولة:

-هتيجي تقابل بابا امتى؟

يخبرها مستفزًا:

-مش عارف؟

تكرر طلبها مجددًا في حب ورجاء:

-هتقابل بابا امتى؟

يخبرها ساخرًا:

-ما هو أنا جيت وأنتِ رفضتيني خلي حد يتقدملك بقا، يلا يا بت امشي من هنا.

تخبره في حنق:

-يعني كدا؟

يخبرها مؤكدًا:

-أيوه كدا ونص.

ثم يردف ساخرًا:

-مش هتقدم يا ندى ولا هاجي أصلًا ها.

تخبره باستفزاز وهدوء سيقتله:

-طيب أنا هروح لحازم واخليه يتقدملي.

يستشيط غضبًا وغيرة:

-نعم ،نعم ،نعم يا أختي إيه حازم دا، طب خلي حد ياخدك غيري وأنا اقتلك واقتله واقتل نفسي.

تنجح في استفزازه وتخبره محاولةً أن تجعله يهدأ:

-أنتَ بتتعصب ليه طيب؟

يخبرها متذمرًا:

-اللي بتقوليه يشل أصلًا.

تخبره بطفولة ودلال:

-هتيجي تقابل بابا امتى؟

يخبرها ممازحًا:

-ما تيجي أنتِ تقابلي بابا امتى، وتخطبيني أنتِ!

تخبره بجديةٍ:

-موافقة.

يخبرها ضاحكًا:

-يا مجنونة.

تسأله بصوت ساخرٍ:

-و يا تراه لما اجي واتقدملك وكدا، هتدخل جواه، وهتتكسف، وتدخل اوضتك، وتلعب في شعرك وكدا.

يحدثها ممازحًا:

-تعالي بس أنتِ وأنا هبهرك انبهار، هرفضك وش، وهقول البنت دي مش عاجبني.

تخبره بممازحة يتخلَّلها انفعال:

إيه دا؟ إيه دا؟ ومش عجباك ليه بقا؟

يخبرها كأنه يرد لها الصاع صاعين:

-زي ما أنتِ عملتي معايا بالضبط.

تبتسم بهدوء وتسأل في حنق:

-بقا كدا بتردهلي يعني؟

يخبرها مؤكدًا لحديثها:

-أيوه بردهلك ها.

لقد أستثقل دمه عليها، وأثقل عليها المزاح لذلك أخبرته:

-غلس جدًا.

يخبرها مستفزًا لها:

-عارف.

ينجح في استفزازها وتختنق من حديثه:

-هقفل في وشك ومش هكلمك.

يخبرها متحديًا وكأنه لا يعلم جنونها:

-متقدريش.

تخبره بعناد:

-أقدر ها وهقفل في وشك.

وتغلق بالفعل في وجهه بدون أن تنتظر ردًا منه. يستغرب من فتاته، ويحادث ذاته بعد أن أغلقت في وجهه:

-يا بنت المجنونة.

سهام الحب تصيب وطبول الحب تقرع. حب طاهر. حب مجنون. معاتيه يقعون في الحُبّ. لطالما كان الحب مرتبطً بالجنون. قيس وليلي. روميو وجولييت. جمعيهم كانوا معاتيه أو الحب من جعلهم كذلك.

الفصل السادس والعشرون

زخات مطر.

بعد أربع أشهر.

زخات مطر في الصبح الباكر. غيوم متلبدة. يجتاح الطقس البارد معظم الأرجاء. الثلوج المتساقطة، البلورات الثلجية. بقايا رأس السنة. أكشاك خشبية صغيرة على جانبيي الطريق. رجل يرتعش بردًا على أحد المقاعد، يتلحف بشال صوفي. كلب صغير يعوي بجوار سلة المهملات. بائعة هوى ترتدي ثياب فاحشة، تنتظر من يدفَّع أكثر. شجرة أرز حزينة مغطاة بالزينة الملونة. أجواء رعدية تضرب في الأرجاء. برج أيفل مغطى بالحبات الكريستالية ناصعة البياض التي تسمي ثلوج. أنه يناير بكل صقيعه وعواصفه، عواصفه التي تجتاح القلوب قبل الأجساد.

* **

عاد زوجها من السفر الشاق، انتهى عمله في مدينة الحب، و ها هو سيعود ليرى وجهها القبيح مجددًا. ذات وجه جميل ولكنه لا يراها كذلك. يراها عجوز شمطاء بشعر أشعث، أظافر غير مقلَّمة منذ قرون ربما، عيون مجعدة ومخيفة، تمارس سحر الفودو في إحدى القبائل الغجرية. عندما ينظر إليها، يشعر وكأنه ينظر إلى أبشع مخلوقات الأرض. البغض يحفر في قلبه حفرًا. طبول البغض تنّقر. طبول الود تعزف. طبول الغضب تقرع. سيكشف الكذب مهما طال الأمر في النهاية.

.....**في الصباح**، تجلس على الأريكة وتشاهد التلفاز بملٍ شديدٍ.

وإذا فجأة يدلف إليها، بوجه جامد الملامح، شاحب الخلقة، مرهق ربما. تقف من مكانها وتهرع إليه وعلى محيَّاها ابتسامة صغيرة و وجهًا متهلِّلًا:

- طارق.

يقف وينظر لها بازدراء:

-نعم، تأمري بأي حاجة؟

غير مصدقة أنه ها هنا، ونبضات قلبها تتصاعد وتخبره في خوف ممزوج بالودٍ:

-أنتَ كويس، وبخير؟

يخبرها بنبرة فاترة:

-كويس، شكرًا.

وقبل أن تنبس بطرف حرف، يتركها ويصعد على السلم في عجلّ غير مبال بها. كانت فقط تريد أن تتحدث معه وحسب. تهتف باسمه في رجاء أن يتنظر:

-طارق.

يتوقف هنية واحدة ويرمقها بنظرة محتقرة، ولا يجيب بأي كلمة فقط يكمل صعوده إلى أعلى. يدلف إلى غرفته يأخذ حمامًا، يتناول أقراص المنوم، يغفو بعد بضعة دقائق، جثة هامدة.

.... في هذه الاثناء سوف تستخدم معه طريقة والدتها والتي تقول " أقرب طريق لقلب الرجل معدته، أو كرشته نفس الشيء تقريبًا "

تتشاور مع نجوى، فيما سيعّدونه له، لترى هل ستفوز بقلبه أم لا؟

تسأل في حيرة:

-هنعمله أكل إيه بقا يا نجوى؟

تجيب نجوى في ودٍ:

-ارتاحي أنتِ تعبانة، أنا هعمله الأكل؟

تخبرها بإصرار:

-لا مش تعبانة، أنا هحضر الأكل متخافيش عليا، وبعدين أنا أتخنت خمسة كيلو من ساعة ما طلعت من المستشفى، قريب جدًا هبقي قد الفيل يا نجوى.

تحدثها في ممازحة:

-ولا باين عليكِ يا هانم لسه ضعيفة زي ما أنتِ، طيب بتعرفي تعملي مكرونة بشاميل ولا هتفضحيني؟

تخبرها بثقة:

-لا بقا دا اختصاصي الكلام دا والمكرونات بأنواعها.

نجوي ضاحكة:

-لما نشوف؟

تخبرها في مشاكسة:

-متخافيش يا نجوى، هتتحرق يعني هتتحرق، دا التخصص بتاعي.

.....أجواء سعيدة، وطعام يعّد بكل حب، وأصوات الاواني تقع على أرضية المطبخ دون قصد، ضحكات تعلّو، مشاكسات وتتأفف، هتاف النجدة الطعام سيحترق، أجواء سعيدة بالرغم من توترها. بعد أن أعدّوا كل ما لذ و طاب، وضعتا الطعام على مائدة الطعام "السفرة"، ما بقيَّ غير بعض المقبلات وستضعها بنفسها.

تطلب من نجوى في رجاء، خائفة:

-نجوي ممكن تروحي تصحي طارق؟ علشان أنا مش هقدر اصحيه.

تفهم نجوى ما تقصد، فهي بالتأكيد تشعر أن الباشا لا يطيقها:

-فهمت، حاضر.

تضع المقبلات وترتب المائدة وربما تضع بعض الزهور التي قطفتها من الحديقة منذ قليل. بينما صعدت نجوى لتوقظ مالك البيت، تطرق طرقات خفيفة على الباب، ومن ثم تدلف إلى الغرفة وتقترب من سريره وتتحدث بصوت هادئ:

-طارق بيه اصحي.

يحاول أن يستيقظ رويدًا ويفرك عيناه بيده:

-إيه، يا نجوى في إيه؟

تخبره في ودٍ:

-الغدا يا بيه.

يعَّدل من جلسته ممسكًا رأسه في ألم:

-هاتي دواء الصداع، مصدع شوية. من على الدرج.

تجلب له كوب من المياه والدواء وتناوله إياه:

-حاضر. اتفضل يا بيه.

يتناول منها ما تعطيه إياه ومن ثم يشير لها بالدلوف خارجًا:

-طيب أنزلي أنتِ وأنا جاي وراكِ.

تخبره في ودٍ، وتغلق الباب خلفها وتدلف خارجًا:

-استأذن أنا يا بيه.

.... بعد دقائق معدودة، دلف إليهم هابطًا من أعلى وجلس معهم على طاولة الطعام. يضع الطعام في طبقه ويتناوله على مضض، ولكنه يبتسم وينظر إلى نجوى في امتنان:

-الله مكرونة بشاميل، وإيه الطعم الجميل دا يا نجوى أول مرة تعميلها كدا؟ تسلم أيدك بجد.

تخبره نجوى مبررة:

-بس يا بيه...

وقبل أن تكمل يقاطعها في ممازحةٍ:

-مفيش بس، تسلم أيدك، أنا هاكل الصينية لوحدي.

تخبره نجوى في قلق:

-بس يا بيه مش أنا اللي عملتها.

ينظر لها مستغربًا ومتحيرًا:

-مين عملها يعني غيرك؟

تردف في ودٍ يشوبه التوتر:

-جنة هانم هي اللي عملت كل الأكل دا ولوحدها.

تحاول جنة تدارك الموقف وتخبره مبررة:

-لا نجوى بتهزر.

تتبدل ملامحه من الهدوء إلى الغضب ويبصق ما تناوله، قاذفًا الصحن في عرض الحائط، ناهضًا من على طاولة الطعام في عنفٍ:

-الأكل مش حلو وطمعه زي الزفت، المرة الجاية بلاش تتدخلي المطبخ أحسنلك، أكلك مقرف.

يتركهم ويغادر سريعًا. تنسدل الدموع من عينيها باكية:

-شوفي يا نجوى عمل إيه؟

تربت على ظهرها في حنوٍ:

-متزعليش نفسك يا هانم، أكلك طمعه حلو قوي وأنا نفسي معرفش أعمل زيه.

تردف في نحيبٍ واضعةٍ يدها على وجهها:

-أنا معرفش هو بيعمل معايا كدا ليه؟ أي حاجة أعملها متعجبوش، أعمله إيه يعني؟

تخبرها ببلاهة، وتنصحها نصيحة كارثية بالتأكيد، كان من الأفضل لها أن تصمت:

-متعيطيش يا هانم، روحي اتكلمي معاه شوفيه ماله؟

تكفكف دموعها وتخبرها في عزم:

-هشوفه وأمري لله.

تتركها وتصعد على درجات السلم، وعندما تصل إلى غرفتهما، تطرق عدة طرقات وتسأل في أستأذن:

-ممكن أدخل؟

يخبرها في نفورٍ:

-اتفضلي.

تفرك كفً بكفٍ في توتر:

-طارق ممكن أتكلم معاك؟

عّدل من جلسته على الكرسي و وضع ساقًا فوق ساق في كبرٍ، وأجاب بجمود:

-أيوه. اتفضلي عاوزة إيه؟

تخبره في استعطاف:

-ممكن افهم أنتَ بتعاملني كدا ليه؟ و ليه طريقتك كدا معايا؟

يرمقها بنظرة احتقار ومن ثم يجيب:

-يعني عاوزني أعاملك إزاي؟

تخبره في خوف:

أسلوبك دا مش عاجبني.

ينفض ذاته ويقف منفعلًا:

-اللي مش عاجبه أسلوبي في ستين الف داهية، الباب يفوت جملين مش جمل واحد.

تعقد حاجبيها في بؤس:

-أنتَ ليه بتكلمني كدا؟

يخبرها غاضبًا:

-أنا أسلوبي كدا، واللي مش عاجبه. في ستين داهية هغنيها يعني؟

تسأله في رجاء:

-يعني مش هتغير أسلوبك دا؟

يخبرها مستفزًا إياها:

-لا مش هغيره، أسلوبي عاجبني واللي مش عاجبه يتفضل برا.

تخبره في إصرار:

-طيب بما إنك مش هتغير أسلوبك أنا همشي وأروح لأهلي.

يخبرها بلا مبالاة دون النظر إليها حتى:

-قولنا مع السلامة ويكون أحسن.

تحضر حقيبة من حقائبها من أعلى خزانة الثياب، وتضع ثيابها بداخلها، يستوقفها قائلًا:

-استني هنا بتعملي إيه؟

تخبره في بلاهةٍ:

-بلم هدومي.

يستفز أعصابها منفعلًا:

-وأنتِ جبتي هدوم معاكِ، أنتِ هتمشي بس بهدومك دي ومش هتخدي معاكِ حاجة فاهمة!

تقذف الحقيبة تحت قدميه وتخبره في حنق:

-أهو مش عاوزة حاجة ومش هاخد حاجة معايا. الحمد لله أني هخلص منك.

ببرود أعصاب يشير لها بالمغادرة:

-يكون أحسن، يلا اتفضلي من غير مطرود.

تدلف خارج الغرفة، ومن ثم تعود مجددًا وتنفعل صارخة في وجهه:

-لحظة بس قبل ما امشي أنتَ شايف نفسك ليه كدا؟ ولا فاكر إنكم اشترتوني بفلوسكم، لا، لا أنتَ ولا مليون زيك يقدر يشتريني، أنتَ فاكر إن في حد بيحبك وكدا. لا كلهم بيحبوا فلوسك وبس، أنتَ شخصيتك تقرف، أنتَ كلك تقرف. أنا بندم أني وفقت أتجوزك، كل ثانية.

يصفق لها في استفزاز وهدوء مستفز:

-الله، الله، والله كبرتي وبقى يطلع لك صوت.

تردف بقوة وثبات:

- لا مكبرتش أنا تعبت من طريقتك المقرفة دي وأنا همشي لإني خلاص قرفت، كل مرة أقول طارق كويس، طارق مش كدا، بس كل مرة تثبتلي عكس كدا.

يخبرها مستفزًا:

-هاا خلصتِ كدا وقولتي اللي في قلبك، مع السلامة طريقك زراعي.

تسير ناحية عتبة باب الغرفة وقبل أن تخطو خارجها، يتناول يدها قابضًا عليها في شَّدة:

-جنة مش هتمشي.

تنزع يدها في قوة غير معهودة منها:

-همشي لأني خلاص قرفت.

وتتركه وتهرع راكضة خارجًا، قبل أن يأتي ورائها. ولكنه بالطبع لن يركض خلفها على أي حال.

* **

.... **في مكان آخر**.

أمواج البحر المتلاطمة، أنين يصدر من أعماقه. وجوه بشوشة، أجواء رومانسية وهادئة. شخصان على شاطئ البحر، يجلسان على مقربة من بعضهما. طيور النورس المحلّقة في غمار السحاب. ثوران البحر وهدوءه بين حين وآخر. أشعة الشمس التي تضرب أعيناهم لتغير لونها من اللون البندقي إلى العسلي الفاتح. عينان أم بندقيتان، شتان الفرق بينهما كلاهما يقتلان. الحُبّ يعانق البحر بين ذراعيه في شجَّون. يربت أحدهماعلى كتف الآخر، ويسأل في رفق:

-فاكرة المكان دا؟

تخبره بسعادة وقد توردت وجنتيها:

-أيوه طبعًا.

يسألها في حبورٍ:

-كان في إيه بقا؟

تخبره بثقة:

-أول مكان جبتني فيه.

يحاول أن يجعلها تحزر:

-لا في حاجة كمان؟

تسأله في بلاهة:

-حاجة إيه يا بني؟

ينظر لها بحبّ:

-دا أول مكان أعترف لك بحبي ليكِ.

تضع يدها على جبينها وعلامات الصدمة تعتري وجهها:

-إزاي مخدتش بالي؟

-يخبرها بصوته الحانّي:

-أقولك ومتزعليش؟

تخجل وتخبره في فضول:

-قول.

يخبرها ضاحكًا:

-علشان أنتِ غبية وحمارة ومخدتيش بالك.

تواجه له لكمة قوية في انفعال:

-إيه دا بقا ليه الغلط دا؟

يتفادى قبضتها في حركة مباغتة:

-لا خلاص أنتِ أجمل وأذكي حد شوفته في حياتي.

تسأله بخجل:

-الله بجد؟

يردف ممازحًا:

-وربنا يسامحني على الكدب دا.

توجه له لكمة أخرى على كتفه وهذه المرة تصيبه:

-رخم بجد.

يقطب حاجبيه في استهجان:

-نتكلم جد.

تتحدث بجدية:

-أيوه ماشي قول.

يخبرها جادً:

-أنا كنت بضحك عليكِ ومش بحبك ورايح أخطب بعد أسبوع.

تخبره ممازحة:

-أنتَ بتهزر يا نادر ولا إيه؟ في إيه يا قمر أنتَ؟

بملامح جامدة وجادة:

-ندى متهزريش، مبهزرش ها كنت بكدب عليكِ.

تنظر له بعطف، وتتكورّ في مقلّتيها الدموع:

-نادر بلاش تهزر وحياة باباك ما تهزر بالطريقة دي.

يخبرها بحزم:

-يا ندى قولتلك مبهزرش أنا.

تنسدل حبات لؤلؤية من عينيها وتخبره في خوف:

-نادر أرجوك متعملش كدا. مالك في إيه؟ مبحبش هزرك دا.

يضع يده على فاه، محاولًا أن يوَاري ضحكته التي تحاول الهرب منذ اللحظة الأولى، وينظر للناحية الأخرى:

-ندى مبهزرش أنا.

تنهض من جواره، تحاول أن ترمم شتات ذاتها و دموعها التي هربت للتو:

-مع السلامة وخلي بالك من نفسك، وأنسي إنك تعرفني من أساسه.

تتركه راكضة مختفية عن الأنظار، يقف خلفها ويهرول سريعًا لعله يلحق بها ولكنه لا يستطيع. تركض بسرعة ضوئية، وفارقته في الزحام. وهو يردد خلفها، لاهثًا:

-يا بنت المجنونة، دي بتصدق كل حاجة، وكل مرة تسبني وتمشي برضو، أعمل إيه يا ناس؟ مكنش قصدي يا بت خدي، مركبة نفاثات في رجليكِ. يا متعبة، أتعبي قلبي أكثر. وتدللي فأن الدلال لم يخلق إلا لسواكِ.

الفصل السابع والعشرون
منزل هادئ

في منزل هادئ يصدح القرآن في أرجاءه. وتتردد عبارة " قناة المجد للقرآن الكريم، قرآنًا يتلي آناء الليل وفي أطراف النهار ". فتاة تجلس في غرفتها متلحفة بغطائها الصوفي ذا اللون الأزرق الفاتح. تتكورَّ بداخله في محاولة لتنعم بالدفء. البرد القارس ينخر في العظام نخرٍ. ترتعش فرائصها، تشعر أن هذا الغطاء ليس كافيًا. تتجه ناحية خزانة ثيابها، تفتحها بحرص تتناول كنزتها الصوفية وترتديها. ترتدي جواربان دفّعة واحدة، وتدلف إلى الفراش تدثر ذاتها جيدًا. يبدو أنه أقسى شتاء يمرق عليها، كانت دافئة من قبل! لا تدري كيف تجمدت هكذا؟

وبينما تحاول أن تنعم بالدفء وتغفو قليلًا، يقطع سكونها تلك النقرات على باب غرفتها، تعّدل من جلستها وتأذن للطارق بالدخول.

تدلف إليها والدتها محدثةً إياها في حنوٍ وقلق:

-مالك يا بنتي في إيه؟ حصل إيه تاني؟ أنا محبتش أتكلم معاكِ غير لما تهدى.

تتكورّ الدموع في مقلّتيها معلنة انسيابها:

-مفيش حاجة حصلت يا ماما.

تقترب منها وتجلس بجوارها وتكفكف دموعها بحنوٍ:

-طيب امسحي دموعك وبعدين اكدبي.

يفيض الدمع من عينيها فيضٍ:

-أنا مش عاوزة أرجع هناك تاني خليني معاكم.

والدتها تشفق على حال صغيرتها، وقد تفتت قلبها من الحسرة:

-خليكِ معانا، بس لو جاء جوزك وخدك مش هنقدر نعمل حاجة.

تنظر لها بعطف وما زالت دموعها تفيض:

-لا مش هروح معاه، ولا هرجع ويعمل اللي يعمله أنا قرفت يا ماما بجد.

تسأل في قلق واضعةٍ يدها على قلبها:

-عمل إيه تاني بس؟

تنهار باكية ويسيل أنفها، تبدو بشعة جدًا عندما تبكي:

-كل حاجة أعملها زفت، بحاول اراضيه بكل الطرق، ومفيش فايدة أعمله إيه يعني؟

تحاول والدتها أن تخفف وطأه ما تشعر به صغيرتها:

-هيتغير مع الوقت و..

تقاطعها مكفكفةً دموعها في قهر:

-لا يا ماما الناس اللي زيه مش ممكن تتغير، هيفضل طول عمره وحش ومش كويس وأنا صبرت كتير ومش ممكن أرجع ومهما يعمل مش هرجع برضو خلاص جبت أخري معاه.

تتدارك والدتها الموقف وتحتويها في حنوٍ وتربت على قلبها قبل ظهرها:

-خلاص مترجعيش، خليكِ معانا، دا برضو بيتك، وأحنا منقدرش نستغني عنك أبدًا. يا حبيبتي لو مشلتكش الأرض نشيلك فوق رأسنا وعلى كفوف الراحة.

ترهق و تشعر بالدوار وأن الأرض تهبط وتصعد، تخبرها في وهنٍ:

-ماما ممكن تسبيني لوحدي، عاوزة أنام شوية؟

تنهض من جانبها في رفقٍ:

-خلاص نامي وهصحيكِ على معاد العشاء.

تخبرها في ودٍ:

-لا متصحنيش مليش نفس.

-تصبحي على خير يا أحن أم في الدنيا.

والدتها وتقترب لتقبل جبينها:

-وأنتِ من أهل الخير والجنة.

تتركها لتستريح وتغلق الباب خلفها. وتذهب إلى زوجها متحدثة معه في انفعال وحسرة على طفلتها الصغيرة التي لم تهنأ في حياتها، أو كما تقول " جوازة الندامة "

تخبره بانفعال وحسرة:

-عاجبك اللي عامله جوزها دا، كل شوية يعذبها ويذل فيها هي ملهاش أهل ولا إيه؟

يعّدل عويناته ومن ثم يخبرها بوجه يعتريه الندم:

-أنا اللي غلطان يا حورية، علشان وافقت على الجوازة دي من اساسه، كنت فاكر إني كدا وصلتها لبر الأمان، زي أختها.

تزفر بضيق:

-بر أمان إيه وزفت إيه بس؟ اديك شايف حالتها تصعب على الكافر، يا حبة عيني مش كفاية دخلت المستشفى وحتى مكلفش خاطره يطمّن عليها.

يخبرها بلا مبالاة واستفزاز، يرى أن الأمر لا يستحق كل هذه الجلّبة:

-هو ضربها يعني وادها علقة موت؟ الراجل ممدش أيده عليها ولا كلمها حتى.

تهدأ وتخبره بحنق:

-قدري أنتَ بتستهون بالكلام يعني، أنتَ فاكر الاذية بالضرب وبس، المعاملة الوحشة والأذى النفسي ممكن يموتوا الانسان ويطفوا روحه، أنتَ لما بتضرب حد يمكن ميفرقش معاه، بس لو قولتله كلمة تزعله، بيفضل فاكرها طول عمره، وبتفضل تاذيه نفسيًا، أنتوا بتستهونوا بكلامكم والله، بس بالنسبة لناس كتير ممكن يسببلهم عقّد وميعرفوش يتعاملوا مع الناس تاني.

يطلق تنهيد بضيق من أعماقه:

-عارف يا حورية، ومضايق وزعلان بس مفيش بأيدي حاجة أعملها، لو بأيدي حاجة هعملها مش هتاخر وأنتَ عارفة، إنها أغلى حاجة في حياتي، وميهنش عليا ازعلها ولا اشوفها زعلانة. بس النصيب يا حورية.

إن كيدهن عظيم، ذكرني ذلك بامرأة العزيز عندما رودت فتاها عن نفسه، وعندما قال أني أخاف الله، قضت قميصه من دبر، وسجنته ظلمًا وزورًا. وعندما تهامس النسوة كيف تراود فتاها عن نفسه؟

جمعتهن جمعًا وأعطت لكل واحدة سكين يقطعن بها الفاكهة، وبينما هم كذلك أخبرته أن يهلّ عليهم، وعندما هلّ بوجهه السميح، قطعن إياديهن من فرط حسنه. إن كيدهن عظيم.

* **

.....في صباح اليوم التالي من هذا الحديث.

في مكتب يتوسط منتصفه طاولة صغيرة، ونافذة تطل على البنايات التي في الجهة المقابلة. نباتات الزينة التي تزين أركان الغرفة. نباتات من نوع السرخسيات، خضراء نضرة. بعضها صناعي بالمناسبة، لا حياة ولا روح فيه. شخص يجلس على كرسي وأمامه الكثير والكثير من الملفات المكدسة على طاولة المكتب. وبينما يتفحص بعض الملفات. يدلف إليه شخص من خارج الغرفة و يسأله بشك مضيقٍ عينيه:

-طارق بتعمل إيه؟

يخبره ممازحًا وهو يقلّب في الأوراق أمامه:

-برقص يا ماجد برقص، حتى شوف.

أخوه ضاحكًا:

-قوم هزلنا شوية كدا.

يترك ما بيده من أوراق ويفعل حركات مضحكة بيده ولا بأس أن رقص قليلًا. أخوه مشجعًا له على العبث، مصفقًا له، يستخدم المكتب كطبل للعزف عليه:

-بلاها نادية وخد سوسو.

يتوقف عن تلك الحركات البهلوانية التي كان يفعلها منذ برّهة وتعتري وجهه الجدية، مشيرًا له بالتوقف عن النقر على سطح المكتب:

-بس كفاية ندخل في الشغل المهم، هاا الايرادات والصادرات إيه نظامها؟ والموظفين خدوا مرتبتهم ولا لا؟ والموظفين اللي عاوزين أجازة اسبوع إيه حصل معاهم؟ وأسهم الشركات رفعت ولا انخفضت و....

يقاطعه في فخر:

-بس، بس إيه النشاط دا كله؟ ياريتك اتجوزت من زمان.

يخبره منفعلًا:

-يعني لازم تنكد عليا بالموضوع دا دلوقت، وبعدين مبحبش افتحه، وبحاول الهي نفسي في الشغل، لغاية ما السنة تخلص وارتاح بقا، أنا قرفت.

ينظر له بحزن شديد، سائلًا في إشفاق:

-لسه برضو يا طارق؟

يخبره جاد مقتضبًا جبينه:

-ماجد، أنتَ أكتر حد عارفني الشخص اللي محبوش يعني محبهوش وخلاص، لو كان ملاك نزل من السما، برضو هرفضه.

يخبره مغيرًا لسير الحديث:

-طيب يا طارق اللي يريحك، يلا نكمل شغلنا أحنا مش فاضين.

تنفرج من ثغره ابتسامة، فهو يعرف أن أخاه لن يتحدث في حياته الخاصة وسيراعي خصوصياته:

-أنتَ اللي عطلتنا على فكرة.

همّ بالمغادرة مشير إلى أنه غير موجود:

-أنا، لا مجتش أصلًا، أنا مش موجود.

يشير له بيده أن يغادر:

-ماشي يا ماجد، يلا بقا روح شوف شغلك.

ماجد ملَّوح له بيده مستفز إياه:

-باي، باي.

يخبره ممازحًا:

-طيب امشي يلا ما هي طلبة غلاسة أصلًا.

* **

... يتركه ويذهب خارجًا ومعه عقود وملفات مهمة لكي يتم التوقيع عليها من قبيل والده ورئيس هذه الشركات. يسير في خطيي ثابتة صالبًا طوله ومهندم مشيته.
يطرق عدة طرقات على باب المكتب مستأذنًا لكي يدلف إلى مكتب رئيسه، بصوت يتخلله التواضع:

-محمد بيه ممكن أدخل؟

..هناك فرق شاسع ما بين العمل والمنزل بالمناسبة، العمل هو العمل، وأمور المنزل تناقش في المنزل. هناك حد فاصل بين الأبوة ورئاسة العمل، وإن كان والدهم يخرق القواعد أحيانًا أو دائمًا ربما.

يحدثه من بالداخل في ودٍ معهود:

-اتفضل يا ماجد.

يدلف إلى ذلك المكتب منحنيًا قليلًا، متواضعًا خنوعًا لأباه و رب عمله. جدران يكسوها ورق الحائط باللون الأبيض المائل للاصفرار، بساط من السجاد الفاخر لونه أحمر ينصف الغرفة نصفين، بداخله بعض الرسومات العجيبة ربما طيور وربما بعض القبائل البربرية، سجف يتدلى من السقف من الطراز الغربي الكلاسيكي قد يعود للعام 1920 ربما. أثاث مصنوع من خشب الماهوغاني اللماع، بتصميم عريق وفريد. صور زيتية ولوحة في وجهة المكتب تحوي رموز عجيبة. ذلك التمثال المجسم على شكل حيوان الجاكور الذي على الطاولة التي بجوار المكتب. رجل يجلس مرتدي بذلته العتيقة على الطراز الفرنسي القديم، وجه مترهل يدل على أن صاحبه عاني كثيرًا، الهم يبدو جلّيًا على وجهه وتحتل قسماته قسوة بالغة.

يقترب منه ماجد في هدوء وثبات:

-اتفضل يا فندم، محتاجين توقيعك على الأوراق المهمة دي.

يتناول الأوراق بيده ويقرأها أولًا فهو ليس خائن ولكنه لا يثق في أي أحد بدون استثناء ومن ثم يوقع على بعضها والبعض الآخر يتركه فارغًا:

-أهو اتفضل.

يتناول الأوراق منه وهمّ مغادرًا ولكن يباغته والده مناديًا عليه مشيرًا إليه بالرجوع مجددًا:

-ماجد استني هنا، عاوز اتكلم معاك.

ماجد مطأطأ الرأس:

-أنتَ تؤمر يا محمد بيه.

يخبره ودودًا تتبدل قسمات وجهه إلى اللين:

-عاوز أتكلم معاك كأبن وأبوه مش كموظف ومديره.

انفرجت أساريره وحلت البهجة محلها:

-اتكلم يا بابا.

والده في فخر وغرور ربما، وقليلًا من الابتهاج:

-شوفت أهو طارق اتغير وبقي أحسن من الأول كمان، أنا قولتلك أنها هتقدر تغيره.

ماجد بنبرة بائسة، حزين على حال أخيه وحال تلك الفتاة المسكينة:

-للأسف يا بابا، هو بيشتغل بس علشان الوقت يعدي علشان يخلص منها، بس اديك حققت اللي عاوزه وابنك بقي يهتم بشركاتك وأعمالك مش هو دا المهم.

والده في إصرار وقليل من الحزم:

- مش دا المهم، المهم أنه يتغير من جواه ويبقي حد أحسن، ينفع يكون أب وزوج. ينبت نبتة صالحة يكون حفيدي و وريثي.

ماجد بآسي واحتلت ملامح وجهه البأساء:

-لا أطمن بقي أسوأ بكتير من الأول، الأول كان طارق المشاغب وفي نفس الوقت الطيب اللي لما يزعل حد يجري عليه ويصالحه ويطبطب عليه، دلوقت مبقاش يفرق معاه حد نهائي، عارف الحتة الوحشة اللي كانت فيه، يا بابا كبرت وبقيت بتسيطر عليه.

تضايق والده وظهرت إمارات الغضب والامتعاض على قسمات وجهه. بالطبع يرى أنه على صواب ولا يهم أي أحد آخر. حدجه بعينيه مقبضًا على عصاه التي يتوكأ عليها، مشيرًا له بالمغادرة:

-تقدر تتفضل كلامي انتهي.

يدلف خارجًا راضخًا:

-حاضر.

كأنك تزرع وردة جورية في صحراء جرداء وتنتظر منها أن تينع وتتفتح براعمها من دون أن تسقيها حتى. وهكذا يريد والدهم أن يأتي بفرع فاسد ويريد من التربة أن تنبته، وإن كان وارد أن يحدث ولكن أ كل الفروع سواء؟

* **

... **في هذه الأثناء في مكان آخر.** نادر يتناول هاتفه ويتصل على المجنونة التي تركته بسرعة البرق وغادرت غاضبة، ولكنها لا تجيب، يبدو أنها غاضبة جدًا، جدًا. يعقد العزم على أنه سوف يذهب لمنزلها. يرتدي ثيابًا مهندمة، يمر على بائع الزهور ويختار زهور قوية مثلها. زهور الياسمين الشتوية ذات اللون الأصفر الفاقع. يصل إلى منزلها ممسك بباقة الزهور مغني لها تحت أشعة الشمس، لم تكن شمسًا حادة كانت شمس فبراير الهادئة التي يتخللها الدفء والبرودة في آن واحد:

"ياللي نسيت الغرام ارجع هنا وقلي.

مين زقك على الخصام دا انت اللي فاضلي

اول ما عرفت انك عاوزني جيت قوام ما اقدرش.

استغنه عنك يا معلمني الغرام وهقولك برضو عيني.

يا وحشني الف عيني وهقولك برضو عيني يلي.

في بعدك كويني امرني هتلاقيني سجادة بين اديك.

كله كله كوم . وزعلك انت كوم أنا عندي الدنيا تزعل.

ولا تزعل انت يوم أنا لسه كنت بحلم و اعد النجوم يلي.

في بعدك بآسي ولا ارتحش يوم

وهقلك برضو عيني يلي. في بعدك كويني امرني

هتلاقيني سجادة بين ايديك"

ثم يردف صارخًا:

- ندى وربنا لو ما رديتي عليا لألم الناس وهتطير فيها رقاب النهارده، بت أنتِ. يا بت.

تنفتح نافذة من إحدى نوافذ المنزل الفخم، ببطء وتطلّ منه، ست الحسن وتخبره في امتعاض:

-عاوز إيه أنتَ يعني؟

يخبرها وهو ينظر لها بحب وهيام:

-بحبك يا بت المجانين. زهرة الياسمين، زهرتي.

تخبره في استفزاز:

-مش سامعة ها، عالَ صوتك شوية.

نادر مهددًا في استفزاز ومن ثم همّ مغادرًا:

-آه هي هتعمل طرشة بقا، طيب أنا هروح اروح.

ترمقه باحتقار وتسأله في حنق :

-أستني هنا رايح فين؟

يخبرها ضاحكًا مستفزًا إياها:

-رايح لمراتي، وأم عيالي.

تقطب حاجبيها في استهجان:

-بقا كدا.

يردف مستفز:

-أيوه، عشان أنتِ يا زهرة الياسمين متستهليش اللي بعمله عشانك، إنما هي حبي الأول والأخير.

قبل أن تغلق النافذة في وجهه، تخبره بتأفف:

-أف خلاص روحلها ها، رخم وبارد.

تظهر والدة ندى من شرفة المنزل وتخبره محذرة وعلامات الانفعال جلّية على وجهها:

-نادر كفاية فضايح وامشي، فضحتنا في الشارع كله.

يخبرها مطأطأ الرأس خجلًا:

-أنا أسف يا حماتي.

.. يهمّ مغادرًا وبائسًا كذلك، لقد تعرض للتوبيخ منذ قليل. يتجه صوب منزله، يصعد درجات السلم المضنية، يفتح الباب بالمفتاح الذي معه ويذهب ليجلس بجوار والدته متعبٍ ويعطيها الزهور في ودٍ:

-أحلى ورد لأحلى حب في الدنيا دي كلها.

تنظر له والدته في شك:

-هي قفلت الشباك برضو؟

يخبرها مستغربًا وخائفًا ربما:

-أنا كدا ابتديت أخاف، عرفتي إزاي؟

والدته في نبرة حانّية:

-الورد دبل من الشمس أولًا، وثانيًا أنتَ تجيب جلطة، مسكينة البنت دي والله، هي اسمها إيه؟

يخبرها في استنكار:

بنت مين ها معرفش حد أنا؟

تجذبه والدته من أذنه كما لو كان في عمر العاشرة وتشدد بأصابعها على أذنه:

-هتكدب تاني.

يخبرها متألمًا:

-لا خلاص مش هكدب والله، سيبي وداني، أنا كبرت.

تترك أذنه وتعيد سؤالها السابق مجددًا:

-اسمها إيه بقى؟

يطلق تنهيد خفيف ومن ثم يجيب:

-ندى يا أمي، ندى بنت المجانين.

والدته تسأله في ودٍ وقد ابتسم ثغرها:

-هو أنت بجد بتحبها؟

يجيب نافيًا:

-لا مش بحبها بحبك أنتِ أكتر.

تنظر له والدته في شك:

-واضح.

يخبرها مزيلًا للشك أو مؤكدًا له:

-ومن غير أي اعتراض.

ثم يردف ممازحًا:

-مش هتروحي معايا نخطبها بقا، أحسن تروح مني. عشان تبقي على علم بس أنا روحت قبل كدا لوحدي واترفضت.

والدته في ممازحة:

-واضح أنك بتحبني أنا أكتر، ماشي هنروح نخطبها، هعمل إيه يعني؟

يعانقها فرحًا:

-أحلى أم في الدنيا دي ولا إيه!

تخبره بجدية غير معهودة:

-بس اسمع لو معجبتنيش مش هنخطبها.

نادر منذهلًا، وقد احتلت الصدمة معالم وجهه:

-إيه؟

والدته تتبدل قسمات وجهها ويعلّو السرور محيّاها:

-هنخطبها برضو.

الأم الحنون رزق. أعتقد أن الحنان سمة يمتلكها القليل بالفعل، ولكن الترجمة الحرفية للحنان هي الأم. تخيل أن تحملك في أحشائها تسعة أشهر وأنت تضعف

جسدها وتنخر في عظامها، وبالرغم من الآم المخاض وكمّ العظام التي تتكسر بداخلها فقط لتنجبك، تستقبلك بكل بهجة وحب وتحنو عليك، كما لو أنها لم تذق طعم الألم منذ لحظات وحسب. وليت كل الأمهات سواء. فهناك تلك الأم التي لا يجدر بي مناداتها أمًا، تلك التي ترمي صغيرها دون أن يرف لها جفن، ليتخبط وحيدًا في الحياة بائس.

الفصل الثامن والعشرون
"أفهمني"

. **في صباح اليوم التالي.**

منزل شاسع وضخم، الثريات المتدلّية، اللوحات الزيتية، في الطابق العلوي وبالتحديد في مخدع الزوجية، الزوج مرتدي بجامته وممدد على الفراش، بجانبه زوجته ترتدي منامتها مرتمية في أحضانه ومتشبثة به في أجواء هادئة وسعيدة.

تبدأ زوجته بالحديث في رقة وتعجب:

- أدهم. أنا مش متخيلة أنك بتحبني، ولا عمري فكرت فيك بالطريقة دي.

ينظر لها بودٍ ويسأل بصوته الحانّي:

-ودلوقت؟

تخبره في خجل وقد توردت وجنتيها:

-مقدرش أستغني عنك، أنتَ أبو ابني وكمان أحلى حاجة في حياتي، ياريتني مكنتش عملت أي حاجة من اللي عملتها زمان.

يمسد رأسها ويتناول خصلات شعرها في رفق ويأخذ تلك الخصلات التي تنسدل على وجهها ليعيدها إلى مكانها الصحيح، متحدثًا في ودٍ:

- أنا كنت دايمًا قدامك، وحبيتك، بس مقدرتش أقولك لأنك مكنتيش بتحبيني، عارفة أكتر حاجة كانت بتعصبني إيه؟

تنظر له في استغراب:

-إيه هي؟

يخبرها هادئًا وربما تمالك منه الانفعال:

-لما كنتِ بتتكلمي عن طارق على طول وطول الوقت، كنت بتخنق.

تسأل في قلق:

-ودلوقت حصل إيه؟

يخبرها بحب وهيام:

-ودلوقت أنت مراتي وحبيبتي وأم ابني اللي هيشرف كمان شهرين، هي دي اللحظة اللي عشت احلم بيها، أنتِ وحتة مني ومنك.

تنظر له ببؤس وعينين تلتمع بهما لمعة بائسة:

-بس أنتَ كنت عارف أني ...

يقاطعها هادئًا ويضع يده على فمها:

-عارف كل حاجة، بس اللي في بطنك دا يبقي ابني، ودا أهم حاجة بالنسبالي.

تخبره في استعطاف بالحقيقة ولكنها تختار توقيت سيئ للغاية:

- رامي أنتَ عارف أن دا حصل غصب عننا ومكنش مفروض يحصل ما بينا أي حاجة، ولا أني أحمل أصلًا.

ينهض من جوارها منفعلًا غاضبًا:

-قصدك إيه يعني؟ كنتِ عاوزة تجهضي الولد كنتِ أجهضتِ وخلصتِ ولا إيه؟ ما أنتِ أجهضتِ قبل كدا طفلين من طارق، ولو مكنتيش عاوزة الولد، أنا هاخده واربيه ومفيش داعي نفتح مواضيع قديمة، وافتكري أني ملمستكيش من ساعتها.

ثم يردف مقهورًا، مدمدمًا صارخًا: سارة أنا سامحتك بس عشان حالتك النفسية وعشان أنتِ مجنونة يا روح قلبي، وإلا لو كان حد غيرك كنت دفنتها ومحدش عرف ليها طريق جرة، وأوعي تفكري لو للحظة أني مستني الولد دا لأنه مني، أنا كتير جدًا أتعرض عليّ أني أتجوز من بنات رجال أعمال بس أنا كنت برفض، كان ممكن بكل بساطة أقولك أجهضي بس أنا حفظت على حياة الولد عشانك، عشان تلاقي حاجة تعيشي عشانها وتبطلي جنانك دا، لأني تعبت من جنانك وقرفت يا سارة، أنا بشر مهما كان، أنا عارف كويس جدًا أنك كنتِ فاكراني رامي وإلا مكنتيش قربتي مني. روحتي بعتي نفسك لطارق وأستعملك كأنك عبدة بتشبع رغباته وبس وكنتِ بتكرهي نفسك كل يوم، عشان انتقام سخيف كنتِ عاوزة تعمليه، وفنفس الوقت لسه بتحبي رامي، أنا مش فاهمك. أنتِ عاوزة إيه؟

تغمض عيناها وتنسدل الدموع على خديها بلا توقف:

-مش قصدي، دا ابني ومقدرش اتخلي عنه، أنتَ فاكرني إيه؟

تنهض وتلملم أغراضها ومن ثم تردف منفعلة، باكية:

-وديني للماما، لو سمحت، وطلقني عشان مينفعش واحدة زيي تكون مراتك، وطالما أنا رخيصة قوي كدا أتجوزتني ليه، كنت سبتني بس أزاي لازم تطلع أنك جنتل مان وراجل مينكرش نسب ابنه وبالمناسبة ابنك هخليك تشوفه متقلقش يعني. بس سيبني أمشي.

يجذبها من يدها ويشدد قبضته للدرجة أنه كاد يكسرها من انفعاله:

-شوفي أنتَ بتقولي إيه، وشوفي نفسك هتتعصبي ولا لا.

ومن ثم يردف بذات الانفعال:

وطلاق مش هطلق يا سارة، وابني هيتربى في حضني. دا لو كان ابني من أصله، لأني مش متأكد إذا كان ابني ولا؟ وأنا أتجوزتك لأن أعتبرت كل اللي حصل ما بينكم، كان غصب عنك يعني كان بيعتدي عليك.

تحاول أن تستعطف قلبه وتحاول أن تجعل الأمور في صالحها فهذه نسخة من أدهم أخرى لا تعلم عنها شيئًا:

-افهمني.

يحدجها بعينيه منفعلًا:

-أنتِ لسه بتحبيه، ومكنتيش عاوزة الطفل دا من أساسه صح؟

تخبره في وهن من فرط البكاء وكاد أن يغشى عليها ولكنها تتشبث بيده:

-إيه حصل؟ مالك ليه بتعمل كدا؟ أنا قولتلك أني حبيتك والطفل دا خلي علاقتنا أقوي، بلاش نفتح في الماضي وخلينا نعيش الحاضر وبس.

يهدأ قليلًا ويرى حالتها التي يرثي لها فيأخذ بيدها ويجلسها على الاريكة لتهدأ:

- أنا أسف على كل اللي قولته يا سارة، من فضلك متعيطيش وأهدي. أنتِ مراتي وهتفضلي كدا، ومهما حصل مش هيفرق معايا، أنا أسف والله أسف.

تتناول يده بيدين مرتعشة وتضعها على بطنها المنتفخ لأنها في الشهر السابع من الحمل، فهي سيدة تعرف كيف تعزف على أوتار من يحبها، وتستخدم عقلها جيدًا لتمتص غضب أي شخص فقط بحركة بسيطة:

-بص حس بابنك كدا جوايا، وهو هيقولك ماما بتحبك ولا لا؟

يرق لحالها ويجفف دموعها بيده في استحقار لذاته لأنه أحزنها، لقد روضت النمر الجريح بكل مهارة:

-سارة أرجوكِ متعيطيش ولا تزعلي نفسك، أنا مقدرش أزعلك، أنتِ حياتي.

ومن ثم يضمها لحضنهِ ويردف في حنوٍ: تعالي في حضني، واستخبي من كل الناس.

تدفن ذاتها في أضلاعه وتخبره بدلال:

-ممكن متزعلنيش تاني علشان معيطيش.

يربت على ظهرها بيده:

-حد معاه أنا ويعيط برضو يا بابا.

تضربه على صدره براحة يدها:

-رخم ها.

يخبرها مستفزًا غير مبال بضرباتها له:

-عارف، يلا بقا علشان قلب البابا جعان ومحتاج يفطر، أنتِ هتجوعي ابني ولا إيه؟

تخبره مؤنبة:

-اسمه ابننا مش ابنك لوحدك.

يطوقها بكامل ذراعيه:

-ابننا وحتة سكرة قلبنا كمان. أنا بحبك بجد والله.

يبقي هناك سؤال يؤرقه ويذهب الغمض عن جفونه، هل الطفل حقًا طفله؟ هذا السؤال الذي لن يعرف أجابته ألا بعد حين.

* **

.. في مكان آخر، في توقيت آخر من اليوم.

منزل فاخر تحيط بأسواره النباتات المتسلقة. تحديدًا في غرفة استقبال فاخرة، أثاث من خشب عتيق، نباتات الزينة تحتل الغرفة، أطر لصور عائلية، طاولة زجاجية تنصف المشهد عليها تمثال زجاجي صغير. رجل يرتدي بذلة رسمية، قسمات وجهه تبعث الراحة والسكون في من يخاطبهم، وشاب في مقتبل العمر بجواره والدته تجلس في وقار متلحفة بشالها الصوفي.

يتحدث الشاب في تلعثم:

-عمي أنا .. عثمان بيه أنا ...

يخبره الرجل في وقار أن يتحدث بلا خوف:

-اتفضل يا بني اتكلم.

يتحدث مجددًا والحديث يقف في حلقه:

-عمي ...أنا.

يشير له أن يستكمل حديثه:

-أيوه يا بني اتكلم. في إيه يا نادر يا بني؟

نادر متلعثمًا، متوترًا:

- في الواقع...

يخبره أن يكمل ما يريد قوله:

-أيوه يا بني كمل اتكلم، وبعدين مش أول مرة تيجي يعني!

نادر بكل جرأة، لا تدري من أين أتي بها فهو شاب خجول للغاية:

-أنا جاي اطلب أيد بنتك ندى يا عمي ولو موافقتش عليا هغزها واقتلها، ما هو يا أنا يا مفيش.

يطلق ضحكة ساخرة من ثغره المترهل ويجيب في ودٍ:

-أنتَ طالب ايدها بس، خدها كلها محدش عاوزها ولا طايقها.

تتدخل والدة نادر ممازحةً:

-إذا كان كدا يا بخت من وفق راسين في الحلال.

ومن ثم تردف بجدية:

-أنا بعتذرلك يا عثمان بيه، كان من المفترض أن والد نادر هو اللي يتكلم معاك، بس والده مسافر وأجازته لسه مطولة، والولد مستعجل عشان كدا جيت بنفسي و والده سلمني زمام الأمور.

عثمان بيه بنبرة ودودةٍ:

-مفيش داعي للاعتذار، نادر زي ندى بنتي بالضبط، أنا اعتبرت أنه ابني من أول مرة جاني وطلب أيدها، وأنا عرفت أنه راجل مسئول ويعتمد عليه.

... في غرفة المطبخ العتيقة المصنوعة من خشب الزان المطلي باللون الأخضر الفاتح المائل للأزرق ، ثلاجة عصرية، تصميم المطبخ بالطريقة الأمريكية والذوق الرفيع.

تقف في منتصف الغرفة فتاة ترتدي فستان بأكمام طويلة، وتطلق شعرها القصير المنسدل على كتفها. وبجوارها والدتها التي تضع أكواب العصير على الصينية بكل دقة وترتيب.

تتحدث الفتاة وتسأل في حنق:

-عاجبك عمايل بابا دي؟

تجيب والدتها في ممازحة فهي تعلم أن طفلتها تحب هذا الشاب:

-هترفضيه تاني برضو، بصي مفيش رفض خلاص تاني، هتوافقي يعني هتوافقي.

تنظر لها في عجب وتقطب حاجبيها:

-إيه دا هو متفق معاكم عليا ولا إيه؟

تنطلق من ثغرها ضحكة مبتهجة:

-لا أحنا مش عاوزينك أساسًا، الله يكون في عونه.

تزم شفتاه وترمق والدتها بنظرة متحدية:

-بقا كدا يا ماما طيب أنا هوريه.

..... تتناول صينية العصير وتدلف إليهم مطرقة في خجلٍ واستحياء، بالرغم أنها كانت ستقوم بقتله منذ يوم مضى. ينظر لها نادر ويحرك حاجبيه في حركات عجيبة ويخبرها ممازحًا:

-ها موافقة يا عروسة؟ دا أنا العريس.

تخبره بعزة وأنفة:

-لا مش موافقة ها ومش هوافق.

يقاطع والدها حديثهم، ممازحًا:

-بس أنا موافق.

تصدم من رد فعل والدها:

-بابا أنتَ.

نادر ينظر لها راجيًا:

-اهم موافقين، وافقي بقا يلا يا زهرة الياسمين.

تخبره في حنق:

-مش أنتَ قولت أنك متجوز ومعاك عيال.

يتناول يد والدته ويقبلها في خنوع:

-ادي أم العيال ودي حبي الأول وأنتِ الأخير يا هبلة، يللي بيتضحك عليكِ بكلمة واحدة.

ومن ثم يردف ممازحًا:

-قولي أنك موافقة وافقي بقا هغزك، وافقي يا متعبة.

تخبره بعناد:

-لا مش موافقة.

وعندما نطقت بكلماتها الأخيرة همّت راكضة ولكنه باغتها وأمسك يدها، وتناول سكين الفاكهة و وضعها على عنقها ولكنه وضعها بالعكس. كان يمسك بيده النصل الحاد والطرف الآخر المكسو بالبلاستيك هو من كان على عنقها بأدق وصف، ومن ثم يردف ممازحًا:

-هتوافقي ولا اقتلك مجنون واعملها، واموتك قدام أبوكِ اهو.

كان يمكن أن تفلت منه وتضربه ولكنها خشيت إن فعلت ذلك تؤذي يده، لذلك أخذت منه السكين في رفق ومن ثم قالت:

-خلاص، خلاص موافقة.

يطلق زغرودة من فاه، ممازحًا:

-لولولولولي.

ندى وقد دارت وجهها بيديها من الخجل:

- يلههههوي.

نادر أردف بنبرة عجولةً:

-ممكن يا عمي حفلة الخطوبة الأسبوع الجاية.

عثمان بيه متعجبًا:

- أنتوا مستعجلين ليه؟

والدة نادر تعتذر في خجل وحرج :

- والله هو مؤدب معرفش بقا قليل الأدب أمتى؟ معلش أعذروني.

والد ندى مهداً من روعها:

-مفيش داعي للاعتذار أبدًا، نادر أبني خلاص ويعمل اللي عاوزه. خليهم يفرحوا.

تخبره في ودٍ:

-خليهم يفرحوا.

يأخذ جنبًا ويهمس للتي بجواره:

-بت؟

ندى وتحاول أن تتحاشي النظر لعينيه:

-عاوز إيه؟

يخبرها محبًا، عاشقًا، هائمًا:

-زهرة الياسمين، بحبك.

تخبره ممازحةً وقلبها ينبض نبضات متتالية:

-لا، أتلم.

ينظر لها مستعطف قلبها:

-بقا كدا.

تردف في عناد:

-أيوه كدا.

* * *

وسط الملفات المكدسة، علب السجائر الفارغة وأعقاب السجائر المكدسة بداخل المطفأة، رائحة التبغ الخانقة التي تحتل أرجاء الغرفة. شاب يجلس على الكرسي منغمس في العمل ويعمل بتركيز شديد. يدلف إلى الغرفة رجل عجوز يتوكأ على عصاه. تصدر عصاه صوت نقر على أرضية الغرفة، يميزه من يجلس على ذلك الكرسي فيقف احترامًا للدالف إليه:

-اتفضل يا محمد بيه.

يخبره بصوتٍ حانّي:

-طارق.

يتفادى النظر إليه ومن ثم يخبره في خنوع:

-أيوه يا فندم.

ينظر له بودٍ ويخبره في استعطاف وقسمات وجهه يحتلها العجز:

-أنا مش هتكلم معاك علشان الشغل، أنا عاوزك بخصوص مراتك.

طارق بنبرة حازمة، جازمة:

-محمد بيه، أظن دي أمور شخصية ومينفعش نناقشها في الشغل، ولا إيه، مش دي أوامرك؟

يخبره مستعطف، يريد أن يستميل قلبه:

-بس أنتَ ابني، ومن حقي اتكلم معاك.

طارق مردف بهدوء خانق:

- أنا أسف جدًا مبحبش اتكلم في الشغل، في أي حاجة تخص حياتي.

يثقل كاهل والده ومن ثم يردف قائلًا:

-أنت اتغيرت قوي لدرجة كبيرة.

بعد أن همّ مغادرًا أخبره بذات الجدية والهدوء وملامح الوجه التي أضحت بائسة:

-حضرتك أنا بعمل شغلي وبس، ودا المهم، وبالنسبة للأوراق المهمة هتكون عند حضرتك بكرا الصبح، أظن كدا أنا خلصت شغلي واستأذن أنا، بعد أذنك يا محمد بيه.

...لقد صدم والده من طريقة تعامله وحديثه، لقد تغير مثلما كان يريد ولكنه تغيير مخيفًا وبشعًا. أصبح مثل الآلة وحسب، حتى أنه لا يجادل، لا يشاكس أو حتى يعترض على أي شيء، أيعقل أنه تجرد من مشاعره، أنه أصبح مثل الموتى الاحياء؟ لا أعتقد، ربما الغضب والكره يخترق قلبه ويتشبث به. طبول البغض تقرع. طبول القسوة تدق. طبول الكره تنقر. طبول الود تفني. طبول الحب تمزق.

* **

..بعد أن غادر شركة أبوه، ذهب لسرايته الفاخرة، يجلس في غرفة مكتبه يتصفح ملفات وأوراق مهمة. عقله مشتت وربما يحاول انتزاع عقله ويحل محله روح فانية. بينما هو في خضم تشتته وأفكاره يقاطع كل ذلك رنين الهاتف النّقال الخاص به، يتناوله بيده مجيب في ودٍ يعتلّجه البؤس:

-الو، أيوه يا صاحبي.

يخبره الطرف الآخر مؤنب:

-دلوقت افتكرت صاحبك، طيب عامةً خطوبتي الأسبوع الجاية تعالَ أنتَ وجنة.

تعتري وجهه علامات الصدمة ويسأله بصوت مخطوف:

-خطوبتك ازاي دا؟

يردف الطرف الآخر ممازحًا:

-يعني فاكر نفسك بس اللي هتجوز، أيوه خطوبتي.

يسأله في ودٍ:

-هتخطب ندى صح؟

الطرف الآخر مؤكدًا:

-أيوه هخطبها، هي دي حب حياتي.

يضع يده على قلبه بائسًا:

-الله يسهلك ياعم.

يخبره نادر بنبرة محزونة:

-ويسهلك، اوع متجيش ازعل، طارق متزعلش محدش بيأخد غير نصيبه يا صاحبي.

يزفر ومن ثم يتنهد وجعًا:

-مقدرش مجيش أنتَ أخويا مش أي حد. عادى يا صاحبي كبر دماغك.

نادر ممازحًا لتخفيف من حدة الأجواء:

-حبيبي، طيب أنا هروح اتصل بباقي الشلة.

يغلق الهاتف بعد أن أنهى المكالمة ويجلس مفكرًا، كيف سيعيدها؟ كيف سيجعلها توافق من الأساس أن تذهب معه لحفل الخطوبة؟ بعد أن طردها أشر طرد. حسنًا لا يعلم ماذا يفعل؟ ولكنه بالتأكيد سيجد منفذًا.

* **

..... **في مكان آخر**، في غرفة أضاءتها خافتة. كتب مبعثرة بطريقة عشوائية، شموع تضيء ضوء خافت، شموع تصدر روائح عطرة، صوت فيروز الصادر من مشغل الموسيقي " أم بي ثري " صوتها الذي يشبه رائحة الورد وهي تغني:

"كيفك قال و عم بيقولو صار عندك ولاد

أنا و الله كنت مفكرتك براة البلاد

شو بدي بالبلاد الله يخلي الولاد"

يقطع صوت غنائها رنين الهاتف النّقال، فتنهض الفتاة من على مكتبها وتترك الكتاب الذي بيدها، لتلتقط الهاتف وتجيب بوجهٍ بشوش تحتله تلك الهالات السوداء.

الطرف الآخر من الهاتف مسرورًا:

-حبي، عمري.

بنبرة ودودة:

-نودي قلبي.

ندى بصوتٍ يرفرف من السعادة:

-بصي يا حب عندي مفاجأة.

بنبرة فضولية:

-قوليلي بقا يلا!

ندى والسعادة لا تسع قلبها:

-نادر هيخطبني وحفلة الخطوبة الأسبوع الجاي. أوعي متجيش يا جنة.

تسرّ كثيرًا من أجل صديقتها:

-ألف مبروك يا حبي. أيوه بقا، نادر مفيش زيه وهيحافظ عليكِ.

تخبرها ندى بثقة وسرور:

-أيوه عارفة بس بستهبل عليه.

جنة ممازحةً:

-أكيد جننتيه!

ندى تجيب ضاحكة:

-عيب عليكِ، هو مجنون لوحده أنا مليش دعوة.

تخبرها جنة بمودة بالغة:

-مبسوطة جدًا ليكِ يا قلبي.

ندى بنبرة شغوفة:

-وأنا كمان هموت من الفرحة، بس عاملة زعلانة قدامه.

جنة بممازحة:

-مجنونة وهتاخد مجنون زيها.

ندى بتأكيد:

-عارفة.

شغف الحب. الموت. الدمار. الفناء. إذا كنت تريد الحب فلتعلم أنك ستذوق الموت. سيتم تدمير كل خلية من خلاياك. والأهم من ذلك كله، ستفني روحك وتتفتت كما يتفتت رماد ورقة بعد حرقها.

الحب هو العته بحد ذاتها، فأختار منّ تعّت معه بكل سرور.

الفصل التاسع والعشرون
"سامحيني"

....مازال جالس في مكتبه يفكر ويدور في ذهنه سؤال وحيد ألا هو " كيف سيرجعها إلى المنزل؟ وكيف سيقنعها بالذهاب معه إلى حفل الخطبة؟ فهو قد طردها من منزله ولم يكلف خاطره بأن يطيب خاطرها. يضرب بيده على ركبته ويفكر بصوت عال:

-طيب للأسف هتصل بيها وأعتذر مع إني مش عاوز أكلمها، بس هعمل إيه؟

حاول الاتصال على هاتفها ولكن يبدو أنها قامت بحظره فالخط يعطيه أما مغلق و أما مشغول. احتل اليأس مكانًا في قلبه ولكنه لم يستسلم. تناول سماعة التليفون الأرضي واتصل برقم منزلها وأنتظر إلى أن أجاب أحد سكان المنزل وبالأحرى كانت والدتها.

والدتها بجدية وصوت خشن:

-أيوه أفندم، مين؟

طارق بهدوء:

-أنا يا حماتي، وكنت عاوز أكلم مراتي.

حورية بعصبية ولكن تحاول أن تتنفس الصعداء:

وعاوزها في إيه إن شاء الله؟

طارق بنبرة مغتاظة:

-عاوزها ترجع البيت.

محدث ذاته في غيظ:

-أنا إيه خلاني اتصلت ما تولع بجاز.

والدتها محذرة، مهددة:

-بما أنك طردتها، تعال خدها وأعتذر منها قدامنا وإلا مفيش رجوع معاك، فاهم.

طارق محدث ذاته في تتأفف:

إيه الولية دي؟

طارق بانصياع: حاضر يا حماتي، جاي وهعتذر منها، امتى أكون عندكم؟

والدتها بنبرة أمرة:

-تعال على العشا.

طارق بذات الانصياع:

-حاضر يا حماتي.

يصفق الهاتف ويرميه بعيدًا في انفعال ومن ثم يردف غاضبًا:

- تعال على العشا أوف، أوف، بجد مش مستحمل ولا الست هانم مش عارف أعمل إيه؟

* * *

دلفت والدتها إلى المطبخ وهو بالمناسبة مطبخ متواضع، إلى اليمين هناك ثلاجة من نوع "أيديال "بعيدًا عنها هناك دولاب به الأواني وآخر به التوابل والبهارات، إلى اليسار حوض المطبخ، في الجانب الغربي والملاصق للجدار هناك الموقد "بوتاجاز " من نوع "يونين أير" ولكنه قديم الطراز نوعًا ما. طاولة للمطبخ تنصف كل ذلك، يوضع عليها الطعام قبل أن يقدم في غرفة " السفرة".

افتتحت الحديث بأن قالت لأبنتها التي تخرج شيئًا من الفرن:

-جوزك جاي على العشا النهاردة.

تضع ما بيدها على الطاولة وتزفر في حنق:

-جاي ليه، عاوز إيه، عاوز يهين فيا تاني، ويزعق فيا، ولا يرجعني ويعاملني بقرف؟

والدتها بإشفاق:

-يا بنتي هو هيعتذر منك ومهما كان دا برضو جوزك، وبعدين هو مضربكيش، الراجل قالك كلمتين ويمكن كان متضايق ولا حاجة.

جنة بإصرار:

-وأنا مش همشي معاه وهو حر مش همشي.

والدتها بعجز:

-يعني مصممة على قرارك دا!

جنة:

-أيوه مصممة، ولو مكنتوش عاوزاني، أنا هروح أي مكان تاني بس مش هعيش معاه في مكان واحد.

والدتها تضمها إليها وتربت عليها بحنو:

-أنتِ بتقولي إيه بس يا بنتي، إن مشلتكش الارض نشيلك فوق راسنا.

جنة تنفجر باكية:

-مش عاوزة أرجع ومش هرجع.

* * *

في هذه الأثناء نادر يطلب رقم أدهم ليدعوه لحضور خطبته، في النهاية هم أصدقاء أو أصبحوا كذلك وناهيك عن أن هناك تعاملات مالية فيما بينهم.

أدهم مجيبًا بودٍ: الو ... أيوه يا نادر أخبارك؟

نادر بهدوء:

- الحمد لله كويس أخبارك أنتَ إيه؟

أدهم ممازحًا:

-الحمد لله بخير، وشغلك مرتاح فيه ولا تيجي تشتغل معايا؟

نادر ضاحكًا:

لا مرتاح، أنا كنت بتصل علشان أعزمك على خطوبتي اوعي متجيش ها.

أدهم يردف ضاحكًا:

-حبيبي يا ندورة أنا أقدر مجيش، ومين المزة بقا؟

نادر معاتبًا بممازحة:

-أنتَ بتعكسها قدامي، عيب عليك.

أدهم معتذرًا:

-أسفين يا أخويا.

نادر مؤكدًا:

-هتيجي أكيد ولا إيه؟

أدهم ممازحًا:

-جاي ومعايا المدام، امتى بقا الخطوبة دي؟

نادر خائفًا:

-بعد أسبوع، بس بلاش سارة تيجي معاك.

أدهم بتهكم:

-أنتَ اتجننت يا نادر، أنا مقدرش اروح مكان إلا وهي معايا. أنتَ عاوزها تقلبها نكد عليا.

نادر بنبرة قلقة:

-ماشي اللي تشوفه، متنساش بس.

أدهم بصوت هادئ:

-مش هنسي.

* * *

الساعة الثامنة ليلًا.

طارق في منزل جنة، يجلسان على طاولة "السفرة"، وهي تجلس بجواره. الأجواء السعيدة .الهدوء والسكينة، رائحة الطعام الشهية ورائحة المودة والمحبة كذلك، تصدر رائحة طيبة في هذه الأجواء رائحة الدفء والحب كذلك. الحب الذي لم يراه على مدار سنينه التي ما زال يعيشها، ذلك الدفء لم يشعر به قط.

طارق يهمس لها معتذرًا:

-أنا أسف ممكن ترجعي معايا؟

تنهض منفعلة من جواره وتترك مائدة الطعام وتغادر:

-قولتلك مش هرجع معاك، و ياريت متتعبش نفسك أكتر من كدا.

والدتها تربت عليه في حنو وتعتذر له:

-معلش يا بني، هي مش هترجع معاك بسهولة أنا عارفة بنتي كويس.

طارق بنبرة حزينة وبؤس يظهر على ملامحه:

-والله مش عارف أعمل إيه؟

والدها ناصحًا له:

-روح شوفها واتكلم معاها يمكن تسامحك.

والدتها في ودٍ:

-لا يكمل أكله الأول وبعدين يشوفها.

طارق بمودة وهدوء:

-لا أنا شبعت.

والدتها بحنان لم يراه مثله أو لم يعتقد أن الأم قد تكون بمثل هذا الحنان والحب:

-أنتَ مكلتش حاجة أصلًا، أقعد كل الأول.

ينهض من على طاولة الطعام مستأذنًا:

-بس أنا شبعت فعلًا، أنا هروح أشوفها.

.....يستفسر عن مكان غرفتها ويسير بخطوات ثابتة ناحية الغرفة ويطرق عدة طرقات مستأذنًا:

-ممكن أدخل؟

جنة بحزم:

-لا.

يحرك مقبض الباب ويدلف إلى غرفتها رغمًا عنها ورغم رفضتها كذلك. ومن ثم يغلق الباب خلفه ويتقدم نحوها بهدوء. ويجلس على طرف فراشها.

جنة بانفعال:

-إيه قلة الذوق دي قولتلك لا.

طارق بصوت مستفز:

-أنتِ مراتي والمفروض تسمعي كلامي ولا إيه؟ وحتى لو من غير أذن أدخل براحتي.

تزفر بحنق:

-يأووه بقا كل شوية مراتي، مراتي هي لبانة في بقك كل شوية، عامةً هانت، كلها كام شهر وكل واحد يروح لحاله.

بنبرة هادئة باردة:

-بس أنا مش هطلقك حتى لو عدت السنة.

تردف بذات الحنق والغيظ:

-يعني مش هخلص منك؟

يردف بذات الاستفزاز:

-لا مش هتخلصي مني، مش بالسهولة دي.

تخبره بجدية تعتري ملامحها وتهديد صريح:

-خلاص هخلعك يا طارق وأظن القانون في صفي ولا إيه، دخلت المستشفي بسببك وبكدا هاخد الحكم.

يطلق ضحكة من ثغره، ضاحكًا على كلامها وملامح وجهها كذلك:

-إيه دا ضحكتيني، طريقة كلامك. مش لايقة عليكِ بجد.

تنظر له بازدراء:

-قصدك إيه بقا؟

يخبرها ضاحكًا:

-مش عارف بس ضحكت، ممكن تسامحيني بقا، أنا مكنتش أقصد، خليكِ أنتِ أحسن مني وسامحيني.

تعقد يدًا بيدً:

-قول آسف قدام بابا وماما وقولي حقك عليا وعاملني كويس.

يخبرها بانصياع: حاضر، أي حاجة تاني؟

تخبره باستفزاز وعناد كذلك:

-طيب ماشي، مش هرجع برضو.

طارق منفعلًا من استفزازها له:

-أنتِ عاوزة إيه بالضبط أركع قدامك يعني وأقولك آسف وسامحيني، ولا أعمل إيه؟

تقطب حاجبيها في استهجان:

-شوفت اتعصبت إزاي، علشان أنتَ مكنتش عاوز ترجعني أصلًا.

يهدأ قليلًا ومن ثم يردف مستعطفًا:

-مش كدا افهميني.

تخبره بكبرياء وثبات وانفعال جلّي في صوتها:

- آه فهمت عاوزني أحضر معاك خطوبة نادر وندى ونمثل أننا أسعد اتنين حاضر هعمل كدا، وهعمل كل اللي عاوزه بس مش هرجع معاك فاهم مش هرجع، أنا مش عاوزاك.

محاولًا جعلها تهدأ، مشيرًا بيده أن تتنفس الصعداء:

-ممكن تهدي طيب ونتفاهم.

تخبره بجدية ونبرة قاسية:

-بص يا طارق أنا كنت بعمل كل حاجة وكنت بحاول نكون كويسين بس أنتَ بتبوظ كل حاجة، أنتَ مجنون، فاهم يعني إيه؟ ساعات تكون كويس وساعات تقلب شيطان وتبقي عصبي وشرير وعاوز تاذيني وخلاص.

سائلًا إياها في عطف بصوت حانٍّ:

-يعني مش هترجعي معايا؟

تنظر له بحقد:

-لا مش هرجع، وأظن أننا بعيد كدا أحسن، أنتَ تعيش مرتاح، وأنا كمان أكون مرتاحة.

يخبرها ودودًا هادئًا:

-بصي مش هضغط عليكِ وبراحتك، بس هاجي أخدك بالعربية للخطوبة، ولو مكنش يضايقك هبعتلك فستان علشان تلبسيه في الخطوبة.

تخبره بحدة:

-لا شكرًا، أنا هشتري لوحدي، ذوقي مش زي ذوقك.

يهمّ بالرحيل ويتركها مغادرًا:

-طيب أنا همشي وأسيبك، وأسف على كل حاجة.

بذات الحدة والانفعال:

-آسفك مش مقبول، واتفضل من غير مطرود.

... يخرج من غرفتها ويغلق الباب خلفه ويدلف إلى غرفة "الصالون" ليستأذن من حماه ليغادر وهو خالي الفوائض، يتقدم ناحية حماه مطأطأ الرأس معتذرًا:

-عمي أنا همشي وآسف على الازعاج.

والدها يخبره مهونًا عليه:

-خليك أشرب معايا قهوة، القهوة اللي بتعملها حماتك لا يعلي عليها.

يخبره بوجه يعتريه الوجوم:

-معلش فرصة تانية.

وفي هذه الأثناء تدلف والدتها بفناجين القهوة. والدها بودٍ وإصرار ويتشبث بيده ويجعله يجلس بمحاذاته:

-اهي القهوة جات أقعد أشربها.

طارق بانصياع:

-حاضر.

...تضع صينية القهوة ومن ثم تغادر وتتركهم بمفردهم. والدها معدلًا لعويناته نظرًا له بشكٍ:

-مش موافقة ترجع معاك؟

طارق ويتناول فنجان قهوة ويرتشف منه قليلًا:

-أيوه ومش عارف أعمل إيه؟

يخبره معاتبًا وفي ذات الوقت متفهمًا:

-أنتَ برضو غلطت يا بني و بنتي عنيدة جدًا وأنتَ وحظك بقا.

طارق متهجم الوجه:

-حظي وحش يا عمي، عامةً أنا همشي، أنا خلصت قهوتي، هزوركم وقت تاني.

والدها في ودٍ:

-ماشي أتفضل. طارق يا بني متقولش حظك وحش، الخلافات بتحصل بين أي اتنين ودا مش معناه أن الطرف التاني ميحاولش يصلح العلاقة، خليك أنتَ الطرف الأحسن يا بني.

طارق مطأطأ الرأس ومن ثم ينهض مغادرًا:

-هحاول يا عمي.

* * *

والدتها متحدثة معها بهدوء، محاولةً تحسين الأوضاع بينهما، ولكن طفلتها عنيدة كما يقولون " دماغها ناشفة وناوية على خراب بيتها "

والدتها بهدوء وفرحة لا تستطيع إخفاءها:

-أهو جالك لغاية البيت وأعتذر إيه تاني؟

جنة ببؤس شديد وإصرار:

-الجرح كبير ومش سهل تتدويه بكلمتين، وكمان أنا عارفة هو عاوز يرجعني ليه وهنفذ طلبه وبس.

والدتها ناصحة:

-يا حبيبتي هما الرجالة كدا شايفين نفسهم على طول صح، وبعدين دا كويس إنه جاء وطلب السماح، في رجالة بتسيبك في بيت أهلك بالشهر والاتنين لحد ما

ترجعي لوحدك، وأنا شايفة إن الراجل مغلطتش، يعني لا ضربك ولا شتمك ولا قالك أي حاجة، فأنتِ مكبرة الموضوع وعاملة من الحبة قبة.

ومن ثم تردف محذرة:

- تنسي حكاية الخلع دي خالص وتنسي أنك تتطلبي الطلاق، معرفش مش طايقة الراجل ليه؟ أنتِ فاكرة يعني أنه وحش، أبوكِ كان أمر و أتعس يكش بس لما خلفتكم بقى أحسن و زي مخاليق ربنا.

تخبرها باكية:

-ماما أنا قولت إنه خلاص مش هرجعله. وحاضر مش هطلق بس مش هرجع.

والدتها مغادرة من جوارها:

-ماشي يا بنتي مش هنغصبك على حاجة، براحتك.

تدفن رأسها في وسادتها:

-أيوه كدا سيبوني براحتي.

تتركها والدتها وتطفئ أنوار غرفتها وتترك لها الضوء الخافت الذي على شكل فراشة ليضيء الغرفة، لأن طفلتها تخشي الظلام.

بمناسبة الطلاق، المجتمع ينظر للمطلقة على أنها حشرة و آفة ضارة يجدر بهم قتلها قبل أن تتكاثر. الطلاق بالنسبة للبعض مثل نذير الشؤم أو مثل طائر الهامّة الذي أرتبط بالدماء والثأر كذلك.

أعني يمكن للرجل تشويه زوجته وقتلها و لكن لا يمكنها طلب الطلاق فهذا مخالف لعاداتنا. حسنًا هناك بعض النسوة اللواتي يرفعن قضايا بدون وجه حق على أزوجهن ويسلبن كل ما يملكون، كما يقولون " تأخد شقا عمره و تحويشة سنينه وتخلع ".

الفصل الثلاثون
تجهيزات

....قبل الخطبة بيومٍ واحد.

في قاعة لتحضير المناسبات والأفراح، إذا نظرنا سنجد بعض الكراسي المحطمة وبعض الزهور الممزقة والمرمية بشكل متناثر، باهتة اللون ذابلة، أضحت أوراقها ما بين دهسة حذاء ولون ذابل وشاحب.

نادر في هذه القاعة ليقوم بتأكيد حجزها كمّا أتفق مع فتاته، يتنقل في أرجاء القاعة ويجد شخص يأمر وينهى في العمال، وهنا يفطنّ أنه صاحب هذه القاعة التي بالمناسبة ليست سيئة ولكن كما يقولون " على قد حلفك مد رجليك ". يتنحنح بجانبه ويخبره أنه يريد أن يفتعل مقلب بفتاته، وأخبره أن يتشاجر معه ليبدو الأمر واقعي وألا يكون الأمر كذبًا.

نادر ممازحًا:

ـ أحنا هنعمل مقلب في ندى وكدا، واتخانق معايا وقول إن القاعة محجوزة تمام، عشان بس ميبانش أني كذاب.

المدير تابعًا إياه في عبثه وغبائه:

-تمام يلا، مين حضرتك وعاوز إيه؟

نادر متلعثمًا:

-أنا اللي كنت حاجز الخطوبة دي بكرا، قصدي حاجز القاعة دي بكرا.

المدير بكل آسي:

-يا فندم مينفعش القاعة محجوزة بكرا.

نادر مرددًا كالببغاء:

-ليه محجوزة ها ليه؟

المدير معتذرًا:

-بكرا في حفلات كتير ومضطرين نلغي الحجز بتاعك.

نادر بانفعال مصطنع:

-ازاي تلغوا يعني، قال تلغوا قال.

يتناول هاتفه ومن ثم يطلب رقم فتاته وبعد محاولات ليست كثيرة أجابت في صوت حانق:

-الو عاوز إيه؟

نادر بنبرة مغتاظة:

-لغوا الحجز بتاعنا ارتاحتي يا بومة.

ندى في انفعال:

-لا مليش دعوة اتصرف، وأنا مش بومة وهلغي الخطوبة والفرح من أساسه ها.

نادر محتارًا:

-يعني أعمل إيه أنا؟

ندى بصوت محذر:

-اتصرف أنتَ لازمتك إيه؟ ولا اجي أنا واتصرف ها.

نادر ويعطى الهاتف لمدير القاعة:

-طيب استني خدي مدير القاعة معاكِ أهو.

يتناول الهاتف ويجيب في هدوء:

-أيوه يا أنسة ندى.

ندى بغضب وصوت كاد أن يخرق طبلة أذنه:

-مين قالك تلغي الحجز ها.

المدير محاولًا تهدئة أعصابها:

-هدي اعصابك يا فندم دي شكليات بس و ...

تقاطعه في انفعال وغضب:

-أنا مش متعصبة ولا نيلة فاهم، وبلا شكليات بلا زفت، القاعة بتاعتنا بكرا ومفيش نقاش.

المدير مبررًا: بس يا فندم ...

تردف بذات الانفعال:

-مفيش بس دا آخر كلام عِندي.

المدير بانصياع:

-حاضر يا فندم.

تردف منفعلة ومحذرة:

-القاعة تجهز بكرا ولو التجهيزات معجبتنيش مش هيحصل طيب فاهم ولا.

بعد أن أخبرها بانصياع بتنفيذ الأمر، ناول الهاتف للشاب الأبله الذي ورطه في مزحة سخيفة:

-حاضر يا فندم، اتفضل يا أستاذ نادر الأنسة ندى.

نادر ضاحكًا بعد أن تناول الهاتف منه و وضعه على أذنه، وغادر من جوار صاحب القاعة قليلًا:

-يعجبني فيكِ شخصيتك القوية.

ندى نبرة جافة:

-هو هيشوف نفسه عليك ولا إيه، أنا أعرفه مقامه كويس.

نادر ممازحًا :

-على فكرة هو كان موافق أصلًا. بس دا مقلب.

تنفرج من ثغرها ضحكة هاربة:

-حد قالك أنك بارد؟

نادر منفعل بشكل مصطنع:

-ما تحترمي نفسك شوية، أنا خطيبك برضو.

تردف بنبرة مازحة:

-بس يا مهزق يا سفيق.

يخبرها ضاحكًا:

-هو أنا عمر وأنتِ سلمي سفيق إيه بس؟ ولا أقولك سفيق وسبونج بوب.

تخبره بكل طفولة:

- ومعاهم ساندي ومستر سلطع.

نادر بنبرة هادئة ضاحكة:

-هبلة هبلة، البت الهبلة رزق.

تخبره بنبرة شك:

-على أساس إني هبلة لوحدي.

نادر نافيًا التهمة من عليه:

-لا أنا سيد العاقلين.

ندى تخبره أن يغلق فهو أخذ كثير من وقتها:

-أقفل طيب بشتري أنا وجنة شوية حاجات يلا بقا هتعطلنا.

يغلق مودعًا لها بأن أخبرها إن تأخذ بالها من نفسها وأن تتوخى الحذر. ذلك الطفل الكبير لم ينضج بعد، كما تقول والدته ستجعل الفتاة تصاب بجلطة يومًا ما. تلك العلاقة الهادئة والجميلة في ذات الوقت، ظل مصرًا إلى أن أمتلكها. ذلك الشاب الأبله الذي لا يعرف اليأس طريقًا إلى قلبه أو عقله، ذلك المحب الميتم بحب حبيبه. محظوظ بحق من يمتلكه.

* **

..... في مكان آخر في هذا الوقت.

ندى وجنة تدخلان كل متجر للملابس، يلقين بنظرهن ومن ثم لا يجدن ما يثير إعجابهن ومن ثم يخبرن العاملة في المتجر الجملة الشهيرة " هنلف لفة ونرجعلك تاني" ولكن للأسف لا يعدن مرة أخرى بل يهربن بجلدهن. تستوقفها جنة أمام المتجر الذي ستدلفان إليه بعد عدة ثوان، متعبة ومرهقة وتبدو مكفهرة الوجه وتخبرها أنها أرهقت بنبرة لاهثة:

-بس يا ندى أنا تعبت بصراحة من كتر اللف دا.

ندى بنشاط وتنظر لصديقتها بغرابة:

-هو أحنا لسه لفينا ولا عملنا حاجة دا المحل 15 بس اللي نروحه؟

جنة بصوت مرهق وقطرات العرق تتصبب من جبينها:

-يا بنتي حرام عليكِ من 7الصبح لحد دلوقت الضهر وأحنا بنلف، وأنا جعانة وماكلتش من الصبح.

ندى تنظر لها بعطف:

-خلاص دا آخر محل وهنروح ناكل ونرجع نلف تاني.

تخبرها بصوت المجبور على أمره:

-يا ربي يلا.

.. تدلفان إلى المتجر بعد أن أزاحتا الباب الزجاجي بيدهما وها هم على مشارف أعتاب المتجر وإذ تجدان سيدة تجلس على كرسي وأمامها بطنها المنتفخ وهي تربت عليها بحنوٍ وتحادث صغيرها بعد أن شعرت أنه يركلها ركلة خفيفة. بعد إن دخلتا أتضحت ملامح السيدة ولم تكن سوى سارة. فذهبت إليها جنة وصافحتها وألقت السلام، وأما ندى فلم ترغب برؤيتها وذهبت لتتفحص صف الفساتين في الركن البعيد.

جنة بودٍ بعد أن وقفت جوارها:

-عاملة إيه يا سارة؟

تنظر لها باستغراب وتعجب كذلك:

-أول مرة تسلمي عليا.

تخبرها بنبرة بائسة محزونة ومن ثم تسأل سؤالًا أبلهًا وينفرج ثغرها مبتسمًا:

-كل حاجة بتتغير، بس إيه دا أنتِ حامل؟

تضع يدها حول بطنها ومن ثم تردف مبتسمة بوجه بشوش:

-أيوه حامل، وهيشرف بعد شهر ونص، عقبالك بإذن الله.

جنة بودٍ وعطفٍ ونبرة طفولية:

-ربنا يقومك بالسلامة ويطلع شبه مامته عسل كدا.

تتململ ومن ثم تخبرها في ودٍ:

-يا رب يا جنة يا رب، وربنا يكرمك أنتِ كمان، هو مفيش حاجة في سكة؟

تتبدل ملامح وجهها وتخبرها في عبس:

-لا مفيش، والحمد لله كل واحد بعيد عن التاني.

تنظر لها بإشفاق ومن ثم تتناول يدها بحركة عفوية وتربت عليها:

-جنة، طارق كويس والله، يعني ممكن يكون عصبي أو بيقول كلام وحش وهو متعصب بس هو مخترش حياته دي أتفرضت عليه، أنتِ طوق النجاة بتاعه، سامحيه على أي حاجة عملها من فضلك، وسامحيني أنا كمان، مكنتش أقصد اللي عملته أنا كنت معميه و كنت زي ما الكل عارف أن حالتي النفسية مش مستقرة، أنا عارفة أنه مش مبرر بس أنا أسفة بجد ومن كل قلبي يا جنة.

ومن ثم تنهض مغادرة وقد انسدلت دموع من عينيها دون أرادة منها ولكنها دموعًا صادقة:

-عامةً أنا همشي أنا لقيت اللي عاوزاه و قلت اللي محتاجة أقوله، هروح احاسب وامشي، خلي بالك من نفسك.

تشاور لها بودٍ وقد تبدل شيئًا في قلبها واستحالت المودة في خلجانها:

وأنتِ كمان خلي بالك من نفسك ومن البيبي . و مسامحكِ يا سارة، ربنا بيسامح أنا مين عشان مسامحش.

..... بعد أن غادرت سارة جذبتها ندى من يدها وهمست في نبرة معاتبة ومنفعلة:

-العقربة دي عاوزة منك إيه؟

تخبرها بعطف ونبرة ودودة:

-حرام عليكِ يا ندى، هي دلوقت بقيت كويسة.

ندى تحدجها بعينيها وتردف في حنق:

-أنتِ هتفضلي هبلة لغاية امتى بس؟

تحاول تدارك الموقف وتقول في لطف:

-أنتِ اللي ضميرك وحش وبتشكي في الناس.

ندى مقطبة جبينها في استهجان:

-لا أبدًا بس مبنساش حد اذاني مش زيك أي حد يضحك عليا بكلمة ولا نسيتي هي عملت فيكِ إيه؟

تنفرج من ثغرها ابتسامة وتخبرها موضحة:

-كلنا بنغلط، أحنا مش ملايكة، بس هي بقيت أحسن، ويلا بقا نشتري عشان أنا زهقت.

ومن ثم تردف بآسي بالغ:

-كلنا كنا عارفين حالتها النفسية يا ندى كانت محتاجة أننا نتعامل معها معاملة خاصة، لأنها كانت فاكرة أن كل الناس عاوزة تأذيها، هي شافت اللي بتحبه بيموت

قدام عينيها. الحالات الهستيرية اللي كانت بتحصلها قدام البنات وكانت بعد كل نوبة تتخانق مع بنت معينة، فأنا كان لازم أتعامل معها على أنها طفل يا ندى. فالحقيقة كلنا غلطانين.

ندى وتحاول جلب انتباهها وتمسك فستانًا من الدانتيل ببطانة من الفسكوز ذا الخامة الناعمة والملمس كذلك:

-ماشي، بصي على الفستان دا، هيعجبك جدًا.

تتحاشى الموضوع ومن ثم تبتسم كطفلة صغيرة:

-الله بقا والنوع اللي بحبه، دانتيل، بس دا شفاف لا مش هلبسه.

تترك الفستان وتفتش عن آخر في أرجاء المتجر:

-خلاص أدورلك على واحد غيره يكون تقيل شوية.

تخبرها بودٍ:

-خدي أنتِ البسيه أحنا ذوقنا مش واحد.

تنطلق من ثغرها ضحكة هاربة:

-بس نادر لو شافني لبساه هيضربني بالنار، دا عاوز يلبسني خيش لو يقدر.

تزفر في حنق ويأس:

-خلاص نشوف حاجة تانية مع إني تعبت وهشتريه اسألي كدا لو في لون تاني غير اللون دا.

تذهب ندى مباشرة إلى العاملة في المتجر ومن ثم تسألها في ود:

-في لون غير كدا ويكون الدانتيل اتقل؟

العاملة في المتجر بابتسامة ودودة:

-أيوه يا فندم موجود وكمان في موديلات أحدث من كدا.

تأتي العاملة محملة بتشكيلة من أرقي الموديلات وأحسنها ومن ثم تضعها أمامهن ليخترن ما يستهوى قلوبهن.

جنة وتمسك فستانًا من الحرير، لونه وردي:

-طيب أنا هاخد دا، وأنتِ يا ندى؟

ندى وتمسك فستانًا من الستان مبطن ببطانة من حرير، بلون بنفسجي:

-أنا هاخد اللون الموف الفاتح.

تبدل ما كانت ستختار وتقع عينها على فستان من الشيفون مبطن ببطانة من الفسكوز، بأكمام منتفخة ومكشكش:

-تمام وأنا هاخد الأسود.

ندى وتنظر لها بعجب:

-جنة البينك كان أحلى على فكرة عليكِ، ليه الأسود أنتِ رايحة عزا؟

تخبرها معتذرة:

-معلش بقا أنا هاخد الأسود.

تنظر ببؤس ومن ثم تبتسم:

-طيب اللي تشوفيه، بس البينك هيكون أحلى عليكِ.

* * *

..... في مكان آخر.

في مكتبه الذي يتوسط منتصفه طاولة صغيرة، ونافذة تطل على البنايات التي في الجهة المقابلة. يجلس مفكرًا ومن ثم يتناول الهاتف الأرضي ويتحدث مع السكرتيرة بنبرة هادئة، لم تعتدها:

- تعالي عاوزاك.

السكرتيرة بانصياع تام:

-حاضر يا فندم.

..تقف أمام الباب وتطرق عدة طرقات وتستأذن منه لتدلف إليه:

-أدخل يا فندم؟

طارق يخبرها في هدوء وينظر لها نظرات توجس في قلبها الخيفة، مشيرًا لها بالجلوس في المقعد القابع أمامه:

-اتفضلي تعالي أقعدي على الكرسي.

ترمقه بنظرات خافتة ومن ثم تحادث نفسها في غرابة:

-ماله دا بيبصلي كدا ليه؟

يعدل من جلسته ومن ثم يردف قائلًا:

-أكيد مستغربة أنا جبتك هنا ليه؟

تنظر له في خشية و رهبة وتؤثر الصمت. يحاول تهدئة الأجواء فيتحدث ضاحكًا:

-بصي أنا عاوز اشتري فستان ومعرفش أعمل إيه بصراحة، ومحتار؟

السكرتيرة بعد أن أطمئن قلبها وذهب الخوف عن فرائصها، تخبره في ود:

-بسيطة يا فندم. إيه الذوق واللون المناسب واشتري اللي تحبه؟

طارق يحك أسفل ذقنه مفكرًا ومن ثم يخبرها متحيرًا:

-المشكلة معرفش إيه ذوقها، قوليلي أنتِ بقا، إيه الالوان اللي بتحبوها؟

السكرتيرة تخبره وعلى ثغرها ابتسامة بلهاء:

-عندك مثلا الموف، والتركوز والعسلي والزيتي والهفان.

يتفاجأ ويقطب حاجبيه في دهشة ممازحٍ:

-إيه دا كله أنا معرفش غير لونين في حياتي، أبيض أسود وبس، والألوان اللي خدنهم في المدرسة اللي هما سبع الوان دول، إيه الالوان الغريبة دي؟

السكرتيرة تهرب من ثغرها ضحكة هادئة ومن ثم تستعيد رباطة جأشها:

-خلاص هاتلها فستان لون السما على أخضر كدا.

يخبرها وقد زادت حيرته أكثر، مشيرًا لها بالمغادرة:

-أنتِ حيرتيني أكتر، خلاص تقدري تمشي أنا هتصرف.

السكرتيرة تخبره في انصياع وتدلف خارجًا:

-استأذن أنا يا فندم.

...

بقيَّ لوحده مفكرًا محادثًا ذاته بصوت مرتفع:

-أول مرة أعرف إيه الالوان دي سبحان الله. أنا هجبلها فستان باللون الفستقي، هو في لون كدا؟ أكيد فيه يعني كل الالوان دي واللون الفستقي مش موجود لا دا أنا ازعل.

يجري اتصالًا مع أحد ما ومن ثم يجلس مفكرًا، بعد ساعتان من الانتظار، يتناول هاتفه ومن ثم يطلب رقم ما، يخبره أن يتم الأمر، ينتظر قليلًا ومن ثم تصله رسالة بأن الأمر تم، يتناول هاتفه مجددًا ومن ثم يطلب رقمًا يبدو مألوفًا لديه.

* **

بعد أن انتهت من التسوق، كانت قد عادت إلى منزلها منذ ساعات، بدلت ثيابها، تناولت الغداء، صلت فرضها ومن ثم جلست مفكرة في حديث سارة وهي تريد أن تعطي زوجها فرصة أخرى ربما.

تحادث ذاتها بصوت يكاد أن يكون مسموعًا وهي تتنقل في أرجاء غرفتها ذهابًا وأيابًا:

-يمكن خير، معرفش إيه اللي مخبيه الوقت، أنا مش عارفة بصراحة احتارت هو إيه دا، ساعات يحببني فيه وساعات مبكنش طايقه، معرفش هو بيكرهني فعلًا زي ما بيقول ولا لا، خلاص بقا يحبني ميحبنيش هو حر، أنا تاعبة نفسي ليه أساسًا؟ طيب أكلمه ولا، طب أكلمه علشان إيه؟

وبينما هي في غمرة تفكيرها وشتات عقلها، يتصاعد رنين الهاتف النقال تلتقف الهاتف في عجل وتجده يطلبها، تركض في أرجاء الغرفة في جنون، تريد أن تجيب و في ذات الوقت لا تريد ذلك. تتوقف عن الركض كالمجاذيب وتلتقط أنفاسها ومن ثم تتناول هاتفها وتجيب، تضعه على أذنها وتردف في وقار:

-أيوه عاوز إيه؟

يخبرها في ودٍ:

-في هدية قدام شقتكم ممكن تروحي تشوفيها؟

تخبره بنبرة هادئة:

-طيب هروح أشوف.

تركت غرفتها وذهبت باتجاه الباب وفتحت مزلاج الباب ومن ثم نظرت لأسفل و وجدت صندوق لونه أسود وعليه شريطة ذهبية و ما زالت تضع هاتفها على أذنها وتسأل في غرابة:

-أيوه هداية لونها أسود، هي دي صح؟

يخبرها بنبرة هادئة:

-أيوه خديها وأدخلي جواه وشوفيها كدا ممكن تعجبك.

تأخذ الهدية بين يديها ومن ثم تغلق الباب وتذهب إلى غرفتها، وبينما تفتح الهدية، تتفاجأ مما في داخلها:

-ماشي، حاضر، إيه دا؟

يخبرها مهتمًا وخائفًا:

-في إيه؟

تخبره بحدة:

-أنا قولتلك مش هقبل منك أي حاجة صح.

يحادثها مستفزًا:

-بس أنا قولت إنك هتلبسي الفستان دا بكرا.

تردف في انفعال جلّي من حدة نبرتها:

-طارق أنتَ عارف إني مبحبش الذوق دا، وكمان دا مفتوح على الجنب و مش محترم وأنا مبحبش كدا.

يردف مستفزًا لها ومتحكمًا كذلك:

-اتصرفي، بس دا هو اللي هتلبسيه، غصب عنك.

تخبره بحدة:

-متعصبنيش وقولتلك مش هلبسه يعني مش هلبسه.

بذات الاستفزاز وبرودة الأعصاب:

-هنشوف كلام مين اللي هيمشي!

تخبره بعناد:

-كلامي طبعًا، ها.

يخبرها متحديًا:

- كلامي يا جنة.

جنة بانفعال وغضب:

-قولتك كلامي، وأنا من امتى بسمع كلامك.

طارق تنفرج من ثغره ضحكة من حديثها، ومن ثم يردف ضاحكًا:

-يعني مفيش فايدة فيكِ. خلاص مصممة على رأيكِ، طيب خلاص رأيك أنتِ اللي هيمشي المرداي.

تزفر بهدوء:

-طيب.

يخبرها راجيًا:

-ممكن بلاش تعامليني بطريقتي، عشان بتضايق؟

تسأل في بلاهة:

-طريقة إيه؟

يحادثها بعطف:

-العصبية والكلام دا، ممكن؟

تخبره بنبرة طفولية:

-ماشي بس إيه الضمان؟

يخبرها مسرورًا وراجيًا:

-نكون صحاب. بصراحة خلاص تعبت، من إني أعاملك وحش، كفاية لحد كدا.

بالطبع كانت تنتظر هذه اللحظة منذ زمن، ها هو يرمي حبال الود، وترى أنه ربما ليس سيئًا كما يبدو:

-موافقة.

يخبرها شاكرًا ممتنًا:

-شكرًا.

تخبره أن ينصرف لعمله:

-طيب مع السلامة. روح شوف شغلك، نتكلم بعدين.

يخبرها ممازحًا:

-عاوزة تخلصي مني.

تخبره في ممازحة:

-أيوه، يلا روح.

الود يرمي حباله، والسعادة تتخلل الأجواء، الجميع يحظى بأجزاء من السعادة، حتى وإن كانت سعادة لحظية وحسب. المهم في الأمر أنهم سعداء وهذا يكفي. دقت طبول السعادة بأصوات عالية تكاد تخترق عنان السماء. الحب ينشر عبيره وشذا عطره في الأجواء، تلك الرائحة المخملية والهادئة تنتشر بشكل عجيب. هل تبقي السعادة أم أنها بالفعل سعادة لحظية؟

الفصل الواحد والثلاثون.
أجواء مبهجة.

اليوم الموعود .. يوم الخطبة الساعة الثامنة صباحًا.

أشعة الشمس التي تشرق بنور ربها، وتخترق بعض الأشعة نافذة الغرفة معلنة يوم جديد وحياة جديدة كذلك. فتاة مستلقية على سريرها تغفو في هناء، مدثرة ذاتها بغطائها الصوفي الدافئ، تزعجها تلك الأشعة فتسحب الغطاء على وجهها، بعد برهة يتصاعد رنين هاتفها النّقال، تضع الوسادة على أذنها في محاولة لتجاهل ذلك الرنين المزعج، ولكن هيهات فما أثقل دم من يتصل، تتأفف ومن ثم تبحث عن ذلك الهاتف اللعين، تتنقل بيدها وتبحث على الأدراج الغبية، ومن ثم تلتقط الهاتف وتضعه بلا مبالاة على أذنها، في الواقع تبدو كأميرة غجرية بشعرها القصير، وتتحدث بصوت ناعس:

-إيه دا على الصبح؟

يخبرها مؤنب:

-قومي يا كسلانة.

تخبره برجاء وصوت متعب:

-حرام عليك، سابني أنام، امبارح رجلي ورمت من كتر اللف. مع السلامة.

يخبرها متذمرًا:

-مش هتيجي معايا نشوف الزينة والمكان بقي شكله إيه؟

بصوت متثاقل وجفون ناعسة:

-الخطوبة بالليل سابني انام، ابوس دماغك، وروح أنتَ أعمل اللي عايزه، لخبط مع نفسك.

يتحدث ضاحكًا:

-بقا كدا نامي، طيب نامي.

بدون أنّ تخبره ردًا، أغلقت الهاتف وأكملت نومها بكل بساطة. ذلك الفتى لمجنون وأبله كذلك، ولكن ما العمل هو يحبها، صاحبة العيون البندقية والشعر القصير، زهرة الياسمين خاصته.

* **

..... **في مكان آخر وتحديدًا في قاعة لتحضير المناسبات والأفراح.** الكراسي المتراصة حول الطاولات في أُبهَّة، زهور البتولا المنتشرة في أرجاء المكان، زهرة الياسمين الصفراء التي أختارها لزهرة يسامينه النائمة.

فتى ممسك بالسلم الحديدي وصديقه يزين القاعة ويرتبان فيها لتليق بست الحسن والجمال.

الشخص الممسك بالسلم متأففٍ:

-يا بني أنتَ ضبط الحاجات دي كويس إيه اللي بتعمله دا؟

الشخص في أعلى السلم بسئم وضجر:

يأووه بقا أنا تعبت، تعال أنت يا نادر اطلع مكاني وأنا اقولك يمين وشمال وأرفع دي ونزل دي.

نادر ضاحكًا من حديثه:

-وبعدين أنتَ لازمتك إيه يعني؟ أرفع الورد دا ونزل الورد اللي هناك دا.

يخبره بحنق وضيق:

-بعني واشتري أرنب وخلصني وبعدين ما كنت قولت لصاحب القاعة يعمل دا كله. ولا لازم تمرمطني معاك؟

نادر ينظر له مؤنب ومؤكدًا على كلامه:

-أيوه لازم امرمطك، وبعدين دي مفاجأة لندى ومحدش يعرف غيرك علشان أنتوا صحاب، وكمان أعملها حاجة تفرحها يا أخي.

يخبره ممازحًا:

-يسلام كلكم خدتوا المزز وأنا مخدتش حاجة خالص.

نادر مستغربًا:

-مين دول كلكم يا حازم؟

حازم ممازحًا:

-طارق واتجوز جنة وأنتَ وخدت نودي وأنا مش لاقي كلبة جربانة تعبرني.

يجحده بعينيه ومن ثم يخبره ضاحكًا:

-أنتَ هتقر علينا ولا إيه؟ حاضر هشوفلك كلبة جربانة تعبرك، يلا اشتغل طيب.

حازم مشترطًا وتوقف عن العمل:

-هاتلي أكل وفطرني يلا أنا بشتغل معاك من الساعة 7 فين البريك فاست بتاعي.

نادر بانصياع:

-حاضر. بطل رغي واشتغل وأنا هجبلك اللي عاوزه.

حازم راجيًا، ومن ثم يتابع عمله:

-طيب امسك السلم كويس هقع.

نادر يزعزع السلم ويهزه بيده لتخويف الأبله الذي ضاق ذرعًا منه، ومن تأففه وطلباته الغير منتهية. حازم متمسك في السلم بكلتا يديه خائفًا أن يهوى أرضًا، يخبره بهلع وجزع:

-لا هقع يا نادر، خلاص مش عاوز أكل، وهشتغل كويس.

يتوقف عن زعزعت السلم ويخبره محذرًا:

-أيوه كدا اتعدل.

* * *

..... في مكان آخر.

يجلس في مكتبه يراجع مزيد من الملفات المكدسة أمامه، يشغل تفكيره سؤال ربما يعرف أجابته ولكنه محتار قليلًا، أعني ماذا سيرتدي في حفل الخطبة؟ فحفل خطبته كان يرتدي قميص و بنطالًا وحسب، أعني لم يكن يهتم بأي ثياب يحضره، فالعروس لم تكن على هواه وما زالت كذلك. يحرك القلم في يده، يفكر في أن يتحدث مع تلك الغبية، ربما يريد أن يتجاوز أو يحاول. يحاول أن يلملم كسور قلبه، أن يتقبل الوضع الذي أمسى فرض عليه، لم يكن يريد أيًا من هذا، أراد الزواج من حبيبته وأنجاب أطفال والعيش في سعادة وهناء وحسب. تمامًا كمَّا يحدث في الروايات الخيالية، كانت تلك حياته المثالية التي خطط لها، ولكن لا تأتي الرياح كما تشتهي السفن. يتناول هاتفه بعد تفكير مضنى ويهاتف من تدعى زوجته، فهو يريد أن تتصلح الأمور بينهما و "تعود المياه إلى مجاريها ".

ينتظر أن تجيب وبالفعل ترد عليه ولكن بنبرة كلها جفاء:

- أيوه تطلب إيه؟

يخبرها ممازحًا:

-اطلب إيه أنتَ شغالة في مطعم وأنا معرفش؟

تخبره بنبرة مستفزة:

-محتاج إيه؟

يخبرها منفعل قليلًا وحسب بنبرة يشوبها المزاح:

-إيه محتاج أيه دي قولتلك مبحبش أسلوبك دا معايا، هو أنا بشحت منك؟

تنفرج من ثغرها ضحكة دون أرادة منها:

-طيب يا طارق إيه عاوز؟

يخبرها متململًا:

-كنت عاوز أخد رأيك في موضوع كدا.

تخبره بودٍ وقلبها يرفرف، ربما لأنه الشخص الوحيد الذي اقتربت منه بهذا الشكل، أعني علاقتهم رسمية وهي التي لم تجرب الحب مسبقًا، كانت تحفظ قلبها لمن يطرق باب منزلها وحسب:

-اتفضل قول في إيه؟

يخبرها بنبرة مترددة:

-بصراحة. محتار البس إيه في الخطوبة دي؟

تخبره بحماس وسرور يظهر جليًا في صوتها:

-طيب ماشي ولا يهمك، أنتَ تلبس تي شيرت أبيض وبنطلون جينز وبليزر أسود، إيه رأيك، أصلًا هتروح ببدلة في الخطوبة مش لايقة عليك البدل، وأنتَ كدا كدا استايلك كاجوال شيك.

يخبرها ممتنًا شاكرًا:

-ماشي موافق، ذوقك حلو.

تخبره بنبرة خجولة:

-شكرًا ربنا يحفظك.

يخبرها منهيًا للحديث، لا يدري ألمه قلبه فجأة وبدون سابق إنذار:

-طيب مع السلامة اسيبك أنا أكيد مشغولة.

أنتظر إلى أن أغلقت الهاتف ومن ثم رمى الهاتف دون أرادة منه، فتح درج مكتبه، أخذ يفتش عن مسكن للألم، لم يجده فأنتقل يبحث في الدرج الآخر، بين الأوراق وجده، أخذ منه حبة واحدة وتناول كوب المياه أقصى المكتب ومن ثم مال بظهره إلى الخلف وظل يبحلق في سقف الغرفة. لا يدري لِمَ في هذه اللحظة شعر بخنجر يدب في قلبه دبٍ، ذلك الألم لم يكن مألوفًا من قبل، بالطبع هو يعاني ولكن ألا يوجد حل نهائي لمعاناته؟

* **

في وقت آخر ومكان آخر، الساعة الثامنة ليلًا.

في مكان الخطبة، جميع الحضور موجودون عائلة ندى ونادر و عائلة طارق ما عداه. أدهم وحرمه. رفقاء الجامعة أيضًا حضروا. لم يأتي طارق ولا حرمه ولا

عائلتها. الجميع ينتظر فبالتأكيد لن تبدأ الحفلة قبل حضورهم. وندى لن ترضى أن تبدأ قبل حضور توأمها.

أزهار تتدلي من سقف القاعة باللون الأزرق المخملي، الكراسي المتراصة على الجانبين باللون الأسود المزخرف بزخرفة ذهبية معدنية، الطاولات ذوات اللون الثلجي المائل للاصفرار، ينصفهم ممر الرقص الذي باللون الأسود يتدلى من فوقه أزهار صناعية بألوان مائلة للبني والأصفر. أمام الممر أريكة العروسين باللون الأزرق المطرز بالمعدن الذهبي وبجانبهم أكاليل الورد باللون الابيض وخلفهم زهور الياسمين الشتوية، أعني فيما مستقبلًا ربما، أما الآن فهم فقط ستعقد خطبتهم.

سيدة بذات بطن منتفخ ترتدي فستانًا ساترًا بأكمام طويلة باللون الأزرق الفاتح و شعر منسدل على أكتافها بشكل مموج، تلتفت إلى الجدار تراقب أحدهم ربما ولا تنتبه أين تسير؟ يسير بعكس اتجاهها شخص ما ويصطدم بها دون أن يقصد.

تستدير وتخبره في انفعال:

-مش تفتح.

ينظر خلفه ومن ثم يخبرها بكل آسف:

-أسف جدًا مخدتش بالي.

تنظر إليه مندهشة:

-حازم أنتَ؟

حازم يحك رأسه بيده ويسألها ممازحًا:

-سارة أزيك، إيه دا مين السافل اللي عمل فيكِ كدا؟

تنفرج من ثغرها ضحكة دون أن تدري وتجيب ممازحة:

-تحب أنادهَ يعملك واحدة زيها. يا أدهم.

حازم يحاول الهرب ويتصنع الخوف ومن ثم يخبرها ممازحًا:

-يا ستي أسكتي،أنا همشي مع السلامة أنا مشفتكيش ولا أعرفك من أساسه.

تخبره ممازحة بنبرة ودودةٍ:

-بس خلاص هفطس ضحك.

يخبرها جادًا مطمئنًا عليها بصدق، فهو يعلم ما كانت تعانيه بل الجميع كان يعلم بذلك:

-المهم أنتِ عاملة إيه وصحتك أخبارها إيه؟

تبتسم ابتسامة تزين محياها وتخبره في امتنان:

-زي ما أنتَ شايف، كويسة جدًا.

يتدخل شخص ما ويأخذها بين ذراعيه في حنو وحب بالغ، ليدثرها بداخله:

-كنتِ بتندهي عليا، أهو أنا هنا. في إيه بقا؟

تتركه وتنفلت من بين أضلاعه، تنظر له بخجل وتحرج مما فعله أمام زميلها ومن ثم تحمحم قائلة:

-حبيت أعرفك بحازم اللي كان زميلنا في الكلية.

أدهم يمد له يده ويصافحه برسمية:

-تشرفنا.

يغادر محرجًا ويتركهم سويًا:

-أنا ليا الشرف، معلش أنا أستأذن.

يخبره أن يذهب كما يريد:

-اتفضل، لو محتاج شغل كلمني.

يومأ له محرجًا بعد إن غادر بضع خطوات:

- بإذن الله، متشكر.

سارة بتعب وتتشبث به في وهن:

-أدهم أنا تعبت، هاتلي كرسي وعاوزة أكل البيبي جعان، ومبتبصش على البنات فاهم.

يخبرها ممازحًا ومستفزًا:

-حاضر، بس هبص على البنات.

تنزع يدها منه وتتأفف في وجهه بانفعال:

-أوف هتعصبني ليه بقا؟

يتناول يدها ويتشبث بها ويبحث عن أقرب كرسي ويضعها عليه ومن ثم يخبرها بصوت حانٍّ:

-خلاص بقا متزعليش.

..... في مكان آخر.

يقف بسيارته الفارهة متكئ عليها عاقدًا يدًا بيدٍ، أمام عمارة عتيقة في ظلمة الليل، ونجوم الثرَّى المتلألئة من فوقه، منتظر تلك الفتاة الغبية والبلهاء، يصيح مناديًا عليها مرتدي سترته باللون الكحلي وقميص قطني أبيض اللون و بنطال جينز مزرق اللون.

يخبرها صائحًا:

-يا ستي اخلصي إيه؟ هنتاخر.

تنظر له من النافذة تطل بهيئتها البهية و وجهها البشوش، وهي تعدّل من وضع حجابها:

-ثواني بلف الطرحة إيه الدنيا مش هتطير يعني!

يخبرها منفعلًا:

-يا ستي أنتِ زي القمر هي حلوة كدا انجزي بقا.

تنظر له بشك ومن ثم تنفعل عليه:

-لا مش مضبوطة ولو مستعجل كدا روح لوحدك.

يخبرها راضخًا:

-أنتِ وجع للرأس، استغفر الله العظيم، هستني.

ماذا يفعل؟ مضطر أن ينتظر لن يتركها بعد كل ما فعله لأجلها، في النهاية يجب أن يتحمل، لم يتبقى إلا القليل وكل شخص سينقلع من وجه الآخر قريبًا.

... بعد نصف ساعة ظلَّ منتظر لها، وها هي تدلف إليه بفستانها الرقيق، تتماشي برقة بالغة ما يبدو مضحكًا هو كيف تمشي بهذا الكعب العالي فلقد كادت أن تقع على وجهها ولكنه ذهب إليها منقذًا في أخر لحظة. يأخذ بيدها ويجعلها تستند عليه إلى أن يصلا إلى السيارة، يفتح لها باب السيارة مشيرًا لها بالصعود:

- اتفضلي اركبي يا سندريلا.

تتشبث بيده وتنظر إلى أسفل خائفة:

-لا مش هركب دلوقت غير لما ينزل بابا وماما.

يضع يده على وجهه متأفف ويجيب بانصياع:

-حاضر.

ينتظر برهة إلى أن يهبط حماه وحماته من أعلى منصاعًا لتلك البلهاء، وعندما رآهم هرع إليهم وتركها تستند على السيارة، وأخبرهم في ودًا واحترام:

-اتفضلوا معانا يا عمي.

والدها يخبره بودٍ ويعتذر منه:

-معلش أحنا هنروح بعربيتنا، وأنتوا اتفضلوا اسبقونا.

يذهب إليها ويفتح باب سيارته ويخبرها في حزم:

-يلا اتفضلي اركبي يا هانم.

ترمقه بنظرة محتقرة:

-طيب.

.. . تصعد إلى السيارة وتجلس في المقعد بجانبه وهو يقوم بتشغيل السيارة وبينما تسير، تنظر في المرآة وتتحرك يمنة ويسرة لترى هل الحجاب بشكل جيد أم لا؟ هل لفته بطريقة صائبة أم لا؟

يخبرها متأففًا:

-كفاية بص في المراية، المراية اشتكت منك.

تقطب حاجبيها في استهجان وبنبرة مستفزة:

-لا بقا ابص براحتي، أنتَ خليك مركز في الطريق علشان منعملش حادثة.

يخبرها متعجبًا:

-متفائلة بطريقة بشعة.

تجذب المرآة ناحيتها وتنظر وتعدل حجابها مجددًا، يمسك المرآة ويغلقها نهائيًا ومن ثم يخبرها ممازحًا وينظر لها بلؤم:

-أهو ارتحتِ.

تتململ قليلًا وتحاول فتحها ولا تتوقف عن الحركة أو المحاولة تخبره في حنق وحقد فلقد قاطع فقرة التزين خاصتها:

-ليه كدا، بتفتح إزاي دي؟

يتناول يدها ويجلسها بجانبه ويخبرها بجدية:

-يا ستي أقعدي، أهدي شوية حرام، وربنا أنزلك هنا.

ترفع حاجبيها وتخبره في استفزاز:

-متقدرش.

يضغط على المكابح ويوقف السيارة جانبًا ويترجل منها ليفتح الباب الآخر، ومن ثم يخبرها جادًا:

-أنزلي علشان اتخنقت منك.

تجلس متكتفة الأذرع وتغلق الباب وتنظر له باستعطاف تبدو مثل البلهاء بهذه النظرات:

-طيب خلاص هقعد ساكتة.

يعود مجددًا إلى سيارته ويدير محرك السيارة وينظر لها منتصرًا وشامتًا كذلك:

-أيوه كدا.

بالتأكيد لن يتركها وحدها ولكن لا بأس إن هددها قليلًا و دب الرعب في أوصالها. فمن غير اللائق أن يتركها وحدها، ففي النهاية عليه تحملها إلى أن تتغير الأمور أو يتأقلم هو معها. ربما سيبقى الحال كما هو عليه، ربما.

الفصل الثاني والثلاثون
"سنين ومرت زي الثواني "

..... الساعة التاسعة مساءًا.

يفتح لها باب السيارة ممسكًا بيدها لتستند عليه، ويدلفان معًا متقدمان إلى منصة العروسين مستقبلًا وأصدقاهم قبل أي شيء، وبالرغم أن طارق يكره ندى فقط يتحملها لأجل صديقه فكما يقول أنها حرباء وليست هينة بتاتًا، لقد احترفت الكذب والتفت حول صديقه بكل مهارة، يا لها من فتاة كاذبة وخبيثة هو فقط من يعلم الحقيقة، ويعلم جيدًا أنها أخبرت ذلك الأبله والولهان بالنصف فقط فكيف إذًا قبل بها، يا له من أبله. نفض كل ذلك من عقله عندما سمع صوت الحرباء وهي تقول:

-إيه أخركم كدا؟

يخبرها ممازحًا مشيرًا إلى حرمه:

-اسألي أستاذة جنة.

تقف بجواره تنظر إلى أسفل مطرقة الرأس، دون أن تنبس بطرف حرف. ينظر إليها ومن ثم يردف مستفزًا:

-ساكتة ليه يعني؟

جنة وتخبره بخجل أن يتوقف عن تأنيبه لها:

-خلاص يا طارق بقا.

تنفرج من ثغره ابتسامة باردة باهتة:

-ماشي.

يلوح بنظره في المكان ويرى المنظر الذي لم يحبذ أن يراه، يرى من كانت حبيبته يطوقها بين ذراعيه شخص أخر، وفي أحشاءها طفلًا ليس هو أباه، لأنه لم يقترب منها منذ زواجه من زوجته فكلما أراد الاقتراب منها كانت تبتعد وتتحجج بكثير من الحجج، على أي حال كانت تجعله ينالها فقط عندما تكون مترنحة أو فاقدة للوعي، وفي كلتا الحالتين كانت مثل الدمية بدون أي مشاعر، فعندما تكون مترنحة تسبه وتقاومه وتخبره أنه وغد، ومن ثم تخبره أنها تمزح وتخر مغشيًا عليها، ولكنه لم يحسب حسابًا لكل ذلك فيما مضى، أعني لقد أخبرته أنها تحبه وماذا بعد ذلك؟ يضع يده على قلبه يشعر أن قلبه يحترق وأن هناك نار تضرم في جوفه، يحادث ذاته مختنقًا، يحاول أن يتماسك قبل أن تفر من عيونه دمعات هاربة:

-لا أنا مش هدمع لا مش هتضايق، عادي جدًا.

تنظر له باستعطاف وتطوق ذراعه:

-مالك يا طارق، أنتَ كويس؟

ينزع يديها من ذراعه ويخبرها منفعلًا:

-مفيش حاجة قولتلك.

ومن ثم يغادر ويتركها في ذهول وتعجب من حاله. دلف إلى خارج القاعة وأختفى عن أنظارهم.

جنة تذم شفتيها وتهز كتفيها متعجبة من حاله:

-هو ماله دا مش كان كويس من شوية؟

تجذبها ندى لتجلس جوارها:

-سيبك منه يا قلبي. أحنا هنا علشان نفرح ونهيص مش علشان نكتئب، وسيبك منه دا دماغه مهوي.

نادر ينظر إلى محبوبته بهيامٍ:

-بقا القمر دا يزعل ويكتئب، اومال أنا أعمل إيه؟ اولع في نفسي.

ندى وتلكزه في كتفه:

-رخم ها.

ترى أنه من اللائق إن تتركهم بمفردهم:

-طيب استأذن أنا هروح اشوفه.

.....تتركهم وتسير بحركات وأقدام عرجاء، هذا الكعب مؤلم وغير مريح. دلفت إلى خارج القاعة، لتجده جالس في الفناء بمفرده بعيد عن الصخب، تقترب منه وتربت على كتفه مستأذنة منه أن تجلس معه:

-ممكن اقعد معاك؟

ينفض يدها بعيدًا ومن ثم يجيب منفعلًا:

-لا، وامشي من جانبي.

تجلس بجواره رغمًا عنه وتنظر له بفضول جم:

-لا هقعد وهتقولي مالك مش أحنا صحاب ولا إيه؟

يتنفس الصعداء ومن ثم يتحدث بضغينة:

-جنة بصي لما أكون متعصب تبعدي عني فاهمة!

تنهض من جواره وتهمَّ مغادرة دون أن تنبس بطرف حرف.

* **

.....في داخل القاعة يجلس نادر ببذلته الرمادية وتجلس بجواره بفستانها الرقيق وينسدل شعرها قريبًا من عناقها، يتحدثان سويًا والأجواء متوترة.

تسأله متوترة ومنزعجة:

-فين الدبل دلوقت ها؟

يخبرها محاولًا تهدئتها:

-مع حازم لما يجي.

تقطب حاجبيها وتخبره في حنق:

-بس لما يجي.

نادر بودٍ ونبرة حنونة:

-أهدي طيب أهو جاي أهو.

حازم يأتي راكضًا في منتصف القاعة ويقترب منهم لاهثًا:

-أخيرًا وصلت.

نادر ينظر له بلوم وعتاب:

-اتأخرت ليه يا عم؟

يقترب منه ويهمس في أذنه:

-كنت بفاصل مع الراجل في خمسين جنية وخدتهم.

نادر بصوت محتد:

-يخربيت فضايحك. هتفضحنا.

تتدخل ندى وتسأل متعجبة:

-هو كان فين ها؟

حازم بابتسامة بلهاء:

-كنت بفاصل ....

نادر يباغته ويكتم على فمه قبل أن يتسبب في فضحه:

-اسكت خالص، مكنتش لاقي تاكسي يا نودي.

تأخذ منه خواتم الخطوبة وتخبره في رقة بالغة:

-طيب يلا بقا نلبس الدبل.

* * *

..... في الفناء الخلفي يجلس وحيدًا بائسًا، وسط العشب الصناعي على المقعد الخشبي، سامحًا لذلك الدمع الحار أن يتدفق دون أرادة منه، يحاول أن يكفكف دموعه ولكنه لا يستطيع فيجهش في البكاء بدون سابق إنذار، دموع تنساب على ما مضى وعلى ما سيمضى، أحلامه التي احترقت، وكل شيء أراده لم يحصل عليه في النهاية. محادثًا ذاته بصوت مختلط بالبكاء:

-انساها أنا مش قادر انساها، كل اللي قالوا نسينا مش ناسيين، أنا معرفش ليه حبتها كدا، لا أنا لسه بحبها. ومش قادر انساها، انساها ازاي وكل لحظة بفتكرها، كل ثانية بتخيلها وطيفها محوطني ومش قادر افكر غير فيها، أنا بجد مش عارف أطلعها من روحي، حاسس أنها حابساني، مش عارف أنا بموت من غيرها.

ينهض من مكانه ويستعيد رباطة جأشه، يكفكف دموعه، يعدل من سترته، يدلف إليهم متصنع الصلابة ويرى الأبله والحرباء وهم يرتديان خواتم الخطبة. يقف جوار زوجته ويسحب كرسي ويجلس، وكل حين ينظر ويرمق تلك الفاتنة باللون الأزرق ويحاول ألا تهرب دموعه بغتةٍ منه حين غرة. وحين آخر ينظر إلى صديقه الأبله والسعادة تجحظ من عينيه جحظًا.

نادر محدثًا حوريته في ودٍ طالبٍ أن تعطيه يدها ليضع خاتم الخطبة:

-هاتي أيدك يلا.

تضع يدها خلف ظهرها وتخبره في عناد:

-لا عا.

ينظر معاتبًا ومحبًا كذلك ومن ثم يتحدث بنبرة ممازحة:

-مش ناقصة رخامة.

تناوله يدها راضخة له:

-طيب أهو خد.

يضع الخاتم في يدها ومن يخبرها أن تنظر إلى أعلى مشيرًا لحازم أن يكشف عن الهدية.

تتدلي من السقف لوحة مصنوعة من زهور متنوعة منقوش عليه عبارة " بحبك يا مجنونة " حلما رأتها قفزت من مكانها وهي فاغرة الفم مندهشة ومنذهلة كليًا، لا تصدق مدى فرحتها، لا تكاد القاعة تسع أجنحتها.

نادر سائلًا في رجاء:

-مفيش وأنا كمان بحبك؟

تخبره بعناد وتجلس مستكنه في مكانها:

-لا مفيش.

يخبرها مهددٍ:

-هغلي الخطوبة.

تخبره ضاحكة:

-أنتَ مجنون أحنا لبسنا الدبل وخلاص.

نادر بنفاذ صبر وينظر لها بحنق:

-ندي هتقوليها ولا الغي بجد، نفسي اسمعها منك.

تخبره في طفولة أن يقرب أذنه قليلًا وحسب، ينصاع لها مطمئنًا ومن ثم تصدر فحيح يشبه فحيح الأفعوان ومن ثم تصرخ في أذنه بكلمة "توت" كما لو كانت طفلة صغيرة وليست شابة وحسناء، يبدو أنها طفلة صغيرة حقًا. يبعد أذنه عنها ويبتعد قليلًا ومن ثم يكور قبضته وكاد أن ينهال عليها بها، ولكنه وجدها تنظر له باستعطاف وبراءة فأرخى قبضته وأردف منزعجًا:

- يخربيت رخامتك، مش عاوز اسمعها ومش بحبك ها.

هناك صوت يخبره أنها متناقضة وأنه أحيانًا يشعر أنها لا تحبه أو لا يعلم ولكنه يشعر أنها تخفي سرًا خطيرًا ربما. بالنسبة له لا يهم ما تخفيه المهم أنه يحبها،

الحب بالنسبة له كافيًا. هو مجنون وهي كذلك لذلك ينطبق عليهم المثل القائل "رزق العبط على المجانين ". أنهم معاتيه كأقرب وصف لهم.

حازم واقف أمام مشغل الأغاني " دي جي " يختار أغنية ربما قديمة نوعًا ما وليست مناسبة لهذا العصر ولا أي عصر من العصور.

"كنت فين يا علي و مرتك بتدور عليك
خيو لوين رايح بكرة. رايح بكرة ع الشاه بندر
اهلا وسهلا باللي بيحضر .خايفة عليك يا علي
ومرتك بتدور عليك "

ولكن عندما صاح به نادر أن يوقف هذا الهراء، قام بتشغيل إحدى أغاني الست أم كلثوم. وضع نادر يده على رأسه وأمره بتشغيل موسيقي وحسب بدون أي كلمات أو يخرس وحسب. ولكنه ما زال مصر على أغنية أم كلثوم. ما أنقذه هو ما جرى تاليًا.

"سنين ومرت زي الثواني في حبك انت

وان كنت اقدر احب تاني احبك انت

كل العواطف الحلوه بيننا

كانت معانا حتى في خصامنا

وازاي تقول انساك واتحول

وانا حبي لك اكتر م الاول

واحب تاني ليه واعمل في حبك ايه

دا مستحيل قلبي يميل

ويحب يوم غيرك أبدًا أبدًا

اهو ده اللي مش ممكن أبدًا "

.. أمسك أدهم يدا زوجته وأنحني وطلب منها أن ترقص معه، ناولته يدها وكانا أول ثنائي ينقذ حازم من الضرب بالنعال، ومن ثم تبعهم ندى ونادر بالرغم أنهم ما زالوا يحافظون على مسافة بينهم ألا أنهم شاركوا كذلك. ومن ثم توالت الثنائيات.

أدهم متحدثًا مع زوجته بممازحة:

-عارفة شكلك يضحك وأنتِ كدا.

تخبره بيأس وصوت محزون:

-يسلام أنا تعبانة وتقولي شكلك يضحك أنتَ لو مكاني مش هتقول كدا.

يقبل جبينها متأسفًا:

-خلاص خلاص حبيبي، متزعليش.

تبتسم له بودٍ وتميل برأسها لتستند عليه:

-طيب خلاص.

عندما رأى هذا المشهد أشتغل غيظًا و أخذ زوجته عنوة من يدها إلى الساحة:

- يلا هنرقص زيهم.

تحاول نزع يدها منه وتخبره في ضعف:

-بس يا طارق أنا ..

وقبل أن تكمل يجذبها لحضنه ويحركها كما يحرك الدمية غير مبالي بما تشعر، عيناه محتقنة بالدماء، ووجه أضحى غاضبًا، كلما رأى أدهم يقترب من حبيبته أو بالأحرى من كانت أي أنها فعل ماضي، يشدد على معصم زوجته إلى أن ألمها وكاد أن يكسر يدها وكعب حذائها في ذات الوقت.

تنظر له بعيون دامعة ذلك الذي لا ينظر إليها من الأساس:

-طارق كفاية كدا.

* * *

..تخبره بصوت واهن:

-كفاية يا أدهم تعبت وابنك تعباني بقا، يلا قعدني في أي مكان.

يتناول يدها ويطوقها بيده لتستند عليه ويجلسها إلى أقرب مقعد:

-طيب يلا بينا نقعد هناك اهو.

تتشبث به وكأنه أمانها الوحيد ومن ثم تسأله في ودٍ:

-يلا علشان تعبت، أدهم هو أحنا ليه؟ قصدي ليه خلتنا نرقص سلَّو على أغنية أم كلثوم، يعني عشان ننقذ حازم من الضرب مثلًا ولا عشان إيه؟

ينظر لها بودٍ:

-يمكن ويمكن لأني بحب الأغنية مثلًا وشايف أنها رايقة.

تبتسم له وفقط تنظر في مودة دون أن تنبس بطرف حرف، فقط عيونها تنظر له بكل امتنان وتقدير، أعني أحيانًا لا حاجة للكلام العيون تفعل فعلها. يرى ذلك المشهد الثائر ها هناك فينفعل على زوجته ويشدد قبضته على معصمها:

-يلا بينا هنمشي.

تخبره راجية:

-بس لسه أحنا...

وقبل أن تنبس بطرف حرف أو تزيد حرفًا واحدًا يجرها خلفه، دون أرادة منها، يدلف خارج القاعة. يفتح باب سيارته يرميها بداخلها. يغلق الباب جيدًا ومن ثم يقود بأقصى سرعته غير مبالي بالتي تجلس إلى جواره، بينما هي تجلس تكفكف دموعها، لا ينظر إليها و لا يهتم لها أو لدموعها، يتوقف أمام سرايته الفاخرة.

تنظر لتجد أمامها السرايا لتخبره في لوم:

-طارق رجعني البيت مش هدخل الفيلا دي.

يترجل من السيارة، يصفق الباب ومن ثم يذهب للباب الآخر يفتحه ومن ثم يجرها من يدها خلفه ويردف في غضب ووجه محتقن:

-أنتِ مش هتروحي البيت وهتقعدي هنا وهتسمعي كلامي فاهمة ولا مش فاهمة؟

تخبره في وهن ودموع تنساب من مقلتيها فيضٍ:

- يا طارق أنتِ قولتلي أننا صحاب، وأنك مش هتعمل حاجة تزعلني، مالك إيه حصل؟

يشدد على قبضته مدمدم صارخًا في وجهها:

-مش شغلك، دي حاجة بيني وبين نفسي، وطول ما أنتِ هنا هتعيشي على مزاجي أنا، ومش هتمشي ولا هتروحي أي مكان.

* * *

.....في قاعة الخطبة ساد الهرج والمرج لاختفاء طارق وزوجته في لمح البصر، والجميع وخصوصًا صديقتها وأبويها يحتل القلق معالم وجههم.

ندى تنظر لنادر في خوف وقلق:

-نادر، طارق هيعمل إيه؟

نادر يشير أنه لا يعرف حقًا:

-معرفش يا ندى.

ندى وتنظر باحتقار ناحية سارة:

-أكيد عشان ست الحسن ولحظة واحدة، إيه جابها أصلًا؟

نادر معاتبًا إياها:

-عيب بقا يا ندى، أنا عزمت أدهم وأدهم ميقدرش يسيبها لوحدها.

ندى تزفر بحنق:

- كل حاجة بسببها هي أصلًا، وأنتَ ليه تعزم أدهم من أصله وعارف أنه هيجيب الزفتة دي معاه.

يخبره هادئًا، محاول تدارك الموقف:

-خلاص بقا، هنروح نشوفهم ولا اتصلي ب جنة ولا اعملي أي حاجة.

* * *

في السرايا الفاخرة شخصان يتحدثان أو شخص واحد يتحدث بعقلانية والآخر مجنون ربما.

تخبره بوهن وعيون دامعة:

-يا طارق هعمل كل حاجة عاوزاها بس أهدي.

يصرخ في وجهها ثائرًا:

-متقوليش اهدي إيه شايفني مجنون قدامك؟

تحاول تدارك الموقف وتخبره في هدوء وتعقل:

-لا مش مجنون، شايفك متعصب وعاوزاك تهدي.

يحاول أن يقلل من حدة أنفعاله:

-جنة لو سمحتي اطلعي فوق دلوقت ومتتكلميش معايا، مش عاوز يحصلك حاجة بسببي امشي.

تخبره راجية:

-بس...

يقاطعها صراخًا:

-بقولك اطلعي فوق.

تتركه وحيدًا وتصعد إلى أعلى وبينما هي تصعد تكتشف أن كعبي الحذاء انكسرا ولهذا تعثرت بفستانها الذي أضحى طويل عليها، تلتقط أطراف الفستان تصعد إلى غرفتها أو غرفتهما، تجلس على طرف الفراش وتنفجر باكية، يقطع صوت بكاءها، رنين الهاتف النقال الذي ما لبث أن يصرعها من كثرة الرنين، تتفقد حقيبتها، تخرج هاتفها وتتفقده لتجد أن هناك ثلاثين مكالمة فائتة من صديقتها وأبويها، تكفكف دموعها وتستعيد رباطة جأشها ومن ثم يصدر الهاتف رنين بعد برهة تلتقط الهاتف وتضغط على زر الرد ليبغتها الصوت في الجهة الأخرى.

ندى بصوت خائف وقلق:

-في إيه يا جنة خضتيني أنتِ كويسة ها؟

تخبرها هادئة:

-متخافيش أنا كويسة وبخير.

ندى باستمالة:

-مامتك عاوزة تتطمن عليكِ وباباكِ كمان.

بكل ثبات تجيب:

-أديني اكلمهم.

ندى وتناول الهاتف النّقال لوالدة صديقتها، لتأخذه وتجيب في لهفة:

-جنة حبيبتي أنتِ كويسة.

تخبرها بهدوء وثبات:

-أيوه يا ماما كويسة، متخافيش عليا، أنا روحت بيتي.

والدتها مندهشة وتعتري ملامحها الصدمة كذلك:

-ازاي دا؟

جنة:

-اتصالحنا أنا وطارق وبقينا كويسين.

والدتها واضعة يدها على قلبها داعية لها:

-طيب الحمدلله، ربنا ما يزعلكم من بعض أبدًا.

تتملص منها متحججة:

-إن شاء الله، طيب يا ماما أنا هروح اشوف طارق بينادي عليا.

والدتها باطمئنان:

-روحي يا حبيبتي.

....تنتظر إلى أن تغلق والدتها ومن ثم تخلع الحذاء وتذهب لتتفقد زوجها أو ذلك المختل، ولكن للأسف لا تجده لقد هرب من رؤية وجهها القبيح، واستقل سيارته وغادر مسرعًا بدون أن يخبر أحد أين يذهب. تعود لغرفتها، تبدل ثيابها، تتوضأ وتتضرع وتصلي بخشوع داعية الله له بقلب مشفق:

-يا رب خليك معاه ممكن يعمل حادثة، ولا أي حاجة في نفسه، يا رب مهما كان مش كويس، بس يا رب احميه من كل أذي. يا رب أنا خايفة عليه، يا رب ميموتش على ذنب، يا رب خليه يرجعلك.

المحب يدعو لمن يحب، ولا يؤذي قلبًا أحبه.

الفصل الثالث والثلاثون.

ذكرى مؤلمة

خرج بسيارته يتنقل هائمًا، يهيمّ إلى محل الخمور ليرتكب أثمًا بحجة أنه يتألم ولا بد من أي سم يتجرعه فقط لينسيه مرارة ما يشعر، يتجرع حد الثمالة يقود سيارته إلى أين؟ لا يدري ربما للجحيم من يدري؟ ..**يتذكر ما حدث قبل أربع سنوات.**

الساعة الثامنة مساءًا، يجلس بجوار السائق الذي يحاول أن يتعلم القيادة، في مكان منعزل ونائي.

يخبر السائق ضجرًا منه:

-أنجي أضغطي فرامل هنموت.

تترك المقود وتبكي:

-مش عارفة، أعمل إيه؟

يضغط على المكابح ويوقف السيارة ومن ثم يهدأ من روعها:

- خلاص طيب، بتعيطي ليه؟

تشهق وتحاول أن تكف عن البكاء:

- عشان مش عارفة أتعلم.

يربت على كتفها مطمئنًا لها:

- خلاص أهدي هنحاول تاني.

تقود السيارة مجددًا ويخبرها أنه سيغفو قليلًا ولتدور في المكان وحسب، وألا تنحرف عن الطريق. بعد برهة أو هذا ما يظنه، يستيقظ على صراخها وهي تهزه وتخبره:

- هنموت الحقني.

يحاول أن يستعيد وعيه، ويستلم زمام الأمور من مقعده لينحرف بالسيارة عن عربة النقل السريع، ليصطدم بشخصٍ ما بدون قصد وقد كان قبل لحظات يصرخ في وجهها:

-أضغطي فرامل.

ولكنها تبكي وفي حالة هستيريا، يجذبها بعيدًا عن المقود ويستدير سريعًا قبل أن يلاحظهم أحد. ولكنه رأى وجه فتاة خرت مغشيًا عليها، تلاقت أعينهم لبرهة. ماذا أيعقل أنها لم تسامحه بعد هذه المدة، لقد ظلّ يعتذر لها في كل حين. ظن أنها سامحته عندما أحضر لها زهورًا وأخبرها أنه يعتذر، ربما تأخر عام على الاعتذار ولكنه كان يبحث عنها. ظن أن الاعتذار سيفيد، ربما لو قتل نفسه أمامها عندئذ ربما ستسامحه، ولكنه الآن يموت من دونها.

كلما تذكر تلك الحادثة يشعر بالاختناق و أن روحه تحترق، حاول تعويضها ودعمها و كانت فرحته لا تصدق عندما اعترفت له بأنها تحبه، و مازال يتذكر الليلة الأولى معها عندما كانت مترنحة وأخبرته أنها تتمني أن يتعفن في الجحيم ومن ثم ضحكت بهستيرية وأخبرته أنها تمزح ومن ثم غفت أو خرت مغشيًا عليها.

ما زال يدور في حلقات ويتذكر جميع ما كان يحدث، جميع الذكريات سيئة أو جيدة تتدفق إلى رأسه، يغفو قليلًا يترك المقود مستسلمًا بشكل كامل لقدره، صوت بوق مرتفع وكشافات عالية توقظه من غفلته ومن ثم يستيقظ هلوعًا يحيد عن الطريق الرئيسي ويتوه قليلًا إلى وقت غير معلوم.

* **

... تتضرع وتصلي والوقت يمضي و زوجها لم يأتي بعد، ها هي الساعة الثانية صباحًا وهو لم يظهر له أثر. تحدث ذاتها في خوف وقلق وتشعر في انقباض بداخل قلبها:

-طيب أنا أعمل إيه، طيب أكلم مين ولا اسأله عليه ولا استناه لحد ما يرجع، خلاص هستناه.

الجميع يجب أن ينال عقابه وإن كان عقاب متأخر ربما. الألم الذي يستحقه يجب أن يناله. ربما لم يكن يستحق ولكن لا بد من ذلك.

* **

..في مكان آخر.

في مخدع الزوجية سيدة تجلس على فراشها وبجانبها زوجها يتحدثان في ممازحة أو ربما يتشاجران.

زوجته تضربه على كتفه وتنظر له بعتاب:

-أنتَ كنت بتبص على البنات صح، أنا شوفتك بتبص عليهم، إيه عاجبك فيهم هاا؟

يخبرها ممازحًا:

-شكلك وأنتِ متعصبة زي القمر، بصراحة كنت ببص عليهم، علشان أقدر جمالك كويس يا قلبي.

تتناول وسادة من جانبها وتضربه بها بكل قوتها:

-عاوزة أعرف أنتَ عاجبك فيهم إيه هاا إيه؟

يحك رأسه ممازحًا:

-عليهم امكانيات يعني تهبل، قصدي تقرف يا حياتي.

تتضرب يمنة ويسرة مجددًا:

-أنتَ هتجنني، وهتجبلي السكر والضغط، حرام عليك، ربنا يهدك.

يخبرها مستفزًا وممازحًا:

-إيه يعني لما ابص على البنات، هو أنا يعني هجبهم معايا الفيلا دا أنا هبص بس.

تخبره بتأفف وانفعال:

-اطلع برا يا رامي، أنتَ مش هترتاح غير لما تموتني.

يبتسم ابتسامة تستفزها أكثر:

- ما هو أنا لو قولتلك مكنتش ببص على حد، كنتِ هتصممي برضو أني ببص على حد وهتقلبيها نكد برضو، على إيه يعني خليها نكد بالمرة.

تنظر له بعيون تحتقن بالدمع ومن ثم تسأله في بؤس:

-أنا نكد.

أدهم محدثًا ذاته متعجبًا:

-شوف هي سابت كل الكلام ومسكت في نكد بس.

يخبرها ودودًا، محاولًا أن يجمع شتات الأمور:

-لا يا حياتي، أنا اللي نكد وستين نكد كمان، أنتِ نسمة هوا حد يقدر يقول غير كدا.

تسأله مجددًا وتعيد الموضوع مجددًا بدون سئم:

-المهم نرجع لموضوعنا، كنت بتبص على البنات في الخطوبة ليه؟

ينهض من جوارها منفعلًا، محاولًا إلا يغضبها:

-أنا همشي.

تتشبث بيده وتخبره في حنق:

-استني هنا هتروح تقابل بنات؟

يجلس جوارها ويخبرها ضاحكًا:

-طيب مش طالع من الفيلا وقاعد في وشك.

تقطب حاجبيها في استهجان وتخبره في شك:

-أكيد هتكلم بنات في الموبايل صح؟

يخبرها بجدية:

-تصدقي بإيه.

تخبره هادئة، فهي تحب مناغشته:

-بالله.

يتحدث منفعلًا وينزع يده من يدها مغادرًا:

-أنا زبالة إني أتجوزتك أساسًا، ابقي تفي في وشي كل شوية لما تشوفيني، سلام، إيه النكد دا!

تنهض وراءه وتتشبث بيده وتنظر له بانكسارٍ ومن ثم كادت أن تهوى أرضًا:

-يعني هتسيبني؟

يأخذ بيدها ويحملها بين ذراعيه واضعًا إياها على الفراش، ومن ثم يخبرها محذرًا:

-بصي يا سارة كل حاجة وليها حدود، أنا بحبك أيوه وكل حاجة، بس ياريت يكون مابينا شوية ثقة، يعني مش كل شوية بنات بنات، أنا لو عايز أخونك هخونك عادي، ومش هتعرفي، وممكن اخونك قدامك عادي، بس أنا مقدرش أعمل كدا

علشان بحبك ومش عاوز ازعلك، بس أنتِ مصممة تتضايقيني، وأنا اقدر اضايقك واقولك كلام يجرحك بس مش عاوز، وأنتِ عارفة كويس.

ومن ثم يردف بائسًا:

- يا سارة أنا بستحمل أنك بتندهيني باسم أخويا وأنتِ ونايمة، ولما تكوني في حضني بتنطقي اسمه، وأهو دلوقت برضو قولتي اسمه وفي كل وقت بتعملي كدا، يعني أنا مقدرش أستحمل أكتر من كدا، أنا صدقيني بحاول وبعمل أي حاجة عشان تكوني كويسة، بس أنا طاقتي خلصت، وتعبت. رامي بالرغم أنه مات إلا أنه لسه في قلبك.

تنسدل دموع حارة من عينيها وتتكور في وضع الجنين لتدخل في حالة هيستريا، تتمتم بكلمات غير مفهومة، يتشنج جسدها، تضيق أنفاسها، تحاوط يدها على طفلها. يجري نحوها يحتضنها قبل أن تسوء حالتها أو تجهض الطفل. يتركها قليلًا يفتح كل النوافذ في الغرفة لتستنشق هواء نقي، يدثرها به ويخبرها مربتًا عليها في حنوٍ:

- أهدي يا سارة خدي نفسك، أنا أهو جنبك، يا ستي خلاص أندهي عليا زي ما أنتِ عاوزة إن شاء الله تقوليلي حسب الله حتى أنا راضي، سارة فوقي.

تخبره بصوت واهن مشيرة له بيدها إلى الدواء على يمين الدرج، يحضره سريعًا ويناولها إياه بكوب مياه بعد أن عدل جلستها، ممسدًا ضهرها ويديها وقدامها، خائفًا أن يحدث لها شيء ما. بعد أن هدأت قليلًا مالت على كتفه وأخبرته بصوت مبحوح:

- أدهم أنا أسفة، لأنك مستحمل كل دا، ممكن تطلقني وكل واحد يروح لحاله، يعني كدا أحسن للكل.

يضمها إليه ويخبرها في صوت حانَّ:

-أطلبي أي حاجة ما عدا الطلب دا وهنفذها.

تخبره بضعف:

-هاتلي أكل وشكولاتة وبيتزا.

ينظر لها مستغربًا:

-دلوقت أكل.

تميل برأسها على كتفه:

-أيوه ويلا بسرعة علشان جعانة.

يسألها مستفسرًا:

-دلوقت 2بالليل أعمل إيه أنا؟

تتركه وتعطيه ظهرها:

-اتصرف جعانة.

يضمها إليه ويعدل جلستها ومن ثم يذهب ليحضر لها مشروب دافئ:

-حاضر يا مصيبتي.

يحضر لها المشروب الدافئ ومن ثم يجلس جوارها مقبلًا يدها ومن ثم يربت عليه:

-سارة، أنا. أنتِ عارفة كويس أني بعاملك كويس، ومش بزعلك مني، بس أنتِ ساعات عليكِ تصرفات تجنن بصراحة، بتتخانقي على أقل حاجة وخلاص.

تخبره بضعف يتخلله الانفعال:

-أنتِ لازم تستحمل، طول ما أنا حامل، تستحمل تقلب مزاجي وعصبيتي، أنا بكون تعبانة، ومخنوقة ومش قادرة أتنفس أصلًا، وأنتَ مش حاسس باللي أنا فيه، كل همك تلعب بلاستيشن مع صحابك دول وسايبني لوحدي.

يضع يده على رأسه ويشعر بالدوار فيجلس بجانبها مطوقًا إياها بيده:

-مش هنخلص النهارده من البنات والبلاستيشن، يا رب أديني الصبر. بصي أنام ساعة والأكل نكنسل الأوردر تمام وأشربي مشروبك ونامي يا حياتي.

* **

..... في مكان آخر.

في منزلها الفخم، تجلس على مقعدها المفضل ممسكة بهاتفها تتفحص صور خطبتها، ولا تكاد الغرفة تسع أجنحتها وفي غمرة سعادتها، تذكرت اللعنة التي تطاردها نصف الحقيقة لا يعني معرفتك بكل الأمور كاملة دائمًا هناك أسرار مخبئة، على كل حال دائمًا ما تكون الحقيقة ناقصة، وأحيانًا لا بد أن تكون الحقيقة منقوصة.

.... **في الطرف الآخر** ذلك الأبله، الذي يبحلق للسقف ويبتسم متذكرًا فاتنته، يتقلب على فراشه من فرط السعادة، كان لا بد أن ينام مبكرًا ليصحوا لمباشرة عمله، لقد أخذ عطلة ليوم واحد وهذا فقط لأن مديره هو صديقه، يعني أن له امتيازات تميزه عن غيره. هل يطرد؟ لا أعتقد ذلك؛ بسبب صديقه ولأنه بتأكيد سيضبط المنبه على معاد العمل.

* **

..... **في ذات التوقيت الساعة الثانية صباحًا** يتحدث شخصان في صالة منزلهم وأمامهم فنجانين من القهوة.

والدتها وتنظر إلى زوجها وتسأله في شك:

-هم بجد اتصالحوا يعني؟

يعدل عويناته ويرتشف رشفة من كوب القهوة:

-الله وأعلم، هي مش خلاص روحت بيتها، وكل حاجة تمام.

تخبره في قلق وخوف:

-أيوه بس أنا قلقانة.

يربت على يدها في حنوٍ:

-متقلقيش، أنا هروح أنام ورايا شغل كتير.

تنظر له بامتنان وتأذن له أن يذهب:

-طيب روح تصبح على خير.

يسألها مستفسرًا:

-وأنتِ من أهل الخير، مش هتنامي.

تنظر له بودٍ يتخلله القلق:

-هنام حاضر.

* * *

.....**الساعة الثانية ونصف بعد منتصف الليل**.

ظلّت مستيقظة تنتظر زوجها وإذ هي تجلس وتقرأ كتابًا ما وتؤنس وحدتها، تستمع لصوت ارتطام شيء بالمياه أو ربما يكون طائر ما قد وقع في حمام السباحة الخاص بهم، تترك الكتاب من يديها وتهرع لتوقظ نجوى من غرفتها الخاصة، تطرق طرقات خفيفة ومن ثم تجد الباب يفتح بمفرده، تدلف إلى الداخل وتهزها:

-نجوى قومي في حد في الفيلا.

نجوى تستيقظ في هلع:

-في إيه يا هانم؟

تخبرها بصوت خافت وخائف:

- في حد برا. أنا خايفة.

تنهض نجوى وتمسك يدها محاولة أن تطمَّئنها:

-أنا هروح اشوف عم عبدو البواب ونشوف مين الشيء دا.

جنة تتصنع القوة وهي فرائصها ترتعد:

-يلا بينا.

يذهبان أولًا لإحضار عم عبده ومن ثم يدلف الثلاثة إلى المسبح وبحذر شديد يقتربوا من المياه ليجدوا الباشا يتخبط ويسبح في المياه وتبدو عليه آثار الثمالة، تضع يدها على قلبها عندما تراه بهذا الشكل، تنظر إلى عم عبده ومن ثم تخبره في هلع:

-عم عبدو، نجوى يلا نطلعه بسرعة هياخد برد كدا.

...عم عبده ينزل إلى المياه ويسحبه إلى خارج المسبح لتتناوله نجوى وزوجته وتساعدان في سحبه، تسنده نجوى وزوجته ويصعدن به إلى أعلى في غرفته وعم عبده يساعدهم في حمله، تضعاه على الأريكة ويتركن معه عم عبده ليبدل ثيابه. وبعد أن انتهى همَّ مناديًا عليهم ليساعدوه في حمله ووضعه على الفراش فعم عبده صحته تخونه من حين إلى آخر. بصوت متعب ومجهد:

-تعالي شوفيه يا بنتي.

تنصاع للأمر وتدلف إلى الغرفة وتساعد عم عبده في وضعه على فراشه وتقترب منه وتضع يدها على جبينه لتتحسس حرارته وتشهق في ذهول:

-إيه دا، حرارته عالية، نجوى هاتي علبة الاسعافات، هتلاقي فيها الترمومتر، هنقيس حرارته.

تذهب وتحضر علبة الاسعافات وتعطيها لها في انصياع:

-اتفضلي يا هانم.

تأخذ الترمومتر الطبي وتضعه في فمه لتقيس حرارته ومن ثم تنتظر قليلًا لتجد أن مؤشر الترمومتر يرتفع، تنظر إلى نجوى في خوف وقلق وتطلب منها أن تحضر مياه مثلجة وكمادات سريعًا:

-إيه دا معقولة 39 درجة، ليه كدا؟ نجوى هاتيلي كمادات بسرعة، يمكن تخف الحرارة دي شوية.

نجوي تنصاع لأمرها وتذهب لتحضر ما تريد، تعطيها ما طلبت وتبدأ في نقع الكمادات في المياه المثلجة ومن ثم تعصرها عصرًا خفيفًا وتضعها على جبينه وما أن تتبدل حرارة الكمادة حتى تبدلها بأخرى سريعًا.

نجوى وتربت على كتفها محاولة أن تجعلها تستريح:

-جنة هانم روحي نامي أنتِ وأنا هخلي بالي منه.

تنظر لها بودٍ:

-لا يا نجوى روحي نامي، وأنا هفضل جانبه، أنتِ تعبانة، روحي ارتاحي.

نجوى بانصياع وتضع يدها على فاها تحاول أن تمنع تثاؤبها:

-حاضر يا هانم تصبحي على خير.

نجوي وكأنها ما صدقت لتذهب وتغفو وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة منذ البرهة الأولى. وعم عبده كذلك غادر منذ أن ناد عليها لتدلف وترى زوجها.

.. تجلس بجواره ساهرة على راحته، تبدل الكمادات كل حين، لم يستفق بعد ولكنه يتمتم مهلوسًا:

-أنا مش عارف أنساكِ، أنتِ عملتي فيا إيه؟ كله بسببها هي.

تهز جسده وترتعد أوصالها، تخشى أن تتمكن منه الحمى:

- طارق مالك، فوق، ها إيه حصل؟

يتمتم بصوت مثقل ومخمور:

-أنا قولتلك متمشيش متسبنيش، خليكِ جانبي.

تبدل الكمادات مجددًا ومن ثم تفرك يده وتدثره بالغطاء لينعم بالدفء وتخبره في حنوٍ وخوف بالغ:

-أنا جانبك متخافش.

يتصبب عرقًا ويقطر جبينه حبيبات من العرق غزيرة بصوت واهن:

-أنتِ مبسوطة، أنتِ بعتيني، وأنا اللي لسه منستش بس أنتِ نسيتي.

تجلس جواره وتحاول جعله يستفيق:

-طارق، اصحي يا طارق.

يتناول يدها ويشدد قبضته عليها ويخبرها في رجاء متعب:

-خليكِ معايا.

تخبره مهدئةً له:

-حاضر. أنا معاك، مش هروح مكان، أهو معاك.

... جلست تبدل الكمادات إلى الساعة الثامنة صباحًا إلى أن أصبحت حرارته طبيعية، استيقظ رويدًا وفتح جفونه بثقل غريب ومن ثم يلوح بنظره في الأرجاء

ليجدها ممسكة بيده وتجلس على الكرسي المقابل للسرير، ينتزع يده في سرعة بالغة ومن ثم يتحدث مثقلًا:

-أنا إيه جابني هنا، وأنتِ إيه مقعدك جانبي، وليه ماسكة أيدي؟

تخبره متلعثمة:

-أنا ..

يقاطعها ويخبرها بصوت منفعل ومرهق كذلك:

-أنا مش فاكر حاجة إيه حصل؟

تخبره بما حدث له في سرد مشوق:

-وقعت في حمام السباحة وعم عبدو طلعك، وغيرلك هدومك، وجسمك كان سخن، وعملتلك كمادات، وطول الليل تهلوس.

يخبرها جادًا بصوت يتخلله التعب والإرهاق:

-اهلوس بإيه انطقي؟

تخبره بخجل وتنطلق ضحكة منها دون سابق إنذار:

-كنت بتقولي خليكي معايا.

يردف منفعلًا:

-علشان كدا مسكتي أيدي.

تنظر له في حنق وازدراء:

-على فكرة، أنتَ اللي مسكت أيدي مش أنا.

يخبره جادًا طاردًا إياها خارجًا:

-طيب اطلعي برا.

تخبره في حنق:

-إيه المعاملة دي، مفيش شكرًا مثلًا ولا معدتش عليك.

يخبرها بعصبية مفرطة وينزع قميصه أمامها:

-هغير هدومي ولا اغيرها قدامك يعني.

تركض هاربة وتترك له الغرفة واضعة يدها على عينيها ووجهها يشتعل خجلًا:

- إيه اللي عملته دا؟ أنا هروح احضرله الفطار.

..يختار ما سيرتديه لليوم ويضعه على الفراش ومن ثم يردف مفكرًا قبل أن يدلف إلى غرفة الاستحمام:

-معقولة فضلت سهرانة جانبي، أصلًا مش مهم، مش دا واجبها ولا إيه؟ وبعدين أنا كنت فاكر أني بتكلم مع سارة وأهو طلعت بهلوس.

الفصل الرابع والثلاثون

"خنس الوعد"

هبط من غرفته يعدل ثيابه، ليبدأ يوم عمل جديد ويوم حافل في العمل ليرى المصائب التي تنتظره، وبينما يهمَّ مغادرًا، تركض خلفه زوجته حاملة صينية الطعام عليها فنجان قهوته وبضع قطع من الخبز الأسمر عليه قليل من المربى وقليل من الزبدة.

تبتسم ابتسامة بلهاء وتخبره في سرور:

-طارق أنتَ هتمشي من غير فطار ولا إيه؟

ينظر لها بملامح محتدة:

-لا مش هاكل مليش نفس، والأكل منك بحاسة زي السم.

تتبدل ملامح وجهها وتنسدل دموع هاربة:

-طارق أنتَ كنت كويس وبتعاملني كويس إيه حصل؟ أنا معملتش حاجة تزعلك.

يخبرها بلا مبالاة:

-بصي أنا عملت كل التمثيلة دي عشان أرجعك، مش أكتر، فمتحلميش كتير إني أعاملك كويس تاني.

تعتري ملامح وجهها الصدمة وتسقط من يدها صينية الطعام دون قصد:

-إزاي دا كل وعودك وكل حلفانك دا كان كذب يعني، يعني أنتَ كدبت عليا وغشتني.

يمسكها من ذراعها ويشدد من قبضته عليه ويخبرها منفعلًا:

-أنا ماجبرتكيش على حاجة، وكمان مقربتش منك، كدا أحنا خالصين، وزي ما قولتي هما كام شهر وكل واحد يروح لحاله، وأنا لغاية دلوقت طارق الكويس، متخلنيش أقلب على الوش التاني علشان متكرهنيش.

تحاول أن تتملص منه وتخبره في انفعال ودموع منسدلة:

-سيب أيدي، أنا كرهتك أصلًا، وبكرهه كل يوم أعيشه معاك، طلقني يا طارق واخلص وريح نفسك، لما أنتَ مش عاوزني أعيش معاك رجعتني ليه ما كنت سابتني عند أهلي، على الأقل هكون مرتاحة.

يترك يدها ويخبرها صراخًا:

-رجعتك علشان محمد بيه كل شوية يزن على دماغي، ويقولي مراتك مراتك، إيه يعني مراتي ما تغور في ستين داهية.

تصعد على درجات السلم وتتركه، تريد أن تغادر وحسب دون الالتفات إليه، يخبرها بانفعال ونبرة أمرة:

-جنة خدي هنا رايحة فين؟

تتوقف وتنظر له ببؤس وعيون مرهقة مليئة بالبكاء:

-همشي وأخلصك مني، علشان ترتاح.

يصعد خلفها ويَثني يدها خلف ظهرها مخبرًا إياها في تحذير:

-مش هتمشي من هنا يا جنة، فاهمة ولا مش فاهمة، ودا أخر كلام عندي، وإلا هتشوفي معايا أيام عمرك ما شوفتيها.

تحاول أن تبعده عنها وتحاول الملاص منه:

-لا همشي وهتشوف.

يترك يدها ويخبرها مستفزًا:

-جنة متعنديش معايا، عامةً براحتك، أنا همشي.

ما أن ترك يدها إلى أن همّت مغادرة، ولكنه ما لبث أن أعترض طريقها:

-أنا لسه مخلصتش كلامي.

تخبره بتأفف:

-أوف إيه تاني؟

ينظر لها باحتقار وغل:

-أنا مشيت نجوى النهاردة الصبح.

تصدم من قراره وتسأل في بلاهة:

-أيوه أنا عرفت بكدا بس ليه؟

يخبرها مستفزًا:

-من غير ليه، مش هنحتاج نجوى، بما أنك موجودة، أنا هروح الشغل، أرجع الاقي الأكل جاهز، والهدوم مغسولة، والفيلا بتلمع.

تنظر له ببؤس وعيون دامعة:

-مش أنتَ بتقول أكلي زي السم، وبعدين أنتَ عاوزني أشتغل خدامة؟

يخبرها مستفزًا:

-يا حياتي، حتى لو سم هاكله علشانك، وبعدين مسمهاش خدامة اسمها دا بيت جوزي حبيبي وأحنا مش محتاجين حد يساعدنا ولا إيه؟ ولا أنتِ كان عندك خدامة في بيتكم؟

تخبره بانفعال:

-أوف طيب، يا رب ما ترجع.

يقترب منها ويلوي ذراعها ويمسك فكها ويشدد قبضته في استفزاز:

-في حد يدعي على جوزه حبيبه برضو؟

تحاول أن تنزع يده وتخبره في رجاء وانفعال:

-سيبني. أنتَ مش جوزي ولا حبيبي.

يتركها ويخبرها محذرًا:

-أنا همشي، وهرجع الاقي كل حاجة تمام فاهمة ولا مش فاهمة؟

يتركها راحلًا دون أن ينتظر منها أي رد، ويدلف خارجًا أمام بوابة السرايا ليتحدث مع البواب عم عبده. يخبره في ودٍ وصوت هادئ ونبرة مليئة بالاحترام، طالبًا في رجاء:

-عم عبدو. خلي بالك مش عاوزها تتطلع من البيت.

عم عبده يخبره في انصياع:

- حاضر يا بيه.

يشير إلى شخصان خارج البوابة مخبرًا إياه في ود:

-أنا جبتلك الاتنين دول معاك كمان علشان تساعدوا بعض.

عم عبده يخبره ودودًا مشيرًا إلى عينيه:

-أنتَ تأمر جنة هانم في عنينا.

يصعد إلى سيارته ويخبره بابتسامة هادئة:

-أنا هروح الشغل يا عم عبدو خلى بالك من نفسك ومنها.

عم عبده ملوحًا له، داعيًا له:

-مع السلامة يا ساعت البيه، ربنا يعمر بيتك يا بني.

أ ليس غريب أن يعامل الجميع بلا استثناء معاملة حسنة وجيدة؟ ما عداها يعاملها كما لو كانت نكرة أو حشرة ضارة ربما. أعني أ ليس هذا ظالمًا قليلًا؟ فالجميع يستحق المعاملة ذاتها. أراد والده أن يتغير وها هو ذا لقد تغير بالفعل وأصبح ينصاع لكل أمر يطلبه منه، طلب أن يعيدها وها هو ذا قد أستعادها، فقط يتمني إلا يطلب شيئًا أخر لأنه لن يستطيع.

في مكتبه يجلس وبجانبه الملفات المكدسة، يتحدث مع شقيقه خافيًا بقايا السجائر تحت رجليه. بالطبع يخاف من أخيه أقصد يحترمه وحسب ولن يدخن أمامه، ولو كان لوالده لن يهتم له، لماذا؟ لأن أخاه أقرب بكثير من والده، أخاه يعمله كطفل صغير ويحاول احتواءه أما أبيه فيعامله كأنه آلة يجب أن تستجيب للأوامر فقط بدون أي اعتراض يذكر.

يخبره ودودًا:

-أنا عازمك على الغدا النهاردة. عندي في البيت.

ماجد تجحظ عيناه وينفتح فاه مذهولًا:

-بجد؟

يخبره هادئًا:

-أيوه بجد يا بني، اومال أنتَ فاكر إيه؟

ماجد ممازحًا متعجب من حالة أخيه:

-أنتَ عمرك عزمتني على كوباية عصير؟

ينزل عيناه لأسفل ويخبره بنبرة باهتة:

-كل حاجة بتتغير يا ماجد.

ينظر إلى وجه صغيره المتعب ويخبره بصوت حنون مشفق:

- واتغيرت قوي.

طارق محولًا سير الأمور ليتحدث عن العمل وحسب، مشيرًا إلى الجانب الأيمن من الملفات ومن ثم يبدل نظره إلى اليسار ليخبر أخيه عما أنجزه:

-خلينا في الشغل أحسن، أنا خلصت الأوراق دي، خدها هي محتاجة مراجعة بس. و إيه الملفات دي؟ نرجعها الخزانة ولا نرجعها الارشيف؟

ماجد يخبره جادًا:

-الملفات دي قديمة وملهاش أي لازمة أصلًا، عبارة عن شغل قديم وخلص من زمان.

طارق يحك ذقنه مفكرًا:

-بس أنا حاسس إن في حاجة مهمة ومش عارف إيه هي؟

ماجد وقد همَّ مغادرًا:

-براحتك يا طارق على العموم ملهاش أي لازمة.

يستوقفه قائلًا:

-استني يا ماجد، إيه اللي في أيدك، إيه الملف الأخضر دا؟

ماجد منتظرًا يجيب بعملية:

-دا المفروض شغل للشركات المنافسة علشان نعرف الإيرادات بتاعتهم والصادرات، ولو في عندهم نقص نأخد بالنا منه، وكمان لو في غلطة عندهم وثغرة بنأخد بالنا منها دا غير أننا بندرس تعاملهم مع الموظفين علشان نكون دايمًا الأفضل.

طارق ويعطيه ملفات أخرى ويخبره عن مشكلة عويصة تقابلهم:

-خد الأوراق دي وسلمها للحسابات، وشوف الموظفين اللي محتاجين سلفة والموظفين اللي هيرجعوا السلفة أو تتخصم منهم، وكمان شوف المراتبات مالها.

ماجد محتارًا وقلقًا:

- بصراحة يا طارق في مشكلة بسيطة!

يجحده بعينيه في شك قائلًا:

-إيه هي دي؟

يخبره قلقًا:

-مراتبات الموظفين متأخرة، ومش عارفين السبب.

يضرب براحة يده على المكتب في انفعال:

-إزاي يعني تتأخر مراتبتهم، أنا هشوف مدير البنك وهعرفه شغله.

ماجد مهدئًا إياه:

-طيب اهدي وبلاش تهور، وأنا هروح اشوف نادر عمل إيه في الموضوع دا.

يتنفس الصعداء ويخبره هادئًا:

-شوف وبلغني، وأنا هخلص اللي ورايا وهمشي.

يتركه ويتجه إلى مكتب نادر ليرى ذلك الكسول الذي سيتسبب في طرد ذاته وخراب الشركة سيكون على يده، لأنه منذ أن عمل بها والشركة في انحدار.

* **

في هذا الوقت وقبل أن يدلف إليه ماجد وهو يهم أن يتحدث مع فاتنته وتاركًا العمل ينجز ذاته. يمسك الهاتف ويطلب رقمها ويخبرها في حب بالغ:

-نودي قلبي. عاملة إيه؟

تخبره بنبرة حادة:

- تمام وأنتَ.

نادر متحيرًا من طريقتها:

-إيه الطريقة دي؟

تخبره منفعلة:

-أنتَ سايب شغلك وبتكلمني، مش معاك شغل يا أستاذ؟

يخبرها محبًا وهائمًا:

-أيوه معايا، بس حبيت أتكلم معاكِ حتى لو مشغول، علشان متحسيش أن اهتمامي قل.

تخبره برقة ونبرة يتخللها السرور:

-أنتَ عارف أني عمري ما هفكر كدا، وكمان مقدرة أنك مشغول يعني.

يدلف ماجد إليه ويخبره جادًا وملامحه لا تبشر بخير:

-بتكلم مين يا نادر؟

يهتز الهاتف في يده من فرط التوتر ويخبره متلعثمًا:

-بتكلم مع أمي، طيب سلام دلوقت يا أمي.

في الطرف الآخر تسقط الهاتف من يدها من كثرة الضحك وتتقلب يمينًا ويسارًا:

- سلام يا بني.

يترك الهاتف ويقف له ويخبره راضخًا:

-أيوه يا ماجد خير.

يضع يده على صدغه شاعرًا بألم مزعج في رأسه:

-مش خير خالص بصراحة، مشكلة مراتبات الموظفين دي متحلتش لسه، ليه؟

نادر مبررًا له أن المشكلة لست منه:

-المشكلة في مدير البنك في غلطة من عنده هو.

ماجد يخبره أن يجد حلًا:

-ابعتله فاكس. استعجله إن يحل المشكلة دي بسرعة، مش ناقصين وجع دماغ.

يتركه ويسير بضع خطوات ومن ثم يردف ممازحًا:

- بالمناسبة والدتك أتصلت عليا وبتقولك رد عليها.

نادر ويكاد من فرط الخجل ينزوي في مكانه:

-حاضر.

* * *

في هذا الوقت في السرايا الفاخرة هناك من يعاني، تنفض الغبار أولًا، تترك هذا الشيء وتدلف إلى المطبخ لتضع الطعام على النار ومن ثم تعود لنفض الغبار وكنس الأرضية، تترك هذا الشيء ومن ثم تذهب إلى غرفتهم لتلملم ثياب السلطان المعظم لتضعها في المغسلة، تضع الثياب في المغسلة وتتركها وتباشر صنع الطعام، ومن ثم تضع الطعام في الفرن وتذهب لتمسح باقي أجزاء السرايا الضخمة وبعد ساعات طويلة من العمل تغفو قليلًا وتضع رأسها على إحدى الكراسي القريبة متعبة ومجهدة، تنتظر أن تجف الملابس لتقوم بكويها، لقد أيقنت كم تتعب والدتها في العمل وهي التي كانت مدللة وتفيق عصرًا إلى ماذا آل بها الحال إلى خادمة تستيقظ باكرًا وتقوم بكل أعمال المنزل.

* **

..... يدلف إلى سرايته عصرًا يجد السرايا حقًا مرتبة ونظيفة لم يكن يدرى أنها ستستمع إلى كلامه من الأساس، يلوح بنظره في الأرجاء ويجدها نائمة ورأسها متكئ على إحدى الكراسي، يدلف إلى داخل المطبخ يملأ دلو من المياه ويفتح البراد ليأخذ ما به من ثلج ويضعه بداخل الدلو. يتقدم نحوها ويسكب الدلو على رأسها بدون أي أدني أحساس.

تستيقظ بفزع وترتجف أوصالها وتردف بانفعال:

-إيه التخلف دا حد يصحي حد كدا، حرام عليك أنا لسه ماسحة الأرض دي.

ينظر لها بوجوم ويتلاشى كلامها ويخبرها أمرًا:

-أنا جعان قومي حضري الأكل، وكمان استحمي ريحتك تقرف.

تحاول أن تنزوي بعيدًا خلف الكرسي بسبب التصاق ملابسها بجسدها، تنظر له ببؤس وتخبره في انصياع:

- حاضر، تأمر بحاجة تاني؟

يتحاشى النظر لعينيها ويلتف ليعطيها ظهره، لأنه شعر أنها خجلت ربما:

- روحي غيري هدومك واستحمي الأول وحاضري الغدا، ماجد معزوم عندنا وأنا هطلع أغير هدومي أنزل الاقي الأكل موجود.

تخبره في انصياع:

-حاضر.

يتركها ويصعد إلى أعلى ليجلس في مكتبه والغرفة المجاورة لغرفته، الذي انتقال إليها منذ أن أصبحت تلك الدخيلة في حياته.

بعد أن غادر ذمت شفتيها مقلدة حديثه:

-ريحتك تقرف ها. ما كنت مسحت أنتَ وكنست وعملت الاكل إيه القرف دا هروح احضرله الطفح.

بدلت ثيابها و وضعت الطعام على "السفرة" منتظرة زوجها العزيز أن يدلف ويأكل الطعام وتنتظر ماجد كذلك الضيف الكريم والأخ اللطيف الذي تشعر بنقاء روحه، الذي كانت تتمني زوجًا مثله، محبًا ودودًا ومتفاهمًا وليس الفتى المدلل الذي حصلت عليه. يدلف إليها ويراها تجلس على طاولة الطعام فينظر لها بحدة:

-أنتِ قاعدة على السفرة ليه؟

تخبره بعيون تستعطف قلبه:

-جعانة وعاوزة أكل ماكلتش.

يخبرها لا مبالي بها وكأنها لا تنظر إليه في الأساس:

-هشوف ماجد جاي ولا مش جاي.

يتناول هاتفه ويتصل على أخيه ليرى إن كان سيأتي أم لا:

- أيوه يا ماجد فينك؟

ماجد في الطرف الآخر معتذرًا عن عدم الحضور:

-معلش يا حبيبي مش هقدر اجي على الغدا.

يسأله مستغربًا عن سبب عدم حضوره:

-ليه كدا؟

ماجد معللًا بنبرة آسفة:

-أنتَ عارف مشكلة الموظفين وأحنا بنشتغل عليها، فرصة تانية يا حبيبي معلش.

يغلق هاتفه ويضعه بجانبه ومن ثم ينظر إلى زوجته مشيرًا لها بالنهوض من على طاولة الطعام:

-أنتِ قاعدة ليه؟ روحي اعمليلي فنجان قهوة.

تخبره باستعطاف:

-طارق بس أنا...

يخبرها بهدوء ناظرًا لها بازدراء:

-مفيش بس، اسمعي الكلام.

تنهض بتأفف وتهمس بصوت مسموع حانق:

-حاضر بالسم الهاري.

يحمحم قائلًا:

-بتقولي حاجة.

تخبره بخوف:

-لا مبقولش.

وتدلف إلى المطبخ لتصنع له فنجان قهوة لعلها تكون قهوته الأخيرة

جالسًا على المائدة يحاول أن يبتلع ذلك السم الذي صنعته زوجته المصونة، ومن ثم يشرَّق في طعامه فينهض باصقًا الطعام من فمه متأففًا:

-مش واكل.

يذهب خارجًا ويجلس في الصالة الفسيحة، لتدلف إليه زوجته حاملة صينية القهوة لتضعها أمام المنضدة التي أمامه، تخبره في انصياع:

-أهو اتفضل.

يخبرها مشيرًا لها أن تنقلع من وجهه:

-تقدري تروحي تعاملي اللي عايزاه.

تتركه وتذهب وهي تردد في ذاتها:

-امتى هخلص منك؟

كانت قبل سويعات تدعو له، وقلقة وخائفة عليه، ماذا الآن؟ غريب جدًا تناقض جنس بنات حواء. أعني كيف لها أن تضمر حبًا كبيرًا وتظهر بغضًا كبيرًا بالمقابل. كانت تصلي وتتضرع من أجل سلامته وحسب، الغريب في الأمر أنه لا يحبها حقًا أعني لا يمثل بغضه أو كرهه هو بالفعل يبغضها. يكرهها بدون أن تفعل له شيئًا محددًا.

الفصل الخامس والثلاثون.

"أجواء مضطربة"

بعد مرور شهر.

مساءًا كم الوقت لا يهم.

أجواء مضطربة، وجو عاصف، رياح عاتية تصفق النوافذ، سيدة تتألم وكأنها في ألم مخاضها، الثريات تهتز، الستائر تعلن عن وجود الأشباح، أصوات متداخلة، خوف يعتري القلوب، سعادة ناقصة، وقصص ستظلّ ناقصة، حياة أو موت ستختار بينهما أجلًا أم عاجلًا.

في مخدع زوجين، الزوج نائم في أمان وزوجته تهزّه وتخبره في صراخ وألم:

-قوم الحقني بولد.

يخبرها ناعسًا:

-نامي بقا بقالك شهر بتقولي كدا ومبيحصلش حاجة.

تجذبه من ثيابه في شدة وتصرخ في وجهه:

-قوم، أنتَ مش همك، وأنا اللي تعبانة أنتَ إيه؟ مبتحسش.

ينهض في بطء وتثاقل:

-حاضر، أهو هقوم، عاوزة إيه؟

تتنفس بسرعة كبيرة وتخبره في انفعال:

- وديني للدكتور، أنتَ عندك لا مبالاة فظيعة، قوم يلا.

يخبرها بعيون مغلقة محاولًا أن يستعيد وعيه:

-حاضر قومي غيري هدومك وأنا هغير هدومي أهو.

تنظر له بإرهاق وجفون مرهقة:

-مش قادرة اتحرك تعالي قومني.

يحوم حول نفسه ويخبرها متأففًا:

-استغفر الله، وجع دماغ.

تنظر له باستعطاف و لوم:

-سمعتك على فكرة، أنتَ لو في مكاني وحاسس نفس إحساسي متقولش كدا.

يذهب جوارها ويتناول يدها ليساعدها في النهوض:

-هاتي أيدك كدا وقومي يلا.

* * *

.....في مكان آخر في هذا التوقيت.

تغفو راقدة في سريرها وإذ تصحو على صوت صفق الرياح للنوافذ التي تأكدت من أغلاقها جيدًا قبل أن تنام، الأنوار مطفأة بالرغم أنها كانت مضاءة قبل أن تغفو، ترتعد في فراشها وتدثر ذاتها في الغطاء جيدًا، تستمع لوقع أقدام تتحرك حول الغرفة و وقع أقدام يصدر من الشرفة، ترتجف أوصالها أكثر، يقترب صوت يشبه الفحيح من أذنها، صوتًا يشبه صوت الأموات، رائحة الجو تشبه عطر الأموات كذلك، ذلك العطر الرخيص الذي يباع بمبلغ زهيد الثمن، وقع الأقدام يتزايد، صوت عصى يتم طرقها في الأرض بشكل متكرر دون توقف، صوت الباب يصدر أزيزًا مزعجًا ويفتح ببطء شديد، تنخلع له القلوب وترتجف له الفرائص. تتلحف بغطائها وتردد آيات من الذكر الحكيم بصوت مرتعش:

- بسم الله الرحمن الرحيم (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد)

يصدر الباب صريرًا وتصفق النوافذ بشكل أسرع وأكثر عنفًا فتردد في هلع وخوف:

-(الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم)

يصفق الباب بشكل مفاجئ وخطوات الأقدام تقل تدريجيًا ومن ثم تتزايد أصوات أقدام أخرى تأتي مسرعة، يطرق على الباب بشكل هيستري ويخبرها بصوت منفعل:

-أنتِ يا ست هانم، سايبة الشبابيك مفتوحة ليه وتخبط ترزع؟

تنهض وتترك الغطاء هلوعة راكضةً إليه تفتح الباب سريعًا لتحتضنه في خوف دون أن تنبس بطرف حرف وتبكي في فزع. ينظر إلى وجهها الشاحب والمصفر ويخبرها هادئًا:

-مالك شكلك خايفة كدا؟

تتشبث به في وهن وخوف وبصوت مبحوح:

- سمعت صوت خوفني، من فضلك متسبنيش لوحدي، أنا خايفة.

يربت عليها في حنوٍ ويحاول نزعها منه والابتعاد عنها ولكنها بالفعل خائفة وجدًا أيضًا، يحاول أن يهدأ من روعها:

- طيب أهدي يا جنة متخافيش، أكيد الهوا فتح الشبابيك لوحدها أهدي.

تنظر لوجهه باكية، متلعثمة:

- طيب والنور المقطوع أنا بخاف من الضلمة، وبنام ولازم تكون في إضاءة جانبي، وصحيت والنور قاطع.

ومن ثم تنفجر باكية، يربت عليها ويخبرها بمواساة:

-أكيد في قفلة حصلت ولا حاجة أهدي مفيش حاجة، أنا جانبك.

تخبره بصوت محشرج:

-أنا مش هقدر أنام لوحدي، ممكن تخليك جانبي أنا مش هعرف أنام في الفيلا دي لوحدي.

يخبرها في حنوٍ ويربت عليها كما يربت على طفل صغير:

-طيب يلا ننزل تحت وهعملك حاجة تشربيها وأهو بالمرة نشوف المطبخ المتكركب تحت دا.

تسير إلى جواره متشبثة به:

-حاضر، بس هو أنت بتعرف تعمل حاجة أصلًا، أنا فاكرة أنك بتأمر وبس؟

ينظر لها ومن ثم يطلق ضحكة على كلامها:

-عادى وبعرف أعمل أكل كمان وأشطر منك، ما هي مش كيميا يعني.

يدلفان إلى المطبخ لترى أنها سهت عن تنظيف الأواني وتركت المطبخ بحال يرثي لها. تترك يده وتذهب سريعًا لتنظف كل ذلك و هو يعد لها مشروبًا دافئًا بينما تنتهي ويجلس بقربها مؤنسٍ إياها، تلك الجبانة الخائفة. بعد صمت طويل بينهما أخبرها بصوت هادئ:

-الكهربائي هيجي بكرا، ويشوف القفلة اللي حصلت عندك، وتقدري تنامي في الأوضة تاني، وممكن تنامي في المكتب ومتخافيش فيه نور يا خوافة.

ترتشف مشروبها الدافئ وتخبره ببراءة:

-حاضر، بس ممكن لو مفيهاش إساءة أدب يعني، تخليك سهران وتحرسني؟

يحاول إلا يضحك على منظرها الخائف ويخبرها في إشفاق:

- حاضر هعمل كدا.

تسير نحوه وتتشبث به، يسير بجوارها ممسك يدها في حنوٍ، يفتح لها باب غرفته وتجلس على الفراش مدثر إياها بالغطاء الصوفي، ومن ثم يهمّ مغلقًا جميع النوافذ جيدًا ويشعل جميع الأنوار، ويجلس على الكرسي بجوارها إلى أن تغط في نوم عميق، فيترك الغرفة ويذهب إلى غرفتها، ليغلق النوافذ جيدًا ويتفقد الغرفة، ويجد أنها وضعت جهاز الشحن بشكل خاطئ مما أدي إلى عطل في الغرفة، ومن ثم تتأفف في حنق وهو يردد فتاة حمقاء.

....في مكان آخر في هذا التوقيت.

في غرفة يحتلها البياض، رائحة المعقم القاتلة مجددًا، قلق يعتري الوجوه، خوف، بكاء، انهيار، ضعف، توسل، وهن، كل هذه المشاعر وأكثر تحتل تقاسيم من بالغرفة. سيدة راقدة على سرير ومدثرة بملاءة بيضاء، وسيدة تقف بالأحرى طبيبة ممسكة بأداة جهاز السونار لتطمئن على الوضع الصحي للجنين، ولكن تكتشف أن هناك دماء متجمدة تخنق الجنين أو تزحف باتجاه مشيمة الجنين لتسبب تلوث في دم الجنين أو ربما يكون جنين آخر في طور التكوين. تحتل تقاسيم الطبيبة القلق والخوف في آن واحد.

..تنظر لها المريضة بعيون باكية وقلقة:

-خير يا دكتور؟

الطبيبة بقلق وخوف بنبرة خائفة:

- سارة بجد مش عارفة أقولك إيه؟

يتدخل زوجها مستغربًا وقلقًا كذلك :

-في إيه يا دكتور بلاش تخوفيها؟

الطبيبة في حزم وجدية بالغة:

-بص يا أدهم أنا هعمل شوية تحاليل، لأني مش متأكدة بالضبط في إيه، تقدروا بعد أسبوع تشوفوا التحاليل، وأتأكد من الحاجة دي، و يا سارة مضطرة أحجزك هنا في المستشفى لحد ما نتيجة التحاليل تطلع.

سارة بخوف وتتسارع نبضات قلبها:

-في إيه يا دكتورة قوليلي مش هزعل ولا اتضايق لو في حاجة خطر عليا؟

أدهم يقترب منها ويربت على يدها بحنية:

-بس اسكتي متقوليش كدا، دي مجرد شكليات، أنتِ اللي بتخافي وخلاص.

تأخذ الطبيبة، أدهم بعيدًا وتترك سارة مع ممرضة من الممرضات. في الطرقة ذات الإضاءة الخافتة والمصابيح التي تهتز، السكون الذي يعم المكان، رائحة المعقم النتنة التي تفوح من أرجاء المشفى الخاص، أصوات أقدام تصدر صوت مزعج تزامنًا مع الصمت الخانق الذي يحيط بالمكان بهالة سوداء وشاحبة.

يقاطع كل ذلك صوت الطبيبة التي تتحدث بتوتر وخوف وتشبك يديها ببعضهما:

- بص يا أدهم، في خطر على حياة ابنك وكمان مراتك وأنا أسفة إني بقولك كدا.

يخبرها مصدومًا وخائفًا لا يدري ماذا يقول لقد هربت الكلمات من فمه أو اخرس عقله:

-إزاي دا يا دكتور، وإيه هيحصل وليه كدا؟

الطبيبة تربت على كتفه وتخبره أن يتجاسر لأجل زوجته:

-أدهم خليك مؤمن بقضاء ربنا، وأنا متأكدة إن شكي مش هيكون صح.

يجلس على الأرض خائر القوى منصدمٍ:

-وإيه هو شكك يا دكتور؟

الطبيبة بقلق ونبرة مهزوزة:

-بص يا أدهم احتمال يكون في جنين تاني واحتمال تكون كتل دم متجمدة ولو كان الاحتمال التاني أو الأول فيؤسفني أقولك أن الجنين احتمال يموت، وكمان الأم

هيحصلها نزيف وممكن تموت، وفي الحالة دي، لازم ننقذ حد فيهم، الأم أو الجنين.

يضع يده على رأسه وكأن مصائب الدنيا تحط فوق رأسه حطًا:

-إزاي يعني دا، بس أنا مش عاوز ابني يموت ولا حبيبتي كمان، أنا مقدرش اعيش من غيرها ولا من غير ابني، إزاي هقدر أقولها، أنها ممكن تخسر ابنها أو هي تموت، مش قادر اتخيل، أقولها ازاي، مقدرش اقولها.

الطبيبة وتحاول أن تعطيه أملًا يتشبث به، حتى وإن كان أمل كاذب:

-أدهم أنتَ مؤمن بربنا وأنا لسه متاكدتش، وأرجو متقولهاش الخبر دا دلوقت على الأقل.

يخبرها بنبرة محزونة وكاد قلبه ينخلع من بين أضلاعه:

- مش هقولها، كفاية أني عارف. هي مش هتستحمل أي صدمة حاليًا.

الطبيبة مغيرة للموضوع محاولة بث الطمأنينة:

-أنا كتبتلها شوية ادوية، ياريت تجيبهم لها، وإن شاء الله خير.

...يتركها ويدلف إلى غرفة زوجته التي نقلت إليها لتبقى تحت رعاية المشفى حتى إصدار نتائج التحاليل والتأكد من الأمر. يذهب بقربها بوجه شاحب، يتناول يدها ويطبع قبلة صغيرة عليها ومن ثم يحدثها بصوت مثقل مليء بالآسف:

-أوعدك مش هزعلك ولا أعصبك تاني.

تسأله مستغربة ما يجري معه:

-مالك أنا عمري ما شوفتك كدا؟

يخبرها بإجابة مغايرة لسؤالها مطمئنًا إياها:

-لا بس حسيت أني بضايقك اليومين دول.

تخبره في صوت متعب ومشاغبة كذلك:

-أنتَ عمرك ما ضايقتني، أنا اللي بستفزك، يعني كل حاجة بتضايقك بعاملها، فأنا اللي مفروض أبطل أنكد عليك.

يخبرها ممازحًا مخففًا من جو الكآبة:

- نكدي عليا براحتك يا ستنا أحنا نطول يعني، وبعدين من أمتى وأنتِ عاقلة كدا؟

تحتضن يده بكلتا كفيها وتخبره في حزن:

- عشان حاسة أنا همشي للأبد يمكن.

يحاول أن يلملم شتات ذاته ويخبرها مطمئنًا، ذلك الذي يحتاج من يطمئنه:

- متقوليش كدا يا ست حلويات، فال الله ولا فالك، وبعدين القمر دا يمشي اومال أنا أعمل إيه؟ من غيرك يعني؟ يعني مين هينكد عليا ومين هيتلخبط في اسمي و مين هيطلب أكل الساعة 2 بالليل وبعدين نلغي الطلب ونفكس وننام، ولا مين هيرقص معايا على أغنية أم كلثوم، ولا مين هيدعي عليا، ومين هيتخانق معايا عشان النسوان.

يتوقف حينًا ومن ثم يهمّ مغادرًا قبل أن تفضحه عيناه وينفجر باكيًا، غير مصدق ما سيحدث، لقد فعل الكثير من الأشياء السيئة وها هو يعاقب بشكل قاطع، ولكن أليس هذا ظلمًا لقد عوقب فكيف يعاقب مرتين؟ مرة بأخيه وهذه المرة بزوجته أو طفله يبدو أنه في ذلك الاختيار الحتمي والقاسي ولكنه يتمني إلاَ يحدث ذلك الأمر، لا يريد أن يتعرض لهذا الاختبار القاسي لا، لا يريد أن يعاني مجددًا لقد أصبح قلبه مجهدًا من كل هذه المعاناة التي يعيشها، فقد أبويه صغيرًا وتولت مربية تربيته هو وشقيقه تحت أشراف الجد الأكبر للعائلة الذي كان يمقتهم ويكرههم لأنهم يشبهون أباهم الذي في نظر جده الابن العاق الذي خالف تقاليد العائلة وتزوج من فتاة أجنبية من إحدى الدول لا يعرف أصلها ولا فصلها لتنجب له هؤلاء القذارة، كانوا في نظر جده عبارة عن قذارة وحسب. لقد سمع حديثه متنصت ذات مرة وقد فجع بهذه الحقيقة التي غيرته للأبد وجعلت كل همه المال وحسب سواء أ كان بطريقة شرعية أم بطريقة قذرة؟ لا يهم المهم أن يهدم إمبراطورية ذلك الجد القاس والمتحجر القلب منعدم الشفقة والإحسان، لقد لاعب جده بأساليبه أما أخيه فقد كان بعيدًا عن كل هذه الصراعات، بدأ بالتقرب من جده لم يفز بحبه بالطبع ولكن جعله يثق به إلى أن حطم تلك الإمبراطورية بضربة واحدة وحسب ودون أن يرف له جفن.

* **

في توقيت آخر في يوم آخر وتحديدًا اليوم التالي صباحًا.

أشعة الشمس الذهبية، النسمات الهادئة التي تداعب الوجوه، الزهور تتراقص في الأرجاء، أغنية للحب تعزف، الطيور تزقزق وتفرد جناحيها محلقة، معلنة بداية يوم جديد وحياة جديدة، الحب فقط ينتشر في الأرجاء، الطاقة الهادئة والإيجابية تملأ المكان وتفرض سيطرتها، طبول الحب فقط من تدق في هذا النهار، لتعلن عن قصة الحب الفريدة والخالصة.

نادر يجلس في مقهى بمفرده يرتشف كوبًا من الشاي، ويقرأ كتابًا ما، وإذ فجأة تقطع خلوته تلك الفاتنة التي تربعت على عرش قلبه.

تخبره بطفولة وتقتحم جلسته لتجلس بجواره:

-بتعمل إيه لوحدك هنا، أنتَ مستني حد ولا إيه؟

نادر بهدوء:

-لا مش مستني حد.

ندى بفضول:

- طيب، الشغل أخباره إيه؟

نادر يخبرها محرجًا إياها:

- الشغل تمام، هو أنا وحشتك صح، فقولتي تشوفيني صح؟

تخبره في نفي:

- لا طبعا وحشتني إيه دا؟

يجحدها بعينيه ويخبرها بشك:

-يسلام، يعني موحشتكيش؟

ندى وتعترى ملامح وجهها الخجل:

- بصراحة واحشتني.

نادر ناظرًا لها بحب:

- عارف.

تسأله بفضول:

-عارف إيه بقا؟

يتحاشى النظر لعينيها لأنها تقتله فقط بنظرة واحدة:

-إني وحشتك، علشان أنتِ كمان واحشتيني.

تخبره بخجل:

-بطل كلامك دا علشان مش هعرف أرد عليه.

يخبرها ممازحًا:

-لا مش هبطل. لأني بحبك بجد والله.

تنهض من جواره وتهمّ مغادرةً وتخبره في حنق:

- يأووه بقا.

يتناول يدها قبل أن تغادر ويهمَّ واقفًا راكعًا على ركبة واحدة، ويخرج من جيبه خاتم صغير به زهرة الياسمين ويخبرها راجيًا:

-تتجوزيني؟

تضع يدها على وجهها في خجل والفرحة ترفرف في قلبها وفي ذات الوقت متعجبة من ذلك المجنون الذي معها، والذي تحب جنونه بالمناسبة:

- إزاي دا؟

يتجمهر الجميع حولهم ومنهم من يصفر ومنهم من يهتف له ومنهم من يخبرها أن توافق.

نادر متألمًا:

-وافقي بقا رجلي وجعتني.

ندى تهز رأسها بالإيجاب وتنسدل الدموع من عينيها من شدة ما تشعر به من سرور وغبطة:

-موافقة، موافقة.

يعدل من جلسته ويأخذها في حضنه بكل حب:

-أخيرًا.

بدأت الناس من داخل وخارج المقهى تصفق لهم ومنهم من أتى بقصاصات ورقية ونثرها عليهم ومنهم من نثر زهورًا عليهم في بهجة وسرور ومباركات من الشباب والفتيات كذلك:

-الف مبروك.

مبررًا موقفه الذي فعله للتو:

- الله يبارك فيكم، دي خطبيتي على فكرة.

تتملص منه وتضربه على كتفه ضربة قوية:

-ينفع كده فضحتنا.

يخبرها محبًا وهائمًا في بحر عينيها أو سحر عينيها:

-هو الزواج فضيحة، ولو فضحية يا ستي أنا موافق.

ندى وتخبئ وجهها في خجل:

-رخم ومجنون.

يحدثها بكل حب وشغف وجنون:

-وبحبك.

الفصل السادس والثلاثون

الوجه الآخر.

...بعد أسبوع.

في صباح يوم هادئ أوه ليس هادئًا بالمرة، صباح قاس، وممتلئ بالأحداث المشتعلة، صراعات كثيرة، أخبار سيئة ومحبطة، دموع تذرف، و وجوه أخرى تسقط أقنعتها، الخوف من الخسارة والفقد، التوتر يجتاح المكان ويفرض هيمنته بقوة، والآن دق ناقوس الخطر ولتشتعل الحرب، ماذا لا وجود للحرب ولا وجود للحب كذلك، أنت دائمًا معرض للفقد أو الخوف.

تبحث عنه في غرفته فتطرق عدة طرقات فلا أحد يستجيب، فتدلف إلى الغرفة لتجد فتاة نائمة في فراشه، تغلق الباب سريعًا وتذهب إلى غرفة مكتبه. تقف أمام مكتبه تطرق طرقات خفيفة لتستأذنه أن تدخل، فالأمر مُلّح، تقف أمام الباب خائفة من ردة فعله فهو ما يلبث أن يكون جيدًا حتى تجده قد تحول سريعًا لشيء تبغضه وتمقته وتكره كل ثانية وكل هواء يتنفسه.

ترتجف أوصالها وتخبره في خنوع:

-ممكن أدخل؟

يأذن لها أن تدخل:

-اتفضلي.

تلف مقبض الباب لتدلف منزوية على ذاتها خائفة، تصك قدم بقدم:

-طارق ممكن أروح لماما هي تعبانة قوي وأنا لازم أكون جانبها. من فضلك؟

يعدل من جلسته ويخبرها باستفزاز:

-لا مش هتروحي وهتفضلي هنا.

تنسدل الدموع من عينيها بغزارة كأنها المطر بعد الجفاف، تحاول أن تستميل قلبه، ولكن منذ متى وهو يهتم لدموعها من الأساس:

-يا طارق حرام عليك كفاية بقا، أنا تعبت وزهقت، أهو أنتَ مبسوط علشان أنا بتعذب، أنا موافقة أنك تعمل كل اللي عاوزه بس سابني اروح لماما، أبوس على أيدك يا طارق، هروح أشوفها وأرجع على طول.

ينهض من مقعده ويتجه نحوها بخطوات ثابتة ونية خبيثة:

-يعني أخد اللي أنا عاوزه.

تسأله في بلاهة عن ماذا يقصد:

-قصدك إيه؟

يقترب منها أكثر بقصد أخافتها، تلك الجبانة الخائفة:

-قصدي إنك مراتي وأنا لغاية دلوقت مخدتش حقوقي ولا دا مش حقي برضو؟

تخبره بخوف وصوت محشرج من البكاء وارتجاف أوصالها:

-يا طارق أنتَ، مينفعش، وليه كدا حصل إيه؟ أنتَ قولت أنك مش هتقرب مني أبدًا.

يتحاشى النظر إليها ويخبره بنبرة جامدة:

- وأنا غيرت رأيي دلوقت.

تخبره بانفعال:

- وأنا مش موافقة يا طارق ومش هخليك تلمس شعرة مني.

ينظر لها باحتقار وبصوت هادئ:

-هو دا شرطي لو عاوزة تشوفي أمك.

تنظر له بقرف واشمئزاز:

-عارف أنتَ تقرف لما ببصلك ببقي عاوزة أرجع عارف يعني دا، أنتَ مقرف، أنتَ عامل زي الحية اللي بتبخ سم.

يقترب بضع خطوات أكثر ليجعلها تبتعد وتلتصق بالحائط:

-السم دا من أكلك يا حياتي، وعلى فكرة أنا لو عاوز المسك هلمسك غصب عنك ومش هتقدري تعملي حاجة، أنا بس سيبك بمزاجي.

بذات النظرة المشمئزة وملامح الوجه الممتقعة:

- أول مرة أعرف أنك بالقذارة دي.

يضيق الحنق عليها ليصبح وجهه أمام وجهها ويخبرها هادئًا مستفزًا:

-واديكِ عرفتي وعلى فكرة أنا ممكن أربيكِ على الكلمة دي.

تزيحه بيدها وتبعده عنها وتنفجر صائحة في وجهه:

-ملعون أبو العقد اللي خلاني اتجوزك، أنا مش عاوزاك أنتَ وافقت ليه خنقتني؟ كله بسببك أصلًا وسبب طيشك، عملت لعبة وعقد عرفي مزور صح من غير ما أعرف وهددتني، ودمرت حياتي، ولما روحت اطلب مساعدة من أبوك دمرني أكتر وعمل عقد جواز رسمي، وجوزني لأكتر حد بكرهه في حياتي، وأنتَ طبعا بتنتقم مني علشان أبوك خلي حبيبتك تبعد عنك وتسيبك، واتجوزت حد غيرك مش كدا، وأنا بقا اللعبة بتاعتكم كل شوية تعذبوا فيها صح ها انطق؟

غلّت الدماء في عروقه وقام بلطمها على وجهها إلى أن وقعت أرضًا من شدة الضربة وصرخ غاضبًا:

-أيوه صح. وأنا بكرهك ومش هبطل أكرهك أبدًا.

تنهض وتخبره في انفعال وقد ضاقت ذرعًا منه:

-أكرهني أكرهني مش عاوزك تحبني أصلًا عاوزاك تفوق. وشيطانك دا يهدي، أنتَ السبب في كل حاجة وأنا مش ذنبي، وأنا همشي خلاص تعبت، و يا رب أموت بقا وأخلص منك علشان أنا تعبت.

تتركه وتركض هاربة ودموعها تنسدل على خديها، تركض بأقصى سرعتها، تظن أنه سيأتي خلفها كما تقرأ في الروايات الخائسة، ولكن لم تحذر، هو بالفعل لا يطيقها، ما يفعله ليجعلها تهرب وتنقلع عن وجهه وحسب، أعني إن أراد شيئًا هل سينتظر أن يأخذ أذنها مثلًا أو هل يتحجج بموضوع تافه كهذا بالطبع لا. يعود ليجلس على مقعده ليباشر أعماله الناقصة، قبل أن تأتي تلك الطفيلية، هكذا بكل هدوء.

ما زالت تركض إلى أن وصلت إلى البوابة الحديدية و وجدتها مغلقة، ذهبت تبحث عن عم عبده ليفتح لها البوابة، تبحث مثل المجاذيب، تظنه خلفها وهو مسكين يجلس في مكتبه. تصطدم في أثناء بحثها بالذي تبحث عنه، يخبرها مهدئًا من روعها:

- في إيه يا جنة هانم؟

تخبره بصوت محشرج ودموع تنسدل بلا توقف:

-عم عبدو ... ماما تعبانة سابني امشي، افتحلي البوابة.

عم عبده مترددًا:

-بس طارق بيه.

تتشبث بيده وتخبره في استمالة لقلبه وعطفه:

-اعتبرني زي بنتك يا عم عبدو، ولازم تروح تشوف أمها، ماما تعبانة قوي وطارق دا ربنا يصلح حاله.

يذهب ليفتح لها البوابة ويخرج من جيبه نقودًا ويعطيها لها، فلقد سمع صراخ الباشا عليها وصراخها عليه كذلك والنقاش المحتد، داعيًا لوالدتها بالشفاء جهرًا، وداعيًا لها سرًا:

-روحي يا بنتي، وأمري لله، مقدرش أمنعك، ربنا يشفيها ويعفيها يا رب.

تخبره ممتنة:

- متشكرة جدًا يا عم عبدو.

وتدلف خارجًا، لتذهب إلى منزل أهلها لترى والدتها المريضة، لتكون بجوارها.

* **

. في هذا الوقت في مكان آخر.

ممددة على السرير مغطاة بالملاءة البيضاء وبجانبها زوجها ممسكًا بيدها، الطبيبة ممسكة بأوراق التحاليل تنظر لها في قلق وقد تأكدت شكوكها.

الطبيبة بخيبة أمل:

- أدهم للآسف شكي في محله، أنا أسفة.

تشدد زوجته على يده تنطلق ضحكة من ثغرها ومن ثم تنسدل دموعها:

-في إيه يا أدهم؟

يخبرها مطمئنًا لها:

-مفيش حاجة يا دكتور صح. شكك أنه مفيش حاجة.

يتركها مع ممرضة ما ويدلف بالطبيبة خارجًا، بعيدًا عن زوجته، لأنها لن تتحمل أي صدمات يكفي ما بها ويكفي ما تعانيه حتى الآن.

أدهم باضطراب وخوف ومشاعر مختلطة:

-دكتور سهام، أنا مقدرتش أقولها حاجة وبلاش نقولها دلوقت أنا خايف عليها. الصدمة من أنها تعرف هتكون كبيرة عليها.

الطبيبة سهام بكل آسف:

-أحنا مضطرين للآسف يا أدهم نحجزها النهاردة، وهنخليها في أوضة فائقة العناية لأنها هتعمل العملية بكرا وللأسف مش عارفين هتنجح ولا لا؟

يخبرها غير مصدق أو لا يريد أن يصدق:

-أنتَ بتقولي إيه؟ لا، العملية هتنجح وهي هتعيش وكمان ابني.

الطبيبة تربت على كتفه وتخبره بإشفاق :

- بص يا أدهم أنا هسيبك تفكر النهاردة، بس لازم تختار ما بين ابنك أو مراتك، وفكر كويس أنا عارفة إنه صعب عليك، بس مش بأيدي حاجة.

يخبرها منفعلًا متخبط الفؤاد:

-أنا كنت بجيبها هنا على طول، طول فترة حملها ليه مقولتيش الكلام دا قبل كدا؟

الطبيبة في عجز وخوف:

-علشان مكنش في أعراض يا أدهم.

يخبرها غاضبًا منكسرًا:

-ازاي يعني مكنش في زفت، أنتِ مش حاسة بيا، مش حاسة أني بموت بس كل ما أفتكر أني هختار ما بين ابني ومراتي.

الطبيبة تخبره في دعم وأن يتنفس الصعداء:

- أدهم أنتَ لازم تكون أقوي من كدا.

تدلف إليهم زوجته بعيون دامعةٍ:

- حبيبي هو في إيه، أنا كويسة صح؟

يركض إليها لتستند عليه ليضعها على أقرب مقعد:

-أيوه يا حبيبي كويسة وأحسن من أي حد كمان وهتكوني كويسة، بس أحنا هنقعد هنا في المستشفي حبيبي، علشان هنعمل تحاليل كمان.

تخبره باكية وصوت محشرج:

- متكدبتش عليا يا أدهم، أنا عارفه أني هموت، متكدبتش.

يجلس جاثيًا تحت قداميها، تتكور الدموع في ملقتيه يخبرها ممازحًا:

-لا طبعا تموتي إيه دا أنا أديكِ عمري كله. وأنا في داهية عادي.

تخبره باكية، وخائفة كذلك توصيه وصيتها الأخيرة ربما:

-متسبنيش، بص لو مت عيش حياتك وأتجوز وربي ابنك، أنا عارفة أنك هتختار حد فينا يعيش، أختار ابنك متختارنيش أنا.

يكفكف دموعها بيده ويخبرها مطمئنًا لها:

- لا هتعيشي وهتربي ابننا أنا مقدرش استغني عنك مهما حصل، أنتِ حياتي.

تتدخل الطبيبة بينهما:

- سارة من فضلك بلاش تعيطي ولا تتعبي نفسك، دا بيأثر على صحتك أكتر.

تكفكف دموعها وتخبرها في انصياع:

-حاضر.

تأخذها الطبيبة بعيدًا عنه لتظل تحت رعايتها، بينما هو يجلس جاثيًا مكانه، يتذكر كل الأحداث السيئة، معاملة جدهم لهم وأنه كان يجعلهم يأكلون بقايا الطعام وفي أواني الكلاب وغير ذلك كان يضربهم بالسوط هو وأخيه وحسب وليس جميع أولاد العائلة الموقرة، كان يضعهم خارجًا في الليالي المطيرة والباردة لينخر البرد عظامهم فقط لأنهم أبناء الأبن العاق، أصيب أخوه بفوبيا لدى تناول الطعام المقرف على مرات متتالية وأصبح هزيلًا وضعيفًا، وكاد أن يموت في يوم ما لولا تدخل عمتهم التي رقت لحالهم وتوسلت وركعت لجدهم أن تأخذهم لتربيهم ولن يتكفل أحد بأي شيء فقط أرادت أن تأمنهم من البطش، ولكن الجد أخبرها أنها يمكنها أن تأخذ الفتى المطيع والهزيل بأي حال سيموت قريبًا ومن ثم ضحك وقال: أما ذلك الولد المشاغب والمتمرد فسيبقى هنا إلى أن يتأدب. الأوغاد! لقد فرقوا بينه وبين أخيه، وأصبح يعاني بمفرده، واشتد الحصار عليه لأنه فتى متمرد وكلما تمرد أكثر زادوا الحنق عليه أكثر ولكن على الأقل يعرف أنه في مكان أفضل، و يا للحظ عندما اجتمعا فرقهم القدر للأبد.

* **

..... في مكان آخر

في توقيت آخر

فتاة تقف أمام شقة في عمارة ما، وتطرق طرقات متتالية وسريعة، تنتظر قليلًا إلى أنّ يأتي أحد ما من الداخل وتخبره أن يفتح لها، وعندما فتح الباب لها سألته عن والدتها في خوف ودلفت سريعًا إلى غرفة والدتها لتراها راقدة في سريرها يبدو عليها الأعياء والوهن والضعف.

ترتمي في حضنها باكية:

-إيه حصل بس يا ماما، أنتِ كنتِ كويسة وبخير؟

والدتها بصوت متعب:

-أنا كويسة أهو وتمام إيه بس اللي جابك على ملا وشك بس؟

تنظر لها بعيون دامعة وتخبرها في إصرار:

-كويسة إزاي بس لا أنا مش هسيبك؛ غير لما تبقي كويسة.

والدتها في وهن:

-مش عاوزة اتعبك معايا.

تتناول يدها وتقبلها وتنظر إلى أبيه مؤنبة:

-تعبك راحة يا ماما أنا مقدرش اسيبك وأنتِ كدا، عاجبك كدا يا بابا؟

والدها مبررًا لها:

-لا مش عاجبني طبعًا، وهي مش بتخليني اساعدها علشان كدا تعبت فجأة.

تخبرها في طفولة وإصرار:

- بس خلاص أنا هقعد واهتم بيكِ ومليش دعوة.

والدتها قلقة أن تكون تشاجرت مع زوجها مجددًا:

-طيب براحتك، بس زوجك موافق؟

تخبرها مغيرة للموضوع، تهمّ بالنهوض لتحضر لها أي طعام تتناوله:

- أنتِ نور عيني أسيبك إزاي بس، طبعًا ماكلتيش صح، أنا هروح المطبخ اعملك شوية شوربة وأنتِ هتبقي زي الفل، موافق يا ماما، دا حتى هو كان عاوز يوصلني بنفسه.

... تتركها وتدلف إلى المطبخ لتصنع لها حساء شهي وطيب، ولن تخبرها أن زوجها تشاجر معها، ليس وحالتها الصحية غير مستقرة، عندما تستقر حالتها أو تطيب ربما ستخبرها، وربما لا.

الفصل السابع والثلاثون

رائحة الموت.

.... يوم العملية.

رائحة المعقم القاتلة تفوح في الأرجاء، ورائحة الموت كذلك. الخوف، الموت وجهان لعملة واحدة، عندما تخاف سيدركك الموت أينما تكون، أستعد لتذوق مرارة الفقد، الآن وفي هذه اللحظة، لا مزيد من الأسرار، لقد عرفت أكثر مما ينبغي لك أن تعرف، والآن النهاية الحتمية التي تستعد أن يخطوها القلم أمام عينيك.

في طرقات المشفى يتراكض الممرضين في خوف وقلق، تتجهز غرفة عمليات فائقة الدقة، فريق مدرب وجاهز للحالات الطارئة.

في غرفة العناية، راقدة وسط الأجهزة، يجلس زوجها ممسكًا يدها وهي تبكي خائفة:

-أنا خايفة يا أدهم.

يربت على يدها مطمئنًا لها:

-متخافيش كل حاجة هتكون تمام متخافيش.

تنظر له ببؤس وعيون دامعة:

-أنا عارفة أني هموت هنهرب ليه من الحقيقة دي؟

يقترب منها ويضع يده بحنوٍ على فاها لكي تصمت:

- شششش متقوليش كدا مش هتموتي وهتعيشي وابننا كمان هيعيش.

تشدد على قبضته وتخبره في رجاء:

-أدهم أوعدني أنك تختار ابنك، أوعدني، أنا هكون مبسوطة لو مت ساعتها.

تتكور الدموع في مقلتيه ويخبرها في يأس:

-سارة أنا مقدرش أعيش من غيرك، ومش هقدر أوعدك بحاجة دلوقت.

تزيح وجهها للناحية الأخرى وتخبره في بكاء مكتوم:

-أدهم أنا عاوزاك تعرف بس أني بجد في الفترة اللي فاتت حبيتك، لو أنتَ كمان بتحبني، أختار ابنك يعيش، لو بتحبني.

يطلق تنهيدة بكل قهر:

-حاضر.

... تتدخل الطبيبة وتخبره بأمر ورجاء في نفس الوقت:

-أدهم من فضلك عاوزك برا.

تشير للممرضات للتأهب والاستعداد:

-جهزوا غرفة العلميات حالًا.

الممرضات في صوت واحد ويذهبن بسرعة لأداء عملهن:

-حاضر يا دكتور.

تتشبث به في وهن وتخبره في رجاء بعيون أرهقها البكاء:

-أدهم متسبنيش يا أدهم أنا خايفة.

يترك يدها دون أرادة منه:

-متخافيش يا حبيبتي هتكوني بخير.

الطبيبة في تحذير هذه المرة، لقد ملّت من عصافير الكناري، الذي يعتقدون أنهم في مسلسل وستجري الامور كما يريدان، لا يعلمان أن كل شيء يحدث قدريًا ومحتم:

-أدهم لو سمحت تعال برا.

يدلف خارجًا ويرى الضوضاء وتراكض الممرضات والممرضين في أرجاء المشفى، يجلس على المقعد خائر القوى.

الطبيبة في عجل:

-أدهم دلوقت لازم تختار خلاص مفيش وقت.

يخبرها منهار خائر القوى:

-دكتورة أنتِ إزاي عاوزاني أختار ما بين ابني ومراتي، مش قادر أختار إزاي يعني أضحي بحد فيهم؟

تربت على كتفه وتخبره في إشفاق وقلق:

-أدهم مفيش وقت للكلام دا، لازم قرار.

يفكر كثيرًا بالوعد الذي قطعه لعمته، وكذلك يفكر إذا كان الطفل طفله حقًا، تتصارع الأفكار في عقله ومن ثم يتنهد قائلًا:

-انقذوا سارة، أنا مقدرش أعيش من غيرها.

الطبيبة تحاول طمأنته وأعطاه أملًا حتى لو كان كذبًا:

-أدهم أنا هعمل كل اللي اقدر عليه علشان انقذهم هما الاتنين، بس قول يا رب.

يزفر في ألم قائلًا:

-يا رب.

تهمّ الطبيبة بالمغادرة فيستوقفها قائلًا:

-دكتور خلي بالك منها.

توماً له بأنها ستفعل ذلك وتتركه لتدلف إلى غرفة العمليات.

الطرقات خالية وأغلب الممرات مظلمة. الصمت يحتل المكان.

أصوات ضحكات لأطفال صغيرة، رعب يبث في القلوب.

حركة بطيئة بالتصوير البطيء، أناس يسيرون مثل " الزومبي" الموتى الاحياء غير متزنين، الهالات السوداء تحت أعيناهم، الضغط العصبي والنفسي الذي يجعل وجوههم مثل جثة تعفنت منذ ثلاث أيام وربما خرج قليلًا من الدود منها. المشفى يفوح منها الرائحة القاتلة الخاصة بالمعقم الذي يكتم الأنفاس. تلك الرائحة النتنة، التي تشمئز لها الانفاس وتقَّئ منها الأرواح. إذا أردت قتل أحد ما خنقًا، خذه لأي مشفى وستتكفل رائحة المعقم بقتله. توتر الاجواء، التوتر يحتل المكان. صوت أقدام المارة أصبح رتيبًا. الطرقات الخالية. الأشباح التي تطوف بعد منتصف الليل. الرائحة القذرة مجددًا. سكون يرعب أقسي الرجال واعنفهم. المشهد ذاته يتكرر مجددًا ولكن هذه المرة هو بمفرده لا أحد يستند عليه. لا أحد يرمم كسره، فقط يعاني بمفرده بدون أي كتف يستند عليه. يجلس واضعًا يده على رأسه إلى أن تأتي مجموعة أطفال صغيرة، يتحدث أحدهم في فضول ويربت على كتفه:

-عمو أنتَ كويس، طيب أحنا بنلم تبرعات أديني يديك ربنا.

تنفرج من ثغره ضحكة تتشبع بالدمع:

- طيب أستنوا.

يخرج من جيبه محفظة نقوده ويعطيهم ما لديه من نقود، يفغر فاهم ويقولون في صوت واحد:

-عمو أنت متأكد، أحنا محدش أدنا جنيه حتى؟

يخبرهم بودٍ:

-أيوه متأكد.

يتحدث أحد الأطفال ويجلس بجواره:

-عمو هو أنتَ هنا ليه؟

يخبره بودٍ، مشيرًا إلى غرفة العمليات:

-مراتي في الأوضة دي وحالتها خطرة وأنا هنا مستنيها.

يربت على كتفه أحد الأطفال:

-بص يا عمو، في الحالة دي المفروض أنك تروح تصلي وتدعي ربنا.

يخبره محرجًا:

- بص يا بني مش عارف أجبهلك أزاي، بس أنا مبعرفش أصلي أزاي؟

يصفق أحد الأولاد وجهه بيده:

-مش عيب عليك راجل شحط وكبير ومش عارف تصلي.

يطلق ضحكة من ثغره:

-ماشي، مقبولة منكم، طيب بما أنكم ناصحين كدا، ما تعلموا عمكم الغلبان دا وتكسبوا ثواب.

يضع أحدهم يده أمامه ويخبره أن ينتظر سيعودون سريعًا:

- بص يا عمو أستني، هنروح نجيب إياد من غرفة الغسيل الكلوي وراجعين هو يعرف أكتر مننا أستني متمشيش.

* **

..... في غرفة العمليات. الوضع متأزم. القلق ينخر في الفرائص، الخوف من الفشل أو فقدان الطفل والأم في المحاولة البائسة لإنقاذ كلاهما. ترقد على السرير ممددة حولها الممرضات، والممرضين، وفريق مدرب على الإنقاذ والإسعاف السريع. كشافات بيضاء مزعجة تضيء في عينيها، الطبيبة تخبرها في استعداد:

-سارة حبيبتي مستعدة؟

تخبرها في وهن:

- مستعدة.

الطبيبة في صارمة:

-دكتور شيماء اديها حقنة البنج.

تنصاع طبيبة التخدير للأمر، وبكل دقة تنفذ الأمر لأن أي خطأ ولو صغير قد يعرض المريضة للخطر، وقد يتأثر الجنين والأم، إذا كان تركيز المخدر كبيرًا قد تموت الأم فورًا. تغيب ببطء وتغلق عينيها في استسلام لما سيحدث سواء أ كان جيدًا أم سيئًا لا تهتم.

الطبيبة مشيرة إلى طاقمها الطبي في إصرار وتشجيع:

-أحنا لازم ننقذ الأم والطفل، أنا عارفة أن دا ممكن يكون مستحيل بس أحنا هننحقق المستحيل بعون ربنا.

* * *

.....في مكان آخر. في مثل هذا التوقيت.

أجواء هادئة، وحب ودفء في الأرجاء، منزل دافئ يفوح منه رائحة الطيب والصفاء والنقاء، الابتسامات توزع بلا مقابل، والازهار تتفتح بدون أي مجهود.

تدلف إلى غرفة والدتها وتخبرها في شقاوة ومشاغبة. تقترب منها في حنوٍ:

-إيه القمر عامل إيه النهارده؟

والدتها في امتنان:

-الحمد لله أحسن من الأول.

تخبرها في مشاكسة ومناغشة:

-أيوه كدا. علشان بتاخدي الدوا وبتاكلي كويس.

والدتها في ودٍ وصوت متعب:

-أنا بقيت كويسة وأنتِ لازم ترجعي لبيت جوزك يا بنتي مش عاوزة اتعبك أكتر من كدا.

تخبرها في إصرار:

- بس أنا مش هسيبك لوحدك وأرجع، أنتِ لسه متحسنتيش.

والدتها وتنظر لها بشك:

-هو اتخانق معاكِ تاني ولا إيه؟

تخبرها نافية تتحاشى النظر إليها:

لا يا ماما...

تقاطعها وتأخذ يدها لتربت عليها وتخبرها في حنوٍ:

- متكدبيش عليا.

تنكس رأسها في خجل:

أيوه اتخانق معايا تاني، ومش هرجعله.

والدتها محاولة تدارك الموقف:

-يا بنتي دا جوزك مهما كان وهتعيشي معاه طول حياتك، وعليه حق عليكِ، ومهما زعلتوا من بعض هتتصالحوا والحياة هتمشي.

تخبرها ببؤس وانصياع:

-يعني أنتِ عاوزني أرجعله حاضر يا ماما هرجعله، بس لما هتبقي كويسة بس هرجع.

والدتها تقلب كفً بكفٍ:

-مش هتبطلوا لعب العيال بتاعكم دا ولا إيه؟

تخبرها في انصياع وتتملص منها متحججة باحتراق الطعام:

-حاضر يا ماما، أنا هروح أشوف الأكل على النار هيتحرق.

..... تترك والدتها وتدلف إلى المطبخ لترى الطعام الذي تركته لينضج وكاد أن يحترق يتصاعد رنين الهاتف الأرضي في منتصف الصالة، تذهب سريعًا لترى من ذلك المزعج الذى لا يكف عن الرنين.

ترفع سماعة الهاتف، وتجيب في حزم وجدية:

- مين

في الطرف الآخر بصوت نادم:

-أنا يا جنة.

وما أن سمعت صوته همّت بصفق الهاتف بقوة ولكنه باغتها بنبرة راجية:

-جنة متقفليش السكة.

تخبره غاضبة ومنفعلة:

-عاوز إيه مني، متخافش كلها كام يوم وهرجع وتقدر تعذبني براحتك زي ما أنتَ عاوز.

يحاول إن يستميل قلبها:

- أنا مش بتكلم معاكِ علشان كدا.

تخبره بتأفف وحنق:

-عاوز إيه يا طارق؟

يردف معتذرًا:

-عاوزاك تسامحيني، أنا مكنتش في وعيي صدقيني.

تخبره بضجر وانفعال:

-كفاية بقا، ودي طبعًا تمثلية جديد صح؟

يردف مبررًا:

-لا مش تمثلية ولا حاجة، أنا عاوز أفهمك.

تخبره بنفاذ صبر:

-مش عاوزة أفهم خلاص، اللي عاوزه هنفذه، اتفضل اطلب عاوز إيه؟

يخبرها بودٍ، وقلق:

-عاوزك ترجعي يا جنة البيت.

تخبره منفعلة صارخة في وجهه:

-قولت ماما تعبانة ومش هسيبها، وحاضر يا طارق هرجع عشان أبوك عاوز كدا مش دي الحقيقة، ماما تكون كويسة وهرجع وهتقدر تتابع وصلة الاهانة والذل والتهديد براحتك.

يصمت ويحتل الصمت وقتًا ليس بهين إلى أن تشتم رائحة حريق وتترك الهاتف وتهرع راكضة إلى المطبخ لترى الكارثة التي حلت على رأسها بسبب ذلك المزعج، وتطفئ الغاز وظلّت تبكي على احتراق الطعام الذي بذلت به مجهودًا كبيرًا.

* **

..... **في المشفى**، مرت ساعة كاملة والأجواء متوترة. صمت خانق يحيط به. الأولاد ذهبوا ولم يعودوا. يبحث عن هاتفه ويتحدث مع أحدهم في نبرة محزونة:

-أيوه يا حازم، اطعاملي 250 مسكين، وطلع 100 واحد عمرة، و وزع بطاطين، و وزع 500 كرتونة لأطعام محتاج، بس أتأكد أنهم محتاجين بجد.

يغلق هاتفه وينزوي على ذاته محزون ومنكسر الفؤاد، يحاول أن يمسك هاتفه ويبحث عن كيفية الوضوء والصلاة، يخبر ذاته أ ليس الوقت متأخر؟ ولكنه يبحث مصررًا، لا وجود لأوقات متأخرة هي فقط أوقات مناسبة. ترتجف أوصاله مخافة أن لا يقبله الله بعد كل هذا البعد والجفاء، يعقد العزم، ويتوضأ ومن ثم يذهب إلى المسجد القريب، ليدلف إليه خائفًا ومرتعدًا، يخطو أول خطواته ويدلف بخشوع، يتناول مصحفًا صغيرًا ويقرأ منه، يأتي شابًا من مثل عمره لينهره فيوقفه الشيخ الكبير ويخبره أن يتركه، لا حرج عليه.

ربما سهى كثيرًا ولم يصلى كما يجب، ولكنه كان صادقًا في توبته. بعد أن انتهى ذهب إليه الشيخ وربت على كتفه: أنتَ جديد في الإسلام يا بني؟

هز رأسه نافيًا في خجل دون أن ينبس بطرف حرف. فهم الشيخ عليه دون أن ينطق وأخبره بودٍ:

-بص يا بني، باب المسجد مفتوح للكل، ولو حبيت تستفسر أو تتكلم هتلاقيني موجود زي والدك كدا أو أخوك الكبير لو تحب.

طرح عليه سؤالًا في قلق وتوجس:

- هو ربنا ممكن يقبلني مهما عملت يا مولانا، يعني حتى لو أتأخرت في التوبة؟

يخبره الشيخ مطمئنًا له:

- مش أنت توبت يا بني واصالحت، أكيد هيقابلك مهما عملت، لأنك رجعت لله وحاولت أن تصالح من نفسك، ربنا سبحانه وتعالى غفر لراجل قتل 99 نفس وكان عاوز يتوب، راح لراهب وقاله أنا قتلت 99 نفس هل من توبة؟ الراهب قاله لا ملكش توبة خلاص كدا، راح الراجل أتضايق وقام قتله وقال خلاص كدا أنا مليش توبة، بعدها بفترة قابل عالم وقص عليه قصته وقاله أنا قتلت 100 نفس هل لي من توبة؟ العالم قاله باب التوبة مفتوح وربنا بيقبل العبد التائب، بس قاله لازم تطلع من القرية بتاعتك وتروح قرية الصالحين لأن القرية دي فاسدة، المهم الراجل عقد العزم خلاص أن هيروح قرية الصالحين وفي نيته التوبة واخد بالك أنت، وبينما هو في الطريق قبض روحه ملك الموت، اختلفت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأمر ربك أنهم يقيسوا المسافة ولو كان أقرب لقرية الصالحين هتقبضه ملائكة الرحمة ولو كان أقرب لقريته هتقبضه ملائكة العذاب، وسبحان الله كان أقرب لقرية الصالحين، وفي رواية تانية بتقول أن ربنا سبحانه وتعالى قرب الأرض لقرية الصالحين ليقبض روحه صالحًا، فرحمة ربك وسعت كل شيء يا بني، المهم الصدق في التوبة.

يهز رأسه في تقبل وتفهم ومن ثم يخبره:

- بإذن الله يا سيدنا الشيخ، لو احتجت حاجة هرجعلك تفهمني.

يغادر، ويدلف إلى المشفى ليجد الأولاد في انتظاره وجميعهم غاضبون وحانقون بلا استثناء، يخبرونه في عتاب:

- كنت فين؟ دورنا عليك كتير؟

يخبرهم في هدوء وربما خوف ويعقد يدًا بيدٍ:

-والله أنتوا أتاخرتوا وأنا قولت هربتوا فأنا أتصرفت وحاولت.

يدلف إليه ولد يبدو عليه الإعياء والتعب والإرهاق ويخبره في وهن:

-طيب أحكيلنا عملت إيه؟

يخبرهم ودودًا ويقص عليهم ما حدث من أول شيء فعله إلى الآن وهو يحدثهم.

يصفقون بأياديهم على وجههم ويردفون:

-عمو أنت حالتك متأخرة ومحتاج أعادة تأهيل من الأول خالص.

ينصاع لهم ويظل منصتًا لهم، ليتعلم أساسيات أي طفل يعرفها، لقد أخبروه أن ما قام به خطأ ولكن لا بأس به كأول مرة، بدأوا يعلمونه شيئًا فشيءٍ، أنقضت ستة ساعات وهم جالسون بقربه، مر الوقت دون أن يدري. وبينما هو يتحدث معهم تدلف إليهم الطبيبة المسئولة عن حالة زوجته، يقف سريعًا ويخبرها قلقًا:

-دكتور. سارة كويسة؟

الطبيبة بحسرة:

-أدهم أنا أسفة.

يخبرها منفعلًا وخائفًا:

-أسفة إيه هي بخير صح؟

تبتسم ابتسامة مطمئنة له:

-متخافش ابنك ومراتك بخير.

يخبرها مسرورًا دون أن يرتب كلامه متناسيًا الأولاد وكلامهم له:

- بجد يا دكتور. أنا مش عارف أقولك إيه، أنا عاوز ابوسك بس مينفعش أنتِ متجوزة.

يحدجه الأولاد بأعينهم وينظرون له في حدة ومن ثم يتدارك ذاته ليردف:

- أسف والله أنا عيل صغير ومش قصدي نسيت.

تحاول أن تتمالك نفسها وإلا تضحك على كلامه وخوفه من الأطفال:

-مراتك تقدر تشوفها بعد 4 ساعات لما تفوق من البنج، وابنك في الحضانة وبخير.

... بعد أربع ساعات.

يذهب راكضًا إلى غرفتها ليطمئن عليها، ويحمد الله كثيرًا أنها بخير ولم يفقدها، كان خائفًا وقلقًا وشعر أنه سيضحى وحيدًا بدون من يؤنسه ويربت على قلبه قبل ظهره، فهي حتى لو كانت تناديه باسم أخيه أو تفعل أشياء تغضبه، ولكنها تظلّ شخصًا طيبًا يخشى أن يفقده وشخص يحبه ولن يتحمل خسارته كذلك.

يدلف إليها مسرورًا تكاد الفرحة تصنع له أجنحة، يقترب منها ويمسك يدها طابعًا قبلة عليها.

تخبره بصوت متعب ومجهد:

-شوفت ابننا؟

ينظر لها بودٍ ومحبة:

-كنت عاوز اطمن عليكِ أنتِ الأول.

تخبره بوهن وصوت مجهد:

-أنتَ اختارتني أنا صح؟

يخبرها بحنوٍ:

- مقدرتش اتخلي عنك، هو كان صعب بس أختارتك أيوه.

تنسدل الدموع فيضًا من عيونها، وتتشبث بيده خائفة:

-أنا لو ابني مات أنا كنت هموت نفسي.

يخبرها ممازحًا محاولًا تخفيف الأجواء:

- بس يا عبيطة متقوليش كدا، وبعدين عادي يعني كنا هنخلف غيره مش حكاية يعني.

تبتسم رغمًا عنها وتخبره في خجل:

-أتلم، أنتَ قليل الأدب على فكرة.

يردف ممازحًا:

- يا بت أنتِ مراتي.

ربما تزهر الزهور ها هنا، ربما يزهر الحب في حديقة كانت خاوية، ربما تحلو الحياة بعد أن كانت قاحلة، من يدري، فالحب مثل الحرب لا أوان له ولا وقت مناسب، الحب ينمو من المواقف، الكلمات الداعمة، أن تكون أمان في ظلّ لا وجود للأمان في هذا العصر، أن تحاول أن تزرع الورود ويداك تقطر دمًا من أشواكها، أن تكون معطاءً قبل أي شيء، ألا تنتظر مقابلًا لما تفعل ففي النهاية أنت تتعامل بقلبك لا بقلوب من حولك، كن دائمًا بتأثير الفراشات أو الزهور العطرة كأقرب وصف وإن كنت تكره كل ذلك، كن كعود المسك يفوح طيبًا ليملأ الأرض بطيب رائحته.

الفصل الثامن والثلاثون.

العليل يشفى.

.... بعد أسبوع.

المريض يشفى والعليل يطيب وعليل الحب يبقى معطوبًا مهما تجرع من دواء. الأسرار أغلبها قد كشف وبعض الأسرار يفضل أن تكون ناقصة، الحقيقة ليست دائمًا كما نرى، دائمًا هناك جزء منقوص. والنقص أحيانًا لا يحتاج من يكمله فقط أتركه كما هو ولا تحاول التعديل في الأقدار.

في شرفة المنزل بجوار أصيص الورود والنباتات، تجلس مع والدتها يرتشفن الشاي وتغمسن حبات البسكوت الشهية، التي تصنع في ساعات طويلة وتأكل في بضع ثوان.

والدتها بحنوٍ وتربت على يدها:

-جنة حبيبتي أنا بقيت كويسة أهو، أرجعي لبيت جوزك خلاص.

تخبرها ببؤس وتحاول أن تبدو بمنظر غير بائس ولكنها تفشل رغم ذلك:

-حاضر، هرجع.

تنظر والدتها لها بطرف عين:

-أنتِ مش مبسوطة معاه؟

تحاول أن تبتسم ولو قليلًا وحسب:

-عادي يعني مفيش حاجة.

والدتها داعية له لعله يشفق على صغيرتها:

-ربنا يهديه.

تردف في رجاء:

- يا رب يا ماما يا رب.

* **

بالرغم من رائحة المعقم النتنة وأجواء المشفى الخانقة ألا أن هناك جزء سعيد، وفصلًا جديدًا يكتب أول أوراقه في هذه اللحظة، الكلمات قد تبدو غير مرتبة، ولكنها في الواقع مثالية جدًا، بالرغم من عبثها وتناثرها يمنة ويسرة بلا هوادة. يقف بمفرده متحدثًا في هاتفه ربما هناك شيء مهم، صوت همهمات غير مفهومة فقط بضع كلمات بسيطة قد تتضح من حديثه المبهوت:

-إيجابي. طيب، دا بجد، متأكد يعني، متشكر جدًا، قلبي أطمن.

يدلف إليها مسرورًا مقبلًا جبينها، تلك الراقدة على الفراش، تبدو بوجه متعب وشاحب كذلك.

تفتتح الحديث مخبرة إياه بفضول:

-هتسمي ابننا إيه؟

يحك رأسه بيده ويخبرها ممازحًا:

-هسميه حزلقوم.

تنظر له بازدراء وحنق:

- والله بتكلم جد هتسميه إيه؟

يخبرها ضاحكًا:

-طيب خلاص متتعصبيش، اختري الاسم اللي يعجبك.

تخبره بممازحة:

-هسميه عثمان.

يندهش من اختيارها:

- بتهزري؟

تردف ممازحة له:

-يعني اسيبك تهزر لوحدك.

يخبرها بنبرة مهزوزة:

-خلاص هسميه رامي.

تتكور الدموع في مقلتيها وتشيح بنظرها عنه:

- رامي.

يخبرها بلطف محاولًا تخفيف الأجواء:

-عشان لما تتلخبطي في اسمي، أعرف أنك بتنادي على الولد، عشان متجننش بس ونقعد نتخانق وبعدين تقلبي الترابيزة عليا وتجيبي موضوع من خمستلاف سنة وتزعلي عليه، و لأنه اسم أخويا في الآخر.

تنسدل الدموع من عينيها وتنفجر باكية:

- الله يرحمه.

يعدل من جلستها ويضمها إليه مربتًا عليها في حنوٍ محاولًا السيطرة على الأجواء التي أضحت حزينة، يخبرها ممازحًا:

- خلاص بقا يا ست يا حلويات متقرفوناش بقا، دا هو في مكان أحسن من هنا وأكيد مبسوط، وهيكون مبسوط أكتر لما يلاقنا أحنا كمان مباسيط، قصدي كويسين يعني وفرحانين وحاجات زي كدا.

تحاول أن تستعيد رباطة جأشها:

-أكيد وابننا كمان هيكون مبسوط.

يخبرها بنبرة حنونة:

-بحبك يا أجمل ست في الدنيا، وأحن وأحلى واحدة شافتها عيني.

تخبره بخجل:

-أنت..

يقاطعهم صوت صرير الباب ويدلف مجموعة من الأولاد إلى الداخل، يخبرنهما باعتذار، وبعضهم من ينظر له بحدة:

- أسفين يا عمو، كنا حابين نطمن عليك وعلى مراتك اللي كنت خايفة عليها ومرعوب، بس واضح أننا جاينا في وقت غلط.

يخبرهم مبررًا:

-إيه بقا مش مراتي وحلالي وبتغزل فيها، متبصلويش بالطريقة دي بحس أني عملت حاجة غلط وأنا معملتش حاجة.

يضحك الأولاد عليه من حديثه الذي ينم عن قلب نقي ومن ثم يقترب الأولاد من زوجته ويتحدثون بصوت واحد:

-على فكرة عمو أدهم كان خايف عليكِ، وكان مرعوب أنك تسيبه وتمشي، وعمل حاجات كتير جدًا عشان كان خايف يخسرك، وكمان هو ممكن يكون بايظ، بس بيحاول يصلح من نفسه عشانك.

ينظر إليهم في امتنان ويخبرهم بصدق، ويعرفهم إلى بعضهم البعض:

-متشكر جدًا يا أولاد، بجد من غيركم مكنتش هعرف أعمل أي حاجة، نسيت أعرفك يا سارة دول أولاد ودي سارة يا أولاد.

يخبره الأولاد أنهم سيغادرون لأن صديقهم يحتاجهم في غرفة الغسيل الكلوي، أعطاهم ما كان في جيبه وهمّوا مغادرين.

بعد أن غادروا أقتربت منه وهمست في أذنه:

-بحبك يا أدهم.

يضع يده على قلبه غير مصدق:

- اخ يا قلبي أنا.

تشعر بالفزع وتخبره في قلق:

-مال قلبك؟

يخبرها ممازحًا:

-بيحبك.

تضربه على قلبه براحة يدها في حنق:

-خضتني بجد، أصلًا أنتَ مستفز.

يردف ممازحًا:

-ورخم وغلس وبارد وكلهم.

* * *

..... في مكان آخر.

في ذات التوقيت. الشاه تذهب لذبابيحها، تمشي بخطوات متثاقلة وتعود مجددًا مجبرة على أمرها، لم تكن لتعود ولكن لقد تحدث معها أبيه وأخبرها أن تعود لمنزلها بشكل قاطع بدون مقاطعة، أو تبرير أو حتى نبست بحرف فقط استمعت في انصياع وإنصات.

تدلف إلى السرايا لتجده جالسًا على الكرسي منتظر لها، يخبرها هادئًا:

-حمدلله على السلامة يا هانم.

تخبره بقرف وكأنها تتحدث من أسفل ضرسها:

-الله يسلمك.

يضع ساقًا على ساق ويخبرها هادئًا مستفسرًا:

-ليه سبتي البيت وهربتي، مش كان مفروض تستني وتأخدي أذني الأول؟

تحاول ألا تنفعل ولكن الأمر يحدث رغمًا عنها:

-ماما كانت تعبانة، إيه؟

يخبرها هادئًا:

-وأنا قولتلك متروحيش.

تخبره بعناد:

-وأنتَ مين علشان اسمع كلامك.

يتنفس الصعداء ويخبرها مستفزًا:

-جوزك ولا إيه؟

تخبره منفعلة وغاضبة:

-أنتَ جوزي بالاسم وبس وأنا مبحبكش.

يخبرها مستفزًا إياها:

-تحبي نخلي الموضوع رسمي وتبقي مراتي بجد، مش هاخد وقت كتير يعني، الموضوع روتيني ومش بيخوف.

تردف منفعلة:

إيه كل شوية حقك حقك دي، أنتَ كافر وأنا مجوزلكش.

يخبرها مستفزًا ضاغطًا على أعصابها:

- شايفني يهودي قدامك ولا ملحد، ولا اسمي ميشيل مثلًا، كان ممكن استخدم طرق قذرة بس صدقيني أنا أصلًا قرفان أني أقرب منك حتى، كل اللي بعمله أني بنفذ الأوامر وبس. بس الحقيقة الوحيدة أني فعلًا بكرهك وهو دا الشعور اللي مقدرش أكدب فيه.

تنهار باكية ومن ثم تتجلد وتنزع ثيابها في قهر لتظلّ بمنامتها لتخبره في يأس مستسلمة لما يريد، تتحجر الدموع في عينيها مختنقة:

-أنتَ لو مسلم بجد، كان لازم تعرف أن تارك الصلاة كافر، والزنا وشرب الخمر وكل الحاجات دي اللي بتعملها بذمتك في مسلم بيعملها، أنتَ بالنسبالي مش جوزي ولا هتكون جوزي أبدًا فاهم. ولو كنت عاوز تأخد حقك أهو أنا قدامك، خد حقك، بس صدقني دا هيكون اعتداء مش حق ليك. أنا بكرهك فاهم.

يلتقط ثوبها من الأرض ويدثرها به ويخبرها بوجوم وشعور بالذنب:

-جنة أنا مقدرش أعمل كدا، والدي بس بيتضغط عليا بسببك، بس أنا عارف أننا بنكره بعض ومحدش بيحب التاني بس هو مش فاهم دا.

تسقط على الأرض منهارة، شهقاتها تنخلع لها القلوب، تبكي وتأن وتصرخ في وجهه :

-أنتَ عاوز مني إيه؟ بتهين فيا وفي كرامتي أنا عملتلك إيه، أنا حاسة أن ربنا بيعقابني علشان اتجوزت واحد زيك.

يخبرها مهدئًا لها:

-ممكن تهدي بس وهنتكلم وبلاش عصبية، أنا كنت بشوف رد فعلك ومامتك كنا هنروحلها والله، أنتَ مش بتديني فرصة حتى...

يتشنج وجهها وجسدها وتظلّ ترتجف وتدخل في حالة هيستريا من البكاء والضحك من فرط ما تعرضت له من ضغط نفسي:

-كنت بتهزر، كان بيهزر. بتهزر إيه بتهزر في اللعب باعصابي كنت بتهزر، أنك تجنني كنت بتهزر، تعمل كل حاجة بكرهها وكنت بتهزر، أنتَ مش بتحس، وكل اللي عملته معايا دا كنت بتهزر. أنتَ جننتني وكل دا هزار صح.

يجثو على ركبتيه ضامًا لها، محاولًا أن يجعلها تهدأ:

-جنة أهدي بقا، إيه اللي بتعمليه دا؟ أنتِ لو عايشة العيشة اللي أنا كنت عيشها هتعملي أكتر من كدا كمان.

تتضربه على صدره وتخبره صائحة:

-بس أنا مش زيك ولا عمري هكون بالشكل اللي أنتَ فيه دلوقت، سيبيني وأبعد عني إياك تقرب مني.

متحاشي ضرباتها، ضامًا لها لتهدأ:

-أنتِ متعرفيش حاجة عني أصلًا، متعرفيش غير إني فاسد وبس، ليه مفكرتيش أني مخترتش أكون كدا، ليه مصممة أني شرير علشان أنا عاوز كدا؟

تردف بذات الانفعال:

-أنتَ لو كنت عاوز تبقي كويس هتبقي كويس محدش ضربك على أيدك وقالك تكون كدا.

يتركها ويهمّ مغادرًا بعد أن هدأت قليلًا:

-عامةً أنا أسف، لو عاوزة تمشي امشي أنا مش همنعك، لو عاوزة تفضلي افضلي وأنا همشي، وبالنسبة لوالدي أنا هتصرف.

بعيون دامعة وصوت محشرج:

-امشي مش عاوزة أشوفك.

يتراجع خطوتين ويخبرها بصوت محزون ومن ثم يدلف خارجًا:

-قبل ما امشي أنا رجعت نجوى تاني، أمها كانت تعبانة علشان كدا مشيت، لو احتاجتي حاجة يعني.

تلملم ذاتها وتصعد إلى غرفتها، تفتح خزانة ثيابها وتختار ثوبًا جديدًا، تجلس على حافة الفراش وتنفجر باكية وتتحدث مع ذاتها:

-أنا مبقتش فاهمة، هو شخص كويس ولا وحش، أنا مبقتش فاهمة بجد، بيعامل كل الناس كويس ما عدا أنا بيحترم الكل ما عدا أنا، وأنا معملتش حاجة، إيه ذنبي إذا كان دي قيود اتفرضت علينا، إيه ذنبي لو حبيبته أتجوزت حد تاني، أنا مالي.

تبدل ثيابها وتجلس مفكرة، هل هو شخص جيد أم سيئ، يبدو جيدًا مع الجميع. في وقت ما تشعر أنه حقًا شخص جيد ودود، ولكن عندما يتحدث والده عنهم يجن جنونه أو يتم استبداله بشخص سيئ و وقح.

* **

تجلس في شرفتها تتطلّع إلى النجوم، الخوف يدب في أوصالها، تتناول هاتفها بعد تفكير عميق تتصل بشخص ما وتخبره في جدية:

- نادر عاوزه اقابلك ضروري.

يخبرها متحيرًا:

-في إيه مالك حصل إيه؟

تحاول أن تتملك دموعها:

-حاجة مينفعش تتقال في التليفون.

يخبرها بقلق من نبرة صوتها المحزونة:

-في إيه يا بنتي مالك؟

ندى بإصرار:

-نادر من فضلك مينفعش في التليفون.

يخبرها محبًا:

- طيب ماشي، بكرا هقابلك ونتصرف بعدين، واحشتيني.

تردف ببؤس شديد:

- سلام.

يخبرها أن تنتظر قليلًا:

-ندى مالك بجد في حاجة غريبة بجد؟

بنبرة مختلطة بالبكاء:

-سلام يا نادر قولتلك.

يردف في قلق وخوف:

-إيه يا ندى إيه حصل؟

تخبره كأنها إنسان آلي يردد عبارة معينة:

-سلام يا نادر لما اقابلك.

تصفق الهاتف في وجهه وتتركه متحيرًا، وتدلف إلى غرفتها وترتمي على فراشها باكية وتشعر أن كل أحلامها وحبها سيذهب في مهب الرياح. بينما هو يجلس متحيرًا، يرتشف كوب من الشاي على أسوار الشرفة، يشاهد القمر المختبئ خلف السحاب، الإضاءة الخافتة التي تصدر من أعمدة الإنارة لتجعل الجو أكثر شاعرية ورومانسية، يتعجب من أمرها، تلك المجنونة الغجرية.

الفصل التاسع والثلاثون

اعتذار.

...في صباح اليوم التالي.

أشعة الشمس تشرق بنور ربها لتملأ الأرض بأشعتها الذهبية، معلنة يوم جديد، وصفاء رائق للسماء، التي تتهادي بها السحب الرقيقة، الهدوء والأجواء الهادئة التي تلتف حول المكان، الهدوء الذي يسبق العاصفة ربما.

يجلس منتظر الأميرة الغجرية لتدلف إليه، يطلب فنجانيّ قهوة ومن ثم يسحب لها كرسيًا لتجلس، يخفي لها هدية وراء ظهره لأنه شعر أنه مقصرًا في حقها مؤخرًا. تنزع خاتم الخطبة من يدها وتضعه على الطاولة وتخبره بكل أسي:

-اتفضل يا نادر دبلتك اهي، وكل شئ قسمة ونصيب بينا.

يخبرها مقهورًا وبنبرة مهزوزة:

-ليه بتعملي كدا، هاا ليه كل شوية بتسيبيني وتمشي، وأنا مصمم عليكِ برضو ومش بسيبك، ليه مصممة تجرحيني كل شوية، مبتحبنيش يا ندى؟

تتجبر وتخبره بكل قسوة:

-أيوه مبحبكش، أنا كنت بعتبرك صحبي وبس.

تعتري وجهه علامات الصدمة:

-صحبك إزاي يا ندى وكتب كتابنا باقي عليه 15 يوم، أنتِ بتهزري ولا حكايتك إيه؟

تفرك كفً بكفٍ متوترة:

-نادر أنا كدبت عليك.

يسأل في قلق ونبرة مهزوزة:

-كدبتِ عليا في إيه؟

تخبره بتردد وخوف:

-أنا كان مكتوب كتابي مش مخطوبة وبس، يعني أنا كنت مراته مش خطيبته، وهو سابني يوم الفرح وأنا مقدرتش أقولك كدا لأنه اختفي ومطلقنيش لحد دلوقت، أنا وقعت على أوراق الطلاق ومش فاضل غير توقعيه وبس. أنا عملت كل اللي عملته علشان حبيتك بجد، ومكنتش عاوزاك تضيع منى.

يخبرها بصوت منكسر، تسمع تفتت قلبه من هنا:

- بصي يا ندى كل شئ قسمة ونصيب وأنا أسف جدًا مكنتش أعرف ولما عرفت خلاص معدتش ينفع نكون مع بعض، خلاص خلي بالك من نفسك.

تحاول أن تخبره مبررة:

-نادر أنا...

يقاطعها بنبرة مقهورة ومنفعلة يحاول ألا يترفع صوته متحاشي الفضائح أمام الجموع الغفيرة:

-إيه تاني، دا أنا حبيتك مش حبيتك وبس أنا عشقتك وأنتِ ضحكتِ عليا وخدعتيني.

تخبره مبررة بعيون دامعة:

-يا نادر أفهمني، أنا مكنتش فاكرة إنه هيرجع.

ينهض مغادرًا:

-وأهو رجع، مع السلامة قعدتنا مع بعض دي غلط.

يعود خطوة للوراء ويخبرها منكسرًا كمن أصبح أضحوكة:

-واتري أبوكِ وافق على طول ومخدش وقت، كنت غبي وصدقتك.

تخبره بدموع تنساب من مقلتيها:

- متظلمنيش يا نادر، دا مش ذنبي، أنا حاولت أبعدك وأنتَ كنت مصمم تفضل.

يخبرها معتذرًا محطم الفؤاد:

-كنت غبي، كنت غبي، أنا أسف سلام.

تخبره في رجاء وتتشبث بيده أن يبقى وتنفجر باكية:

-نادر متمشيش.

ينزع يده منها ويغادر محطمًا، هائمًا في الطرقات، تحت أشعة الشمس الحارقة يحدث ذاته مختنقًا:

-معقولة الإنسانة اللي حبتها تتطلع أكبر كدبة، مش مصدق، بس عادي زي ما كل حاجة عادي يعني. بس أنا بحبها ومش هسيبها، بس استني دي ضحكت عليك، بس دا مش ذنبها، خلاص مبقتش تفرق.

غريب هو تناقض الإنسان، بين أن يترك ما يحب، وبين أنه لا يريد. هو يحبها بصدق ولكن الكذب لا يغتفر، لو كانت أخبرته من البداية لربما، كان سيتقبلها ويحتويها ولكنها لم تفعل وفضلت أن تكذب عليه وتخفى الحقيقة ولكن إلى متى يمكن إخفاء الحقائق لا بد من يوم وتنقشع.

* **

... في مكان آخر.

في توقيت مختلف، الساعة التاسعة مساءًا.

الجو الرائق والسماء الصافية، النجوم المتلألئة، كأنها يراعات الليل وكما قال تيمون وبومبا عندما سألهم سيمبا عن النجوم في السماء " إيه دا اللي منور فوقينا؟ بومبا: دي عبارة عن كرات غازية منورة تيمون: اللي منور دا دبان لازق في السجادة الزرقة، بومبا أنت كل حاجة بالنسبالك غازات ".

.. تقف أمام غرفته متوترة وخائفة كذلك، تطرق عدة طرقات وتسأله في خجل:

-هو أنا ممكن ادخل؟

يطلق ضحكة من ثغره:

-اتفضلي يا مصيبة.

تدلف في خجل وتصك قدمً بقدمٍ:

-على فكرة أنا أسفة على امبارح وكدا.

يعدل من جلسته ويخبرها في ودٍ:

-مفيش داعي للآسف، أنا اللي مفروض اتاسفلك على فكرة.

تسأله في خجل وفضول:

-ممكن اسالك سؤال؟

يخبرها ممازحًا:

-اسألي اللي أنتِ عاوزاه إن شاء الله 100 سؤال وأنا هجاوب.

تسأله بخوف:

-ليه بتعاملني وحش وليه طريقتك وعيشتك وأسلوبك كدا؟

يخبرها متملصًا، لا يريد أن يخبرها ولكن أن سألت مجددًا سيفعل:

-مش عارف.

تسأل مجددًا في فضول:

- قولي أنا عارفة إنك عارف.

يزفر ويتنهد بحزن:

-طيب فاضية تسمعي؟

تجلس إلى المقعد المقابل له وتخبره في اهتمام:

-كلي أذان صاغية.

يخبرها هادئًا مبررًا:

- بصي يا ستي.

تجحظ بعينيها تبدو مخيفة الشكل حقًا:

- بصيت أهو.

يخبرها ممازحًا:

-هو أنتِ هتسمعي بعينك مثلا؟

تخبره في طفولة:

-بسمع أهو، تمام كدا.

يخبرها ممازحًا:

-أيوه كدا، أول ما أقولك بصي، تقولي بسمع أهو تمام.

تخبره ببلاهة:

- تمام

يصفق كفً بكفٍ:

- باسم الله ما شاء الله، هبلة .

يزفر ويتنفس الصعداء ليبدأ الحكاية من بدايتها:

-بصي أول الحكاية بابا وماما مكنوش بيخلفوا فتبنوا ولد.

تطرق بنظرها أرضًا:

- قصدك ماجد.

يخبرها بنبرة مهزوزة:

-أيوه ماجد، المهم اهتموا بيه وكمان مكنوش أغنياء زي دلوقت يعني بعدين بقيت شركة وبعدين شركات الخ يعني، بعدين بقا ربنا بعد عشر سنين كرمهم بيا أو عذبهم بيا.

تسأله في فضول وتسند وجهها بكفيها:

- طيب وبعدين؟

يخبرها ممازحًا:

-يا ستي اصبري واحدة واحدة إيه هو أنا هكتب مقال؟

تخبره في انصياع وتشير بيدها إلى فمها أنها ستغلقه:

- حاضر هسكت ساكتة.

يزفر ومن ثم يتابع حديثه:

-أيوه شاطرة، بعدين بقا، جابوا دادة وربتني وأنا عايش في الفيلا دي لوحدي من زمان، وطبعا مكنش في اهتمام حتى عيد الميلاد كانوا بيحضروا ساعة ويمشوا بحجة الشغل، وكان كل همهم أنهم يدوني فلوس، مش مهم بقا اصرفها صح أو

غلط، حتى لما بكون متضايق أو تعبان عادي مبيسالوش، أهم حاجة عندهم أني معايا فلوس وبس.

يخترق كلامه قلبها ويرق له، أعني أحست أنه لم يكن من المفترض أن يعاني بهذا الشكل:

-مش عارفة أقولك إيه؟

تهرب من ثغره ابتسامة محزونة ومن ثم يردف:

-متقوليش حاجة، عادي بقا، علشان بس تعرفي أنه كان غصب عني أكون كدا، مفيش حد يقولي دا صح ودا غلط، كنت بعمل كل حاجة غلط وما زلت، وعادي مبيفرقش معايا حد. عارفة أنا كان نفسي بجد أكون مكانك مع عيلتك وحنيتهم عليا، ولا حنية أم نادر عليا، بحسها أمي بالضبط، وكمان مامتك حنينة قوي، أنا مش بحسدكم بالعكس أنا بتمني بس.

تنظر له بإشفاق وربما قليلًا من الإحسان:

-أنتَ طيب قوي على فكرة بس محدش فاهمك، يمكن علشان تصرفاتك.

يخبرها ممازحًا مخففًا من حدة الأجواء:

-صعبت عليكِ صح؟

تخبره بمشاكسة وطفولة وصدق كذلك:

-لا، أنا هساعدك تكون إنسان أحسن، موافق؟

يخبرها في انصياع:

-موافق.

تخبره محذرة ومهددة:

-بس عارف لو اتعصبت عليا وقام جنانك مش هيحصل طيب.

يخبرها ممازحًا:

-ما خلاص بقا، ما أنا سيحت قدامك ونيلت الدنيا، بعد إيه؟

تخبره في ودٍ وقد همّت مغادرة:

-نبدأ من بكرا هصحيك الفجر.

يردف ممازحًا:

-ليه الفجر هنبيع لبن ولا هنروح الفرن نبيع عيش؟

تسير ناحية باب الغرفة وتخبره في ودٍ:

- لا هنصلي.

يخبرها في امتنان:

- يا مسهل بس مش ضامن يعني هصحى أو لا.

* **

في مكان آخر.

في توقيت مختلف الساعة الواحد بعد منتصف الليل.

بكاء طفل صغير يهزّ الأجواء، بكاء متواصل، يمكن أن يكون جائع أو يريد تبديل كفولته ربما أو يريد أن يتهدهد قليلًا ليغفو.

...أحدهم نائم ومدثر بالغطاء وبجانبه زوجته، يستيقظ منزعج من صوت البكاء المتواصل. يسحب الوسادة ويضعها على أذنه، يهز في زوجته لتستيقظ وترى الصغير:

- يا بني اسكت حرام عليك عاوز انام، يا سارة قومي شوفيه حرام عليكم.

تستيقظ غير واعية ومن ثم تحاول الاستيعاب قليلًا:

-ادهم أنا طول الليل قعده جانبه وأنتَ نايم وقوم أنتَ لعبه شوية.

يخبرها متأفف:

-هو يعني خلاني انام؟

تنهض من جواره متأففة وتذهب إلى سرير الطفل لتأخذه وتحمله بين ذراعيها في حنوٍ ومن ثم تخبره في عتاب:

-أنتَ مفيش منك فايدة أصلًا.

يسحب الغطاء عليه ويكمل نومه ويخبرها مستفزًا لها:

-عارف.

تتحدث مع الطفل في مداعبة وحنان بالغ:

- بابا دا مفيش فايدة منه مش هنطلع زيه علشان بابا وحش يا صغنن.

ينزع الغطاء عنه ويدلف إلى جوارها ويخبرها ممازحًا:

- بابا وحش، دا بابا عسل هو أنا في حد زيي.

تردف مجددًا وتضمه إليها في حب وحنان:

- رومي . هيسمع كلام ماما، ومش هيعمل حاجة وحشة زي بابا وهيحب ربنا ومش هيغضبه أبدًا.

الجميع يتغير، لحظة الهداية تكون بضع ثوان ولكنها تترك الأثر على المدى الطويل. ومن هنا سأستشهد بآية من القراءن (ويهدي الله من يشاء والله على كل شيء قدير) يعني أن الله سبحانه وتعالي يمكن أن يهدي أي أحد في أي وقت، ولهذا بالتحديد لا تستغرب كيف لعاصي في يوم وليلة أن يصبح عابدًا أو يصلى أو يتضرع إلى الله، أعني قد تكون رأيته يعصى بأم عينيك وكان فاسدًا بالنسبة لك، ولكن أ لم تعلم أن حاسبات الله خارج حاسبات البشر، فنحن لا نغفر بسهولة ولكن الله يفعل لأنه الغفور ذو الرحمة الواسعة. لا تستغرب كثيرًا لكل منا لحظة نولد بها من جديد، نبدأ بها من جديد أيضًا.

الفصل الأربعون

ميلاد جديد.

.... الساعة الثالثة فجرًا من صباح اليوم التالي.

في غسق الدجي وظلمة الليل الحالكة، صوت صرصور الحقل يصدر صوتًا مزعجًا، نسمات باردة تلفح الوجوه، قلوب عامرة بذكر الله، تذهب لصلاة الفجر ملبية نداء الفجر " الصلاة خير من النوم "

تطرق عدة طرقات على غرفته وتقف قليلًا برداء الصلاة، تطرق مجددًا، فلا يستجيب، فتدلف إلى الغرفة وتضئ الغرفة المظلمة، تقترب من فراشه وتهزّه ليستيقظ وتخبره في صوت كالببغاء مكررةً حديثها:

-طارق اصحي قوم يلا.

يستيقظ نصف واع:

-انام خمس دقايق خمس دقايق بالعدد وصحيني بعدين.

تخبره بإصرار وتنزع الغطاء من عليه:

-قوم يلا علشان نبدأ نصلي قوم.

يسحب الغطاء ويدثر ذاته:

- يا ستي حرام عليكِ أرحمي أمي شوية عاوز انام.

تجلس بالقرب من رأسه وتخبره في إصرار:

-وأنا مش هسيبك تنام.

يعدل من جلسته بشعره المنفوش ويخبرها بعيون مغلقة:

-استغفر الله العظيم، حاضر اهو قومت ارتاحتي، أعمل إيه دلوقت؟

تضع يديها على خصرها في تهكمّ:

-قوم اتوضي يلا ولا دي كمان متعرفهاش.

ينهض بتثاقل وكسل وقبل أن يغادر يخبرها:

- نادر علمني شوية حاجات، بس العيب فيا أنا، كل شوية برجع أسوأ مما كنت.

تراه يدلف إليها بحلته البيضاء و ما هذا فلتتأدب، تطرق رأسها في خجل وتخبره في ودٍ:

-طيب أحنا دلوقت هنصلي وأنتَ هتكون الإمام يلا.

يخبرها متلعثمًا خجولًا من ذاته:

-بس أنا...

تقاطعه في إصرار:

-بس إيه؟

يردف خجلًا:

- مش حافظ قرآن، غير الفاتحة وكام سورة قصيرة.

تخبره في تشجيع:

-ولا يهمك، أهم حاجة نيتك أنك تصلي وتخلص النية لله وحده.

يهز رأسه بإيجاب، فتردف في عجل:

-طيب الفجر هيأذن يلا صلي وادعي ربنا يصلح حالك.

.....بعد أن انتهوا من صلاتهم، جلسا يتحدثان في ودٍ وبالتحديد هو من بدأ الحديث

يخبرها مطمئنًا:

- من زمان محستش بالإحساس دا، كأن في جبل وانزاح من على قلبي.

تخبره في مودة:

- لأن الصلاة علاج للقلوب والعقول وإن ربنا سبحانه وتعالى قال " ومن أعرض عن ذكري فإنه له معيشة ضنكًا "، بتحس أن كل حاجة هتكون تمام والطمأنينة بتسكن قلبك.

يخبرها ممتنًا:

أنا مش عارف أقولك إيه ولا إيه، متشكر لإصرارك.

تخبره في خجل:

- متقولش حاجة.

يخبرها نادمًا:

-أنا أسف بجد، على كل اللي عملته.

تحدثه ممازحة:

-والله أنا اللي أسفة، مش أنتَ، وبعدين أنتَ معرفش أزاي كنت مستحمل أني أزعق في وشك، لو حد غيرك، كان فلقني نصين.

يضحك على كلامها:

- مش عارف والله أزاي مفلقتكيش نصين.

ومن ثم يردف بجدية:

-على العموم أنتِ كويسة وقلبك أبيض والله وتستهلي حد يقدرك ويحبك ويكون زيك كدا، وأهو هانت على العموم مش فاضل شهور كتيرة وهتأخدي حريتك.

توردت وجنتيها وهمّت هاربة:

-طيب أنا هسيبك تنام علشان تروح شغلك.

يخبرها ضاحكًا:

-طيب وأنتِ كمان روحي نامي تصبحي على خير.

ها هو الود يزهر في القلوب مجددًا، وربما تزرع نبتة الحب رويدًا رويدًا من يدري. هذا القدر غريب جدًا ومتقلب أيضًا يمكنه أن ينسج حبال الود سريعًا وفي لحظة واحدة قد يدمرها كما يدمر بيت العنكبوت. مهما يحدث نستحق نهاية تطيب جراحنا وترمم كسورنا. وربما في القريب العاجل سيحدث ذلك.

* **

....في مكان آخر.

في توقيت مختلف، الساعة الثامنة صباحًا. يجلس في الشرفة منكب حزين بائس، فقد شهيته للحياة، تجرع المرارة والفقد والخذلان، منكوبًا متنكدً متقلب المزاج، الحزن تربع على عرش قلبه، غير مصدق أنه تعرض للخداع. رنين الهاتف النّقال يتصاعد، يتناول هاتفه ومن ثم يرميه مجددًا عندما علم هواية المتصل، يظل ذلك الهاتف يتصاعد رنينه إلى أن يصرع فيقرر أن يجيب منفعلًا:

-عاوزة إيه يا ندى دلوقت؟

الطرف الآخر بنبرة باكية ومبحوحة:

-يا نادر أنا والله ما كنت أعرف أنه هيرجع تاني.

يردف بذات الانفعال مقهورًا:

-مش مشكلة إنه رجع ولا مرجعش، المشكلة أنك كدبتِ عليا وخدعتيني فاهمة يعني إيه؟

ندي بعياط:

- يعني خلاص كدا بتتخلي عني، مش أنتَ قولت مش هتسبني أبدًا، وأنك بتحبني، إيه بقا كل دا كان كدب؟

يدمدم صارخًا:

-أنتِ اللي كل كلامك كدب.

ترتجف نبرة صوتها:

-أنا بسالك كل دا كان كدب؟

يردف بذات الانفعال:

-أيوه كدب، كل حاجة كدب.

تستعطف قلبه باكية:

-وأنا اللي حبيتك بجد.

يتنهد ومن ثم يخبرها بنبرة قاسية:

-وأنا كنت بحبك.

تخبره بوهن:

- كنت.

يخبرها جادًا:

-أيوه كنت وبعد أذنك كلامنا دا معدتش ينفع.

تحاول أن تستميل قلبه:

-بس أنا بحبك، أرجوك خليك معايا.

لا يهتم لتوسلها، يصفق الهاتف ويرميه على الطاولة الصغيرة بلا مبالاة ويجلس وحيدًا منكسرًا، يستعد لبدأ يوم عمل بجفون مرهقة و وجه مكفهر.

الدرويش عمرو حسن قال وشعرت أنه مناسب جدًا ها هنا.

"مكنش الفيلم دي نهايته،

كدا الكاتب لعب ف النص،

وفيه لزق ف حياتي وقص،

وفيه تركيب لناس تانية،

فيه مشهد خارجي مش محطوط"

وأخيرًا أجمل ما قيل في الفراق والألم ها هنا يا من هواه أعزه وأذلني، ترى الهوى يذل أيضًا؟

"يَا مَن هَواهُ أعزَّهُ وأذَلَّنِي

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى وصَالِكَ دُلَّنِي

أنْتَ الذِي حَلَّفتَنِي وحَلَفْتَ لِي

وحَلَفَتَ أنَّكَ لا تخون فخنتني

وحَلَفَتَ أنَّكَ لا تَمِيل مَعَ الهَوَى

أينَ اليمين وأينَ مَا عَاهَدتَنِي"

* **

.....في مكان آخر وتوقيت آخر وبالتحديد الساعة الثامنة مساءًا.

في الصالة الفسيحة يتحاور شخصان أحدهما يحمل طفلًا بيده ويميل على كتف الآخر.

تتحدث في طفولة وتخبره بإصرار:

-أنا ورومي عاوزين نتعشي برا جعانين، جعانين، يلا.

يضع يده على وجهه ويخبرها بهدوء:

- بطلي زن هنطلب دليفري.

تردف في إصرار:

- لا ملناش دعوة هنتعشي برا.

يخبرها نافيًا:

-لا.

تنظر إلى طفلها وتخبره بودٍ وتستخدم بكاءه كورقة رابحة لها:

-رومي يا صغنن عيط لبابا خليه يخرجنا برا.

يشير بيده مصدوم ومن ثم ينصاع لأمرها:

-لا يعيط لا، حاضر هخرجكم برا. إيه الفضايح دي؟

تخبره بانتصار:

-أيوه كدا.

يتمتم بكلمات مغتاظٍ:

-هتخربوا بيتي ربنا يتولاكم.

تضيق عيناها وتخبره في شك:

-بتقول حاجة يا حبيبي؟

يخبرها ممازحًا:

-لا يا قلبي. مبقولش حاجة. هو أنا أقدر أقول.

تنهض من جواره وتعطيه الطفل:

-بحسب، خد رومي وأنا هغير هدومي وارجع.

يتناول طفله ويلاعبه ومن ثم يخبره شاكيًا له:

- تعال يا حبيبي، والله أنتَ اللي مصبرني عليها وأنتَ نقطة ضعفي.

والآن تنقسم الصفوف ما بين حياة سعيدة وبين حب مغادر وبين حب ينمو، وحب يخفت وينطفئ. الحياة ليست دائمًا عادلة، ولا ظالمة كذلك، تعطينا ما نستحقه وحسب.

الفصل الواحد والأربعون.

عودة .

.... قفزة زمنية صغيرة بعد مرور ثلاثة أشهر.

داخل أسوار المنزل الفخم، يطلب رؤيتها وهي ترفض أن تقابله أو حتى أن تتحدث معه، يستأذن من عمه ليدلف إلى غرفتها، يسير بخطوات ثابتة بهيئته الوقورة، ربعة في الجسد، شعره المسترسل، عيناها الحادة زرقاء اللون، بشرته النقية ذات الدرجة الفاتحة، يطرق على الباب عدة طرقات ويخبرها مستأذنًا:

-ممكن أدخل؟

بصوت مبحوح وصوت بكاء مكتوم:

- لا متدخلش.

.يدلف إلى الغرفة ويغلق الباب خلفه ويجلس بجوارها:

-أنا أسف علشان دخلت بس أنا عاوز أعرف مالك؟

تنفجر باكية:

-خالد من فضلك امشي.

يخبرها منصدم من ردة فعلها:

-امشي ازاي أنا بحبك وأنتِ كمان بتحبيني و أنتِ مراتي يا ندى على سنة الله و رسوله.

تخبره منفعلة وغاضبة:

-أنا مبحبكش، أنا مش عاوزاك، انساني زي ما نسيتك.

يردف أمرًا:

- جوزانا بكرا، يمكن أكون أتأخرت بس صدقيني أنا بحبك.

تردف باكية:

-خالد أنا مينفعش...

يقترب منها ويضمها إليه:

-ندى أهدي أنا عارف اللي عملته خلاكِ تكرهيني، وأنا بجد أسف بس أنتِ كدبتِ عليا وأنا مكنتش مستوعب كل دا، يعني مكنتش فاهمك. مكنتش فاهم أنك خوفتِ تخسريني، أنا أسف والله أني سيبتك.

تبعده عنها وتخبره منفعلة:

-بس أنا مبحبكش، مبحبكش أطلع برا، أنتَ عارف؟ أنتَ عملت إيه؟ أنتَ فضحتني يا خالد و سبتني أستناك وسط الناس والمعازيم وأنتَ مجتش، حاولت أكلمك قالوا أنك سافرت، أنتَ كسرت فرحتي في اليوم اللي كان أسعد يوم في حياتي وأنتَ خليته أسوأ يوم، أنا مش عاوزة أشوفك، ولا حتى أتصورك.

يهمّ مغادرًا ويخبرها مصرًا:

-طيب أنا همشي وهبعتلك طنط تشوفك وتفهمك ماشي، لأني بحاول أصلح غلطتي.

* **

...يتحدث مع والدتها ويخبرها أن تدلف إليها، وبعد أن دلفت إليها، ظلّ واقفًا ليستمع إلى ذلك التغيير الذي طرأ على فتاته التي كانت لا تعشق أحدًا سواه، ليعرف سر ذلك النفور. تسير والدتها بخطوات ثابتة وتجلس جوارها مشفقة على حال صغيرتها:

-ندى يا بنتي.

ترتمي في حضنها بعيون مرهقة ومنتفخة وهالات سوداء متضخمة:

-ماما أنا مبحبوش يا ماما، نادر أتخلي عني أنا بحبه هو، أتخلي عني.

تربت عليها في حنوٍ وإشفاق:

-متعيطيش يا قلب أمك، معلش محدش بياخد غير نصيبه.

بصوت مبحوح محشرج:

-يا ماما ازاي اتخيل حياتي معه، أنا مش عارفة أعمل إيه، أنا بكرهه.

والدتها في جفاء وحزم بالغ:

-بكرا لازم تجهزي مينفعش نرجع في كلامنا وأنتِ كنتِ عارفة أنه ممكن يرجع في أي وقت ولا إيه، وأنتِ مراته وخلاص مفيش مفر، وأنسي نادر دا خالص، هو أساسًا مكنش من مستوانا.

تخبرها باكية، بدموع تنساب فيضًا:

-مش عارفة حاسة أني قلبي واجعني قوي يا ماما وحاسة أني هموت، أنا بحب نادر قوي، لا يا ماما مقدرش أنساه.

والدتها ما بين إشفاق و جفاء:

-طيب أنا هسيبك تهدي واروح اتكلم مع باباكِ.

تخبرها بوهن وقد هلكت أحبالها الصوتية:

- روحي وسيبيني لوحدي واطفي النور هنام، مش عاوزة حد جانبي.

تتركها وتغلق الباب، لتدفن وجهها في وسادتها وتكمل وصلة بكائها المتكررة منذ أن تركت من تحب أو بالأحرى هو من تركها، بسبب كذبها وغشها له.

* **

... **في مكان آخر وتحديدًا السرايا الفاخرة**، بذات التوقيت صباحًا.

ها هي فترة العقوبة تنتهي، وكل شخص سيختار الشخص الذي يريده ويستحقه ربما، سينحل الرباط الذي يربطهم. وينتهي كل شيء ويتبدد.

شقشقة العصافير، نواح طائر الكروان المغرد، جزء سعيد وجزء يرفض.

تجلس بجواره على طاولة "السفرة" ويبدأ الحديث بودٍ كبير، بدون ذرة كراهية أو حقد فقط لطف:

-وأخيرًا هتاخدي حريتك وتقدري تختاري اللي يحبك ويقدرك، خلاص السنة خلصت.

تخبره بملامح وجه حزينة و وجه مكفهر:

-أيوه خلاص هترتاح مني.

يخبرها ممازحًا:

-لا أنتَ اللي هترتاحي مني ومن أستفزازي وجناني عليكِ.

تحاول أن تثنيه عن موقفه:

-بس دا كان زمان، أنتَ دلوقت إنسان كويس وبتصلي وبتعرف ربنا وبطلت كل الحاجات الوحشة اللي كنت تعملها.

يخبرها نادمًا:

- خلاص بقا ملوش لازمة الكلام دا، كلي وهنروح للمحامي علشان نتطلق.

تردف متلعثمة:

-بس أنا...

يقاطعها ويخبرها آسفًا:

-مفيش بس قولنا إيه خلاص بقا، أي حاجة عملتها معاكِ سامحيني عليها.

تحاول أن تخبره أنها تريد أن تبقي معه ولكنه لا يفهمها مجددًا:

-يا طارق أنا مش قصدي.

يردف ودودًا:

-بصي يا جنة أنتِ تستهلي حد أحسن مني، وكمان كل حاجة حصلت غصب عننا، وخلاص اهي هتتحل، فتقدري تختاري دلوقت أي حد مناسب ليك.

تنهض من على طاولة الطعام تحاول كتم دموعها:

-أيوه معاك حق، أنا شبعت.

يخبرها منصدم:

-بس أنتِ ماكلتيش حاجة.

تحاول أن تتمالك ذاتها وتتحدث بكبرياء:

- يلا بينا هنروح للمحامي.

يخبرها ممازحًا وهو يتناول طعامه:

-مش قادرة تصبري لما أكل للدرجة دي مستعجلة.

تحاول تحاشى النظر إليه وتخبره في كبرياء:

- لا عادي مش مهم.

ينتهي من تناول طعامه ويخبرها أن تستعد:

- طيب أنا كلت يلا هنمشي.

تصعد إلى أعلى تودع الغرفة والأشباح كذلك، تتذكر جميع الذكريات التي مرت عليها هنا، الذكريات السيئة والجيدة، الضحك والبكاء، الخوف والاطمئنان. تهبط

رويدًا وتدلف إلى المطبخ، تحتضن نجوى وتودعها باكية، تكفكف دموعها وتذهب خارجًا لتودع عم عبده وتوصيه أن يهتم بطارق وأن يوقظه فجرًا ليصلى معه، وأن ينتبه له ويعلمه قليلًا. ينادي عليها أن تأتي لكي لا يتأخروا، يفتح لها باب السيارة لتصعد إليها، تتذكر ما قامت به والنظر للمرآة واستفزازه، تنسدل منها دموعًا دون أرادة منها، ينظر إليها حزينًا بائسًا ليس في نيته أن ينفصل عنها، ولكنه لا يستطيع إجبارها، لقد انتهت المدة الإجبارية، والآن وفقط لهم حرية الاختيار.

.بعد طريق مليء بالذكريات، يصلان إلى وجهتهما، يدلفان إلى المكتب، يتحدث هو أولًا:

-لو سمحت يا متر أعمل الاجراءات بسرعة علشان نمشي.

تردد كالببغاء وراءه:

-أيوه بسرعة.

يخرج لهم أوراقًا ليوقعوا عليها:

- حاضر خدوا الأوراق دي وامضوا عليها وأنا هثبت الكلام دا في المحكمة.

بعد أن انتهوا من توقيع كل الأوراق، أخبرها مثقلًا، لا يريد تركها:

-طيب ماشي، يلا بينا يا جنة هروحك بيتكم.

تخبره بانصياع:

-حاضر يا طارق.

.....يأخذها إلى منزلها ويفتح لها باب السيارة لتسير بخطوات مثقلة، يخبرها راجيًا أن تنتظر:

-جنة استني.

تقف وتلتف خلفها:

-أيوه يا طارق اتفضل.

يخبرها متوترًا:

-عاوزة اقولك حاجة؟

تخبره في ود وإنصات:

-اتكلم سمعاك.

يخبرها ودودًا وكاد قلبه ينخلع ويقفز خارجًا:

- التلات شهور اللي فاتوا دول كانوا أجمل تلات شهور في حياتي والفضل ليك.

تردف بسرور وحزن مدفون:

- طارق أنا معملتش حاجة، أنتَ اللي بأيدك بقيت حد أحسن، وأنا مبسوطة أنك بقيت أحسن.

يخبرها نادمًا:

- كان نفسي تفضلي معايا وتخليني أحسن، بس أنا مقدرش أجبرك على حاجة.

تخبره بحسرة:

- كنت قولت الكلام دا من قبل كدا ملهوش لازمة دلوقت، بس توعدني!

يردف غير مفكر:

-اوعدك.

تصفق بيدها على جبينها:

-مقولتش توعديني بإيه؟

يضحك على منظرها ويردف ممازحًا:

-أوعدك بايه بقا؟

تخبره بودٍ ونبرة مثقلة:

-أنك تفضل زي ما أنتَ ومترجعش لأي حاجة من اللي كنت بتعملها.

يردف ممتنًا:

- مقدرش ارجع زي ما كنت خلاص أنتِ غيرتيني، بس أوعدك يا ستي.

تشير له مودعة:

- طيب سلام، وخلي بالك من نفسك.

يخبرها أن تنتظر قليلًا:

-أوعي تنسي فرح ندي بكرا.

تردف بحزن:

-هي وخالد صح؟

يحاول أن يهون عليها الأمر:

-متزعليش بقا، أنتِ كنتِ عارفة صح؟

تخبره بنبرة مشفقة ومحزونة:

- كنت عارفة يا طارق بس هي بتحب نادر ونادر بيحبها وميقدرش يعيش من غيرها.

يردف ودودًا:

- ملوش لازمة الكلام دا روحي اطلعي البيت دلوقت.

تخبره بانصياع:

-حاضر سلام.

تصعد إلى منزلها وهي خائفة من ردة فعل والدتها، فها هي أتت لها وهي مطلقة تلك الكلمة التي هي وصمة سوداء بالنسبة إلى والدتها، ولكن الغريب أن والدتها لم تعقب حتى. دلفت إلى غرفتها وظلّت تردد اللهم رب هذا القلب فليطمئن، شعرت بنقصها لأول مرة، في كل المرات السابقة كانت تتركه حانقة وغاضبة منه، أم الآن فهي تشعر كما لو أن هناك غصة في حلقها. وهنا ليصف المرّ المتجرع هذه الأغنية المحزونة:

"معارف والنهاية واحدة آخرها بترسي ع الوحدة

مش فارقة واحد من واحدة محدش آمن الدنيا ولا الأيام

عيون مش صافية وتأمّلِ في ناس مضطرة تتحمل

وناس كان نفسها تكمل وفي اللي فراقه كان دنيا لقاه اعدام

في واحدة بتقسى تتقوى وتتلون وتتلوى

و واحدة ضعيفة من جوة ومن غير حضن يحميها ولا بتنام"

* **

.... في مكان آخر وتوقيت آخر.

يتحدث مع زوجته محبًا ودودًا، يطوقها بين ذراعيها ويخبرها بكل حب واستمالة لقلبها:

- سارة بحبك.

تلتف إليه وتنظر في شك:

-عاوز إيه يا أدهم؟

يخبرها سريعًا وخائفًا من ردة فعلها:

-هروح فرح ندى وخالد لأن خالد عزمني وأنتِ حبيبتي هتقعدي مع رومي ابننا، لأنه محدش بيطايقك هناك على كل حال.

تخبره في ابتسامة ونبرة هادئة:

- أدهم يا حبيبي رجلي على رجلك.

يحاول أن يجد عذرًا ويتحجج بالطفل:

- سارة طيب والولد.

تخبره بودٍ وتشير إليه:

-أنتَ هتشيله وتخليه في حضنه.

يتمتم حانقًا:

-يا رَبّــيٌ أنا كان مالي بالجواز والخلفة والحاجات دي كلها، ما أنا كنت سنجل ومريح دماغي وعايش حياتي.

تنظر له بشك:

-بتقول حاجة يا قلبي؟

يبتسم ويخبرها مترددًا:

-لا يا عمري بقول جهزي نفسك بكرا.

تردف بتهكمّ:

-بحسب.

يخبرها مبددًا شكها:

- متحسبيش يا حبيبي.

ومن ثم يردف، ليجعلها تذهب بعيدًا وتنشغل عن الأمر:

- روحي شوفي رومي بيبكي وعاوزاك هناك أهو.

تتركه وتذهب لترى طفلها:

- رومي حبيبي، حبيب ماما.

* **

..... في مكان آخر.

يتحدث مع شخص ما في الهاتف وكان حديثهم حادًا ربما.

الشخص الأول بتهكمّ:

- نادر معايا؟

نادر خائفًا ومتوترًا:

-أيوه حضرتك مين؟

يخبره مستفزًا:

-عندي فضول أعرف شكل اللي حبته مراتي.

نادر متلعثمًا:

- حضرتك أنا مكنتش أعرف ولما عرفت أنا سيبتها وأظن أني مليش ذنب.

يخبره أمرًا:

- بس أنا عندي فضول، هبعتلك دعوة الفرح، أوعي متجيش، لازم أشوفك.

نادر متوتر:

-مش هعرف، يعني خلاص كل واحد راح لحاله.

يخبره مصرًا:

-أنا مصر لازم تيجي.

ويغلق الهاتف ويضعه في جيبه، ليرى من فضلته عليه، كيف يمكنها أن تحب أحدًا غيره، ما فعله كان خاطئًا ولكنها كاذبة كذلك ما كان ينبغي عليها أن تكذب عليه.

الفصل الثاني والأربعون و الفصل الأخير

"لحظة ميلاد الفرح"

يوم موعود ممتلئ بالصراعات، الخوف، الفزع، الثأر، قصص حب تكتمل، و... والكثير من الأسرار تكشف مجددًا، بالمناسبة هناك أسرار خير لها أن تبقي

أسرار، أعني هناك حقائق يجيب أن تظلّ غامضة، لقد اكتشفنا كثيرًا من أسرارهم وأظن أن هذا يكفي، لقد انتهينا وستنتهي هذه القصة وسيخط القلم آخر فصولها.

.... الساعة الثالثة فجرًا يستيقظ هلوعًا يبحث عنها في أرجاء الغرفة، لقد سمع صوتها يوقظه كما في كل مرة، يستعيد وعيه، ربما هو في حلم اليقظة، ينهض من فراشه ليصلى فرضه وهو يتمتم قائلًا:

-أنا متأكد إني سمعت صوتها وهي بتصحيني، طيب أروح أصلي وارجع انام.

....يستيقظ الساعة الثامنة صباحًا، يدلف إلى غرفة "السفرة" يتناول طعام فطوره، ويتحدث مع مدبرة المنزل سائلًا إياها في قلق:

- نجوى هي جنة كانت هنا امبارح بالليل؟

تنظر له في قلق:

-سلامتك يا بيه مكنش في حد غيرك في الفيلا.

يخبرها أن تذهب إلى أي مكان تريد، يظلّ مفكرًا فيما حدث معه، هل يا ترى جن جنونه أم ليس بعد؟

.....توقف عن العبث والتفكير وذهب ليمارس عمله، وبعد أن مر بيوم عصيب، ها هو سيعود إلى منزله بعد أن انهى جميع ما ترتب عليه عمله، وبينما هو يهمّ مغادرًا يستوقفه ماجد ويتحدث معه.

يخبره في غرابة:

-في حاجة يا ماجد؟

ماجد بجدية يتخللها المزاح:

-لا مفيش كنت بطمن عليك، أنتَ بدلت الملفات وبوظت الدنيا مالك سرحان في إيه، بتحب جديد يا واد ولا إيه؟

يتململ ويخبره في حيرة:

-بصراحة مش عارف مالي.

يربت على كتفه ويخبره جادًا:

-روق كدا وركز أنا مش هراجع وراءك كتير، أحنا مضغوطين على الأخر مش عاوزين لعب بعد كدا، أنا مش هعيش العمر كله يعني.

يخبره تائهًا:

-لا متخافش كل حاجة هتكون تمام.

يستمع لصوتها مجددًا وهي تنهره:

- بقا كدا بوظت الدنيا ركز وبلاش فضايح عجبك كدا اهو اتهزقت.

يردف مستغربًا:

-ماجد أنتَ سامع حاجة.

ماجد باستغراب:

-حاجة إيه أنتَ مالك من الصبح مش طبيعي؟

يخبره هاربًا:

-لا مفيش، أنا همشي دلوقت، لازم أعمل حاجة كدا.

ماجد متعجبًا:

-طيب والشغل.

يخبره ممازحًا:

-دي حاجة أهم من الشغل.

* **

.....في الساعة الثامنة مساءًا.

... في فناء منزلها الفخم، الزينة معدة، الضيوف خارجًا، منصة العرس مزينة، التجهيزات جاهزة يجلس زوجها منتظرًا لها، ستزف إلى قرة عينها أو من كان كذلك، هي الآن تمقته وقلبها ينبض بحب شخص آخر. تجلس في غرفتها باكية وبجانبها صديقتها مواسية لها وتربت عليها في حنوٍ:

-ندي حبيبتي كفاية بقا عياط إيه، متزعليش نفسك.

تخبرها بصوت محشرج وأحبال صوتية تهلكت:

-أنا مكنتش فاكرة أنه هيرجع أنا كنت فاكرة أنه خلاص نسيني، وأنا كمان نسيت مهما حاولت أبعد مقدرتش.

تخبرها بودٍ وتحاول طمأنتها:

-كل حاجة بتتغير وخالد كمان هيتغير.

تصرخ في وجهها منفعلة:

-خالد مش طارق يا جنة، طارق كلنا كنا عارفين أنه طايش والخ بس كان طيب.

جنة بنبرة محزونة:

-وطارق ماله بكلامنا دا يا ندى، وخالد كويس جدًا، أنتِ اللي كدبتِ عليه، وخالد أحسن من طارق بمليون مرة.

ندى تخبرها متأسفة وراجية:

-أسفة أني انفعلت بس أنتِ بتحبيه وتخيلي كدا لو أنتِ مكاني وحد خدك منه هتعملي إيه؟

تزفر ومن ثم تخبرها بآسي:

-أنا وطارق اتطلقنا امبارح ومعدتش بينا حاجة، عادي.

ندى متعجبة من حال صديقتها:

-ازاي دا كنتِ رافضتِ مش بتحبيه!

تخبرها بقوة:

-علشان تعيشي مع حد لازم يكون بيحبك هو كمان، لكن من طرف واحد ملوش لازمة.

ندى مندهشة مما تسمع:

-أنا مستغربة منك ازاي حبتيه؟

تخبرها بيأس ومن ثم تردف ممازحة:

-عارفة بالرغم من كل حاجة بس كان بيلين أحيانًا ولما يحس أنه بقى كويس بيقلب تاني. يمكن مكنش عاوزاني أحبه أو اتعلق بيه، وأهو أتعلقت.

ندى وتضرب كفً بكفٍ:

-مش عارفة اقولك إيه غير أنك هبلة.

تخبرها أن الوقت انتهى ويجب أن يذهبوا خارجًا:

-لا أنا مقتنعة بكدا، ويلا بينا خالد مستني برا.

ندى نافية وخائفة كذلك:

- لا.

بعد كر و فر، شد و جزم. انصاعت لها وهبطت إلى أسفل لتدلف خارجًا إلى منصة العرس بجانب زوجها، ليخبرها بكل حب:

- شكلك زي القمر يا قلبي.

تشيح بنظرها عنه:

- شكرًا.

خالد متسائلًا:

-مالك شكلك مش مبسوطة ليه؟

ندى بصوت محتقن:

-لا عادي، و دا يهمك في حاجة.

... جنة تبحث عن طليقها لتراه. لماذا ربما ليتحدثوا قليلًا، وفي ظلّ بحثها تصطدم بماجد وتسأله عنه:

-ماجد هو فين طارق؟

ماجد بهدوء مشيرًا لها أن تذهب له:

-اهو هناك اهو.

تستأذن منه وتخبره في خجل:

-طيب هروح اشوفه.

تذهب إليه بخطوات ثابتة ونبضات قلب متسارعة وتربت على كتفه قائلة في تلعثم:

-طارق.

يلتف ناحيتها ويخبرها مقطبًا حاجبيه كاتمًا لضحكه:

-مين حضرتك؟

تنظر له بحنق وتغضب منه وتصبح كالطيور الغاضبة في لعبة الطير الغاضب:

- مين حضرتي، طيب سلام.

يمسك يدها ويخبرها أن تنتظر:

-استني بس إيه مش هتبطلي عناد ولا إيه؟

تخبره في إصرار وتحاول أن تتملص منه:

-لا مش هبطل وأنا همشي سيب ايدي ندى عاوزني ممكن؟

يترك يدها محررًا إياها:

-ممكن روحي.

* **

...ندى تجلس في منصة الزفاف مع زوجها ويدلف نادر إلى الفناء لتصدر موسيقى تصويرية لأغنية أستاذ وائل جسار " أعذريني يوم زفافك، مقدرتش أفرح زيهم، مخطرش أبدًا يوم في بالي أني أبقى واحد منهم "، ينظر لها طويلًا بيأس، تقف مذهولة، ودموعها تنسدل على وجنتيها.

خالد وينظر له باحتقار:

-في إيه يا ندى؟

تخبره ببكاء:

- خالد أنا بحبه هو.

خالد منفعلًا:

- أزاي دا معلش؟

... نادر يهمّ مغادرًا، تهبط من المنصة في وسط ذهول الحضور وتركض إليه وبينما هي كذلك يسقط وشاحها الأبيض، تذهب إليه باكية وتخبره في رجاء وصوت مبحوح:

-نادر استني أنا بحبك ومش عاوزة اسيبك.

خالد يقف منفعلًا:

-ندي رايحة فين خدي هنا؟

تخبره في رفض:

- لا مش هرجع.

نادر يخبرها أن تذهب لزوجها:

-روحي لجوزك يا ندى وبلاش فضايح.

تتشبث بيده ودموعها تنسدل من مقلتيها:

- مالك أنتَ بسهولة كدا بتتخلي عني؟

يجرها خالد من يدها ويجعلها تجلس على المنصة ويخبرها منفعلًا:

-اقعدي هنا وأنا هروح اشوف الشخص دا وأنتِ حسابك بعدين. فضحتينا.

تخبره راجية:

- لا يا خالد سيبه في حاله.

... يتركها غاضبًا ومنفعلًا ويذهب لذلك الشخص الوغد الذي أحبته زوجته، في البداية يبدو الأمر طبيعيًا، لو هشم رأسه بكلتا يديه، ولكن ما فعله كان عجيبًا لقد ضمه إليه وأخبره مبتسمًا:

-نادر حبيبي.

ندى فاغرة فاها مذهولة ومتفاجئة، تنظر إلى صديقتها:

-جنة إيه دا؟

خالد عاقدًا يدً بيدٍ:

-طبعا مصدومة.

يحول بصره إلى نادر قائلًا:

-نادر روح اقعد جانب عروستك.

تهبط من منصة الزفاف وتتجه صوب نادر وتظلّ تضربه بكل قوتها ودموعها لا تتوقف عن الفيضان:

-إيه اللي عملته دا أنا بكرهك.

خالد ممازحًا:

-معلش يا ندى أنا اللي عملت المقلب دا مش هو، وقعت على الأوراق وطلقتك بالتلاتة.

تنظر لهم بحنق:

-بقا كدا تضحكوا عليا.

نادر يخبرها ضاحكًا:

-خلاص بقا، شوفتي مقدرتش اتخلي عنك وخالد السبب هو اللي رجعني ليك، منظرك كان تحفة وأنت بتجري عليا بفستان الفرح.

تنظر لهم بازدراء وتتناول فستان زفافها وتهمّ راكضة:

-أنا همشي أبقى اتجوز حد تاني سلام أنتوا بجد مستفزين.

نادر مشيرًا لها أن تنتظر:

- يابت استني هنا رايحة فين وفرحنا؟

تركض وتتركه وتخبره في انفعال:

-اتجوز خالد، مش هو صاحب الفكرة.

يركض الجميع خلفها محاولين اللحاق بها:

-استني يا مجنونة وربنا الواد بيحبك.

تعود إليهم بانصياع، لتتزوج من تحب بعد معاناة، ينزع سترته ويغطيها بها، لأنها ارتدت فستانًا مكشوفًا، بالرغم أنه حذرها كثيرًا من هذا الأمر وهي لم تكن في حالة تسمح لها بالتبرير حتى.

.... تقف بعيدًا ويربت على كتفها قائلًا:

-جنة؟

تلتف ناحيته وتخبره بحنق:

-مين حضرتك؟

يخبرها ممازحًا:

-أنتِ بتردهيلي على كدا؟

تردف بتهكمّ:

-تقدر تقول كدا.

يخبرها ودودًا:

-عاوز أقولك حاجة؟

تبتسم وتأذن له بالحديث:

-قول.

يخبرها متوترًا:

- متضحكيش عليا.

تهز برأسها في إيجاب:

-مش هضحك عليك.

يخبرها مترددًا:

-طيب أنا من ساعة ما سبتي البيت وانفصلنا وأنا بسمع صوتك في كل مكان هو أنا اتجننت كدا ولا إيه دا؟

تكتم ضحكها دون أرادة منها وتستأذن منه أن تضحك:

- ممكن أضحك؟

يخبرها نادمًا:

-أنا جزمة أني قولتلك أساسًا.

هربت من ثغرها ضحكات تحاول أن تمنعها:

-بس مش قادرة افصل ضحك.

يحدجها بعينيه:

-بطلي ضحك. بقا إيه؟

تمسك بطنها مش شدة الضحك:

-مش قادرة.

بنبرة منفعلة:

-جنة ها.

تشير بيدها إلى فمها أنها ستغلقه:

-طيب خلاص اهو مش هضحك.

يخبرها متلعثمًا:

-طيب أنتِ جننتيني، أنا.....

تطرق في خجل:

-أنتَ إيه؟

يخبرها ممازحًا:

-أنا جعان.

تتمتم بحنق:

-غلس.

يخبرها جادًا:

- نتكلم جد بقا.

تومئ برأسها إيجابًا، ومن ثم يردف قائلًا:

- أنا حبيتك ومتساليش ازاي؟ حبيتك ومعرفش ازاي دا حصل أصلًا وقعتيني في حبك يخربيتك.

تتورد وجنتيها وتخبره في خجل:

-إيه اللي بتقوله دا، أحنا متفقناش على كدا، أنا بجد مش عارفة أقول إيه؟

يردف متفاهمًا:

-متقوليش حاجة، أنا بس كان نفسي اقولك واعترفلك.

تخبره بحسرة:

-بعد إيه يا طارق ما أحنا خلاص اتطلقنا.

... وهنا يتدخل ماجد بينهما ويخبرهم بسرور:

- متطلقتوش يا ستي.

طارق منصدم:

- ازاي دا؟

جنة غير مستوعبة ما يحدث هنا:

- والمحامي أحنا خلاص وقعنا على الأوراق؟

ماجد مستغرب من كمية الغباء، هذان الاثنان قمة الغباء:

- هو في حد يروح يطلق يروح لمحامي أنتوا ملتكم إيه بالضبط؟ بنروح لمأذون يا حبايب قلبي، المهم يا واد أنت كان في نيتك تطلقها، قولتلها الكلمة يعني.

يخبره منحرجًا:

- لا مكنش في نيتي والله.

ماجد ممازحًا:

-خلاص قولها رددتك إليَّ، ورجعها، ومتصدعوش دماغي تاني.

يردف جادًا:

-عاوز أتكلم معاك ضروري، وممكن أحضنك لأني هسافر.

طارق ممازحًا:

- طيب خلاص ممكن تمشي عاوز اقولها كلمة سر، متأوفرش يا ماجد روح.

* **

يتركهم ويهمّ مغادرًا، يذهب إلى شخص ما ليتحدث معه في ذات المكان.

ماجد ممازحًا ومعاتبًا:

-المفروض تكون أشطر مزور مش رجل أعمال أبدًا.

يخبره ممازحًا:

- قلبك أسود يا ماجد، بس دا بيزنس ومش أي بيزنس دا الجانب السيئ فيه، يعني أنت فاكرني عبيط عشان أديك ملفات شغل حقيقية، عشان تستخدمها ضدي؟

ماجد ممازحًا:

-وأنت أعبط لأنك فاكر ممكن أصدق أنك هتديني ملفات حقيقية يا أدهم، طول عمرك مزور، أنصحك تشتغل في التزوير بيكسبوا حلو، وسيبك من البيزنس والكلام اللي مش جايب همه دا.

أدهم ضاحكًا:

-حاضر يا ماجد هعمل كدا، وأنت هتكون أول زبون.

ماجد يخبره جادًا:

- مش هتبيع الشركة اللي قولتلك عليه، دي حتى واقفة عليك بخسارة.

أدهم هادئًا:

-ومين قالك أنها واقفة بخسارة، دي أكتر شركة بتكسب، بس أنا قولتلك خد أي شركة وبنص التمن ما عدا الشركة دي ولو بكنوز الدنيا كلها مش هبيعها.

ماجد بيأس:

-أنت عنيد يا أدهم، على العموم، هيجي وقت وهتندم، وساعتها مش هتلاقيني.

أدهم ممازحًا:

- ليه هتروح فين؟

ماجد بوجه عابس:

- هقابل صاحبي يا عم.

يتركه محتارًا، ما به؟ ليست هذه المرة الوحيدة التي يرفض أن يبيعه هذه الشركة، ولكنه في كل مرة يصمم عليها أكثر، يريدها دون غيرها، وهو لن يفرط بها بكل حال.

* **

..... **بعيدًا**

يجلسان بعيدًا يتحدثان تحت السماء بنجومها المتلألئة، النسمات الباردة تلفح وجهيهما.

تخبره في فضول:

- طارق كنت عاوز تقول إيه؟

طارق:

-كنت عاوز أقولك زي ما الدرويش قال: بقا أنتي يا نجمة يا نقية يا عالية يا صعبة يا عصية، بقا أنتي تفكري فيا؟ بقا أنتي تطيبي خاطري وتيجي طريقي وتخاطري وقلمك يمشي على سطري ويكتب أيوه قلبي معاك.

تضربه على كتفه في خجل:

- بس بقا.

يخبرها ودودًا:

- في إيه مش مراتي ولا أنتَ بت أختي؟

تخبره في طفولة وحب:

- بلاش غلاسة خلاص بحبك ارتاحت بقا.

يخبرها مستفزًا لها:

- بإيه مش سامع؟

تخبره بعناد:

-طيب وأنا مش هقول تاني، وبكرهك هاا.

يستعجب من حالها قائلًا:

- أعوذ بالله من قلبتك.

تنظر له بحدة:

-بتقول إيه؟

مغايرًا لزمام الأمور:

-بقول نشوف نادر وندي هناك اهو.

* **

.... يذهبان إلى أصدقائهم وتأخذ صديقتها جانبًا وتخبرها أنه أخبرها أنه يحبها، وتفرح لأجلها وتضمها في سرور.

... نادر يتحدث معه:

-طارق أنتَ قولتلها اللي قولتلك عليه؟

يخبره مسرورًا:

- أيوه قولت.

نادر مستفسرًا:

- طيب وردها إيه؟

طارق بنبرة مسرورة:

-بتحبني.

* **

.. يرى أدهم من بعيد فيذهب إليه ومعه زوجته، ولكن أدهم يشير إلى زوجته بالمغادرة مع جنة ليتحدثا حديثٍ رجلًا لرجلٍ.

يتقدم نحوه مطأطأ الرأس:

- أدهم ممكن تسامحني.

أدهم مستغربًا:

- أسامحك ليه يا طارق، أنتَ عملت إيه؟

طارق متلعثمًا:

- كنت فاكر أن سارة قالتلك على الحادثة.

أدهم بنبرة محتدة وتحذير:

- أولًا لسانك مينطقش اسم مراتي، ثانيًا مش بأخد على كلامها، ومن فضلك يا طارق يفضل أنك تكون بعيد، و يا سيدي إيه فاكرك بعد كل السنين دي؟

طارق نادمًا:

- يا أدهم أنا ....

يقاطعه منفعلًا وهمّ أن يضربه لولا أن قاطع حديثهم تصاعد رنين الهاتف النّقال الخاص بأدهم، ليتناول هاتفه و يجيب في قلق:

- أيوه، حاضر جاي، لحظة واحدة.

ومن ثم يلتفت إلى طارق:

- كلامنا انتهى يا طارق.

.... في هذا الوقت، كانت تتحدث جنة مع سارة وتلاعب طفلها:

- باسم الله ما شاء الله يا سارة، جميل و قمر زيك.

سارة تحدثها بودٍ:

- ربنا يخليكِ تسلمي.

جنة تسألها في توتر:

- ممكن أشيله؟

تناوله لها في ودٍ:

-خدي سمي الله.

جنة وتلتقطه وتنظر له في ودٍ وتنساب دموعًا من عينيها:

- باسم الله، أنتَ قمور خالص يا صغنن، خلي بالك من ماما ماشي.

يتدخل بينهما ليأخذ زوجته وطفله ويغادروا مسرعين، تخبره زوجته في قلق:

-أدهم في إيه مالك؟ حصل إيه طيب؟

يخبرها هلوعًا، خائفًا:

- الولاد في المستشفى بيعيطوا يا سارة، مش عارف مالهم؟

تخبره وتحاول أن تهدأ من روعه:

- أهدي طيب، كل حاجة هتكون تمام، متقلقش.

* **

.... **في المشفى.**

بكاء، و نواح يمزق نياط القلب، الأولاد يجلسون ويبكون وحدهم، المارة لا يهتمون بهم، يهرع إليهم راكضًا من هول ما يرى.

يخبرهم قلقًا وخائفًا:

- في إيه يا ولاد مالكم أهدوا؟

تظهر من خلف ظهره وتردف بصوت حاني:

- مالكم يا ولاد، أنتوا كويسين؟

يحتضنوهم في خوف ويتحدثون بأصوات محشرجة:

-عمو، عمتو، إياد في الأوضة دي بيقولوا أنه مات، بس إيه عرفهم مش يمكن نايم ، يعني إيه عرفهم، بيقولوا أن كليته وقفت ودخل للقلب مياه الغسيل الكلوي؟

ومن ثم يردف أحد الأولاد:

-مش عاوزين يخلونا نشوف أو حتى ندفنه؟

أدهم متماسكًا:

- طيب ما هو لازم ولي أمره أو اللي جابه هنا من الأول، تعرفوا عيلته طيب؟

أحد الأولاد باكيًا:

- مكنش ليه حد؟ أحنا كلنا ملناش حد، جابوا حد شبهك بس هو عيونه خضراء وشعره أصفر وأبيضاني، ومش بايظ زيك، كان بيجي يطمن عليه بس من أربع سنين وهو أختفى، وأحنا كنا بنلم تبرعات عشان تكفي المصاريف بتاعت المستشفى .والملجأ كمان بيساعدنا اللي أصلًا هو اللي عرفنا عليه.

خارت قواه وجلس أرضًا:

-عملك سابقك يا حبيبي، كنت بتوزع خير طول ما أنتَ عايش وحتى وأنتَ ميت.

يحاوطه الأولاد ويخبرونه في قلق:

- عمو أنتَ كويس، مينفعش تنهار لازم تسندنا لأنك الكبير.

يقف متصنعًا الصلابة:

- هروح أخلص الإجراءات، خليكِ معهم يا سارة.

يشير إلى الأولاد قائلًا:

-خلوا بالكم من عمتكم ومتعيطوش لأنها ممكن تعيط وتغرق المستشفى معها.

يذهب إلى الحاسبات ويدفع المستحقات ويستخرج تصريح الدفن، ليكرم الصبي بدفنه.

* **

.....في مكان حفل الزفاف.

في وسط ضحكات وهمسات، قصص الحب التي اكتملت، يتوجه ليصاعد إلى سيارته مشيرًا إلى أخيه بيده وأخيه غير مبال به.

صوت اصطدام سيارته، صراخ وعويل، النجدة، يدلف أحد العامة إلى المنزل ويخبرهم:

- في حادثة برا.

يهرع الجميع إلى الخارج . يرى أخوه على الأرض متلطخٍ بالدماء، يركض إليه صراخًا ويجثو ضامه إليه:

-يا ماجد متفقناش على كدا، متفقناش أنك تمشي، كنت غبي يا ماجد سامحني، متمشيش مكنش المفروض تمشي.

تأتي الإسعاف لتأخذه وهو يأبه أن يعطيه لهم، يهرع إليه والده ويخبره في عجز:

- يا بني سيبهم ياخدوا هو مات خلاص.

يصرخ في وجه أبيه ويزيحه بعيدًا عنه ليختل توازنه ويسنده نادر:

-أنت السبب في دا، أنا بكرهك، كان مفروض أنتَ اللي تموت مش هو.

والده مستندًا على نادر:

- يا بني أجله وانتهى، ليه هتعارض أرادة ربنا.

يخبره صارخًا متشبث بأخيه:

- أنت حتى مش زعلان عليه، ولا حتى شوية صغيرين، أنتَ إنسان أناني.

تهرع إليه زوجته وتضمه إليها وتخبره في خوف وبكاء وصوت محشرج:

-سيبه يا طارق بالله عليك، مينفعش كدا.

يخبرها باكيًا ويتشبث بها:

- ماجد راح يا جنة، راح و هو زعلان مني.

تربت عليه في حنوٍ وتنسدل دموعها حارة وتردد:

-إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون.

" مين فينا جاى مرساها مين رايح

لحظة ميلاد الفرح كان فى حبيب رايح

يا أبو الروايح يا نرجس ما تجس وتر القدر

تلقى حكايات البشر فيها عبير العبر

فيها عبير العبر صادح زى النهار الطفل لما ينفلت

من بين أيادى الضلمة و يشقشق"

النهاية المستحقة، هذه هي النهاية التي يستحقها الجميع، هناك أسرار أعلم ولكن بعض الأسرار يجب أن تبقى أسرارًا.

انتهت الحكاية بكل مرّها وفرحها كذلك، وفي النهاية الحياة ليست عادلة يا صديقي، أعني الحياة عبارة عن أرض مليئة بالمفاجآت والألغام الأرضية كذلك. أحيا بالمفاجآت وأحذر كل الحذر من الألغام. النهايات السعيدة في الواقع ما هي إلا بدايات وحسب، قد تكون نهايتها كارثية ربما.

وفي النهاية السلام لقلبك عزيزي القارئ.

تمت بحمد الله 20/5/2024

ملحوظة: تمت كتبت هذه القصة في العام 2018 وتم إعادة السرد والصياغة عام 2024 ، ولهذا قد تجد بعض الأحداث العبثية في الواقع.